

أنيس فاو

فلا تترك اليتيم . هؤلاء العظماء ولدوا معنا



للطباعة والنشر والتوزيع

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

www.nahdetmisr.com

أنيس منصور
الحائز على جائزة مبارك في الآداب

فى تلك السنة

هؤلاء العظماء ولدوا معنا



نَهْدَتْ مِصْرَ
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٢٨
www.nahdetmisr.com

اسم الكتاب: فى تلك السنة هؤلاء العظماء ولِدوا معًا.

المؤلف: أنيس منصور.

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.

تاريخ النشر: يناير ٢٠٠٤م.

رقم الإيداع: 2003 / 19806

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2513-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 02)3466434 - 02)3472864 فاكس: 02)3462576 ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 02) 8330287 - 02) 8330289 - فاكس: 02) 8330296
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 02) 5909827 - 02) 5908895 - فاكس: 02) 5903395

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 03) 5230569
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 050) 2259675



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٧٨
www.nahdetmisr.com

موقع الشركة على الإنترنت: كافة إصدارات شركة نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع تجدونها على موقع الشركة بالعنوان
التالى: www.nahdetmisr.com الرقم المجانى 07775666

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

كلمة أولى

نحن لا نعرف كيف يظهر إنسان عظيم، ومادام قد ظهر فلا بد أن له دوراً في حياتنا. فإذا ظهر إلى جواره عظيم آخر، فلا بد أن لهما رسالة. وهذه الرسالة هي دفع الناس إلى الأمام قليلاً.

ولكن ما هي العلاقة بين العظيم وظروفه؟

وما هي الصلة بين ظهور عدد من العظماء في بلد واحد في زمن واحد؟ ولماذا ظهروا معاً واختفوا معاً؟

ثم ما معنى أن تمضى مئات السنين فلا يظهر أحد عظيم؟
ففي القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت أسماء لامعة باهرة في الحضارة الإغريقية. ثم لا نجد لهم نظيراً بعد ذلك حتى اليوم. فقد ظهر عندهم الفلاسفة. هرقليطس وانكساغوراي وفيثاغورس وامبذوقليس وبروتاجوراس وأفلاطون وسقراط وأرسطو وهوميروس.

ففي سنة ١٨٨٩ وحدها ولد هؤلاء العظماء معاً وفي بلاد مختلفة:

الشاعر والمفكر العظيم: عباس العقاد..

وعميد الأدب العربي: طه حسين..

والمؤرخ الكبير: عبد الرحمن الرافعي..

والأديب الساخر: إبراهيم المازني..

وولد أيضاً: الفيلسوف الوجودي الألماني مارتن هيدجر..

والفيلسوف النمساوي: فتجنشتين مفكر الوضعية المنطقية.

والفيلسوف الوجودي الفرنسي جابريل مارسل..

والأديب الفرنسي: كوكتو..

والزعيم الألماني: هتلر والزعيم الهندي نهرو..

والمؤرخ الإنجليزي: توينبي..

والزعيم البرتغالي: سالازار..

والممثل الإنجليزي: شارلى شابلىن..
والشاعرة الروسية: اخماتوفا..
ومخترع الهيلوكوبتر البولندى: سيكورسكى..
والفلكى الأمريكى: هبل..
والرسام الإنجليزي: بول ناش..
واكتشف فون ميرنج أن البنكرياس يفرز مادة البنسلين التى تمنع الإصابة
بمرض السكر..

وانتحرار ولى عهد النمسا فى كوخ مايرلنج:

ومات الشاعر الإنجليزي بروننج..
وفى سنة ١٩٦٤ مثلا توفى:
الأستاذ العقاد..
والأديب الأيرلندى بيهان..
وعالمة البيئة الأمريكية راشيل كارسون..
والعالم الرياضى النمساوى مخترع السبرنطيقا: نوربرت فينر..
والعالم الإنجليزي فلمنج: مكتشف البنسلين..

وفى سنة ١٩٧٣ توفى:
طه حسين والمؤرخ توينبى..
وكذلك هؤلاء الأدباء بيرل بيرك ونويل كوراد وباتريك هوايت الأسترالى الفائز
بجائزة نوبل فى الأدب والشاعر الشيلى نيرودا والشاعر الإنجليزي أودن والفنان
العظيم بيكاسو والفيلسوف الفرنسى جاك ماريقتان..
وفى سنة ١٩١٨ ولد: الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس أنور السادات
والرئيس شاوشيسكو والمستشار هلموت شميت..
والأديب الروسى الفائز بنوبل فى الأدب سولجنتسين
وتاناكا رئيس وزراء اليابان..
وفى سنة ١٩٧٠ توفى جمال عبد الناصر وشارل ديغول وكاتب الرحلات

جون جنتر واثنان من الأدباء اليهود اللذان فازا مناصفة بجائزة نوبل هما:
اجنون الإسرائيلي ونيلى ساكس السويدية.. والأديب دوس باسوس والرئيس
السوفيتى ميكويان.. والروائى الألمانى ريماركه مؤلف «كل شىء هادئ فى
الميدان الغربى» والفيلسوف الإنجليزى رسل والفيلسوف الألمانى كارناب.
واحتقرت دار الأوبرا المصرية..

وإليك المزيد من هذه «الصدف» التاريخية.. فهل لها دلالة؟ وهل هناك هدف..
خطة.. قرار.. وهل فى الحياة وفى الكون ما يوصف بأنه صدفة؟!
ففى سنة ١٩٢٩ ولد:

الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات وأنشئت الوكالة اليهودية.
والأديب الإنجليزى الساخط جون أوسبورن.
وولدت الطفلة الهولندية «أن فرانك» التى روت تعذيب النازى لليهود وتحولت
مذكراتها إلى مسرحية وإلى أوبرا..
ومات الأديب النمساوى هوفمانشتال..
ومات الزعيم الفرنسى كلمنصو..

وفى سنة ١٩٢٧:
ومات الزعيم سعد زغلول..
وولد الأديب الألمانى العظيم جنترجراس..

وفى سنة ١٧٦٩ ولد:
الإمبراطور نابليون..
وولنجتون القائد الإنجليزى الذى هزم نابليون فى موقعة ووترلو..

وفى سنة ١٨٠٤ ولد:
الأديبة الفرنسية جورج صاند..
والناقد الفرنسى سانت - بيغ..
والزعيم البريطانى درزائيلى..

والفيلسوف الألماني الأعظم إيمانويل كانت.

وفى سنة ١٨٠٥ ولد:
العالم الإنجليزي العظيم داروين..
والرئيس الأمريكي لنكولن..
والأديب الأمريكي ادجار بو..
والأديب الروسي جوجول..

وفى سنة ١٨١٠ ولد:
الموسيقار شوبان..
والموسيقار الألماني ليست..
والشاعر الفرنسي ديميسيه..

وفى سنة ١٨١٢ ولد:
الأديب الإنجليزي ديكنز.
وعملاق الصناعة الألمانية: كروب.

وفى سنة ١٨١٣:
ولد الفيلسوف الوجودي الدانماركي كيركجور..
والموسيقار الألماني العظيم فاجنر..
والموسيقار الإيطالي فيردى..

وفى سنة ١٨١٨ ولد:
الشاعر الفرنسي بودلير..
والأديب الروسي دستوفسكى..
والأديب الفرنسي فلوبيير..

وفى سنة ١٨٢٨ ولد:

المسرحى النرويجى: إبسن.
والأديب الروسى تولستوى
والموسيقار الإيطالى روسينى..

وفى سنة ١٨٣٢ ولد:
الرسام الفرنسى مانيه،
ومحمد على الكبير..

وفى سنة ١٧٧٠ ولد:
الفيلسوف الألمانى هيغل.. والموسيقار الألمانى بيتهوفن..

وفى سنة ١٧٨٨ ولد:
الفيلسوف الألمانى شوينهور..
والشاعر الإنجليزى بايرون..
والموسيقار الألمانى باخ..

وفى سنة ١٧٩٥ ولد:
الشاعر الإنجليزى كيتس..
والمفكر الإنجليزى كارليل..

وفى سنة ١٧٩٧ ولد:
الموسيقار الألمانى شوبرت..
والشاعر الفرنسى ألفرد دافنى..
والشاعر الإنجليزى شيللى..
والشاعر الألمانى هينى..

وفى سنة ١٧٩٨ ولد:
الأديب الإيطالى ليوناردى..

والرسام الفرنسي دلكروا..
والفيلسوف الفرنسي أوجيست كونت..

وفى سنة ١٧٩٩ ولد:
الأديب الفرنسي بلزاك..
وأمر الشعراء الروس بوشكين..

وفى سنة ١٨٠٢ ولد:
الأديبان الفرنسيان: فيكتور هيجو والكسندر ديماس.

وفى سنة ١٨٠٣ ولد:
الأديب الفرنسي مريميه..
والموسيقار الفرنسي برليوز..
والناقد الألماني هردر..
والأديب الأمريكي امرسون..
والمهندس أيفل الذى أقام البرج الشهير فى باريس سنة ١٨٨٩..
وتوفى: الشاعر الألماني جيته.
والفيلسوف الإنجليزي بنتام.

وفى سنة ١٨٣٣ ولد:
ألفرد نوبل صاحب الجائزة الشهيرة..
والموسيقار الألماني برامز.

وفى سنة ١٨٤٤ ولد:
الفيلسوف الألماني نيتشه..
والموسيقار الروسى: رمسكى - كورساكوف..
والأديب الفرنسي أناتول فرانس..

وفى سنة ١٨٤٩ ولد:
الأديب السويدي سترندبرج،
والاقتصادي السوفيتي ليبرمان،
ومات: الموسيقار شوبان.
والأديب أدجارو..

وفى سنة ١٨٦٠ ولد:
الأديب الروسي تشيخوف.
والموسيقار النمساوي مالر.
وتوفى: الفيلسوف شوبنهاور.

وفى سنة ١٨٧٠ ولد:
الزعيم الروسي الكبير لينين.
وتوفى: الأدباء ديكنز، ومريميه، وديماس الأب.
وفى سنة ١٨٧٤ ولد: الزعيم الإنجليزي تشرشل..
والزعيم الصهيوني حاييم فايتسمان.
والأديب الإنجليزي: سومرست موم
والفيلسوف الألماني كاسيرر
والموسيقار السويدي شينبرج
والشاعر الأمريكي روبرت فروست
والمخترع الإيطالي ماركوني

وفى سنة ١٨٨١ ولد:
الزعيم التركي أتاتورك
والزعيم الإنجليزي: بيفن
والرسام العظيم: بيكاسو
وتوفى الأديب كارليل والزعيم دزرائيلي..

وفى سنة ١٨٣٣ ولد:
الزعيم الإيطالى موسولينى..
والزعيم الفرنسى لافال..
الفيلسوف الألمانى ياسبرز
ومات: كارل ماركس والروائى الروسى ونورجنيف والموسيقار الألمانى فاجنر..

وفى سنة ١٩٣٤ ولد:
أول رائد للفضاء جاجارين
والنجمة الإيطالية صوفيا لورين
والنجمة الفرنسية بريجيت باردو.

وفى سنة ١٩١٠:
مات تولستوى
وولد الأديب الفرنسى الوجودى جينيه
والأديب الفرنسى جان أنوى..

وفى سنة ١٩١١: ولد نجيب محفوظ..
ومات الفيلسوف الألمانى دلتاى
والموسيقار النمساوى مالر.
والزعيم أحمد عرابى.
وحصلت عالمة الفرنسية مارى كورى على جائزة نوبل فى الفيزياء..

وفى سنة ١٩١٦ توفى:
الشاعر الإنجليزى العظيم شيكسبير..
وتوفى الروائى الأسبانى العظيم سرفانتس.

ويوم توفى الخليفة عمر بن الخطاب ولد الشاعر الرومانسى عمر بن أبى
ربيعة.

فقال الناس بعد ذلك: لقد زهق الحق وظهر الباطل!
ويوم توفى نابليون القائد العظيم ولد بودلير الشاعر الرجيم.
ويوم اغتيل الرئيس كنيدي مات الأديب الإنجليزي الدوس هكسلي.
ويوم أطلق الرصاص على سعد زغلول توفى الأديب المنفلوطي..
ويوم مات طه حسين توفى د. حسن عثمان العالم الجغرافي الذي ترجم
«الكوميديا الإلهية» للشاعر الإيطالي «دانته» - دون أن يدري به أحد!
والمؤرخ الإيطالي ماركو دولاونته عندما كتب عن الشاعر الإيطالي بتراركة
قال: لم تشأ الطبيعة أن تلد عظيما غيره سنة ١٣٠٤.. ادخرت له هذا العام
والأعوام التالية لينفرد بالعظمة.

ولكنه لا يعلم أن رجلا عربيا باهرا قد ولد معه هو ابن بطوطة!
ولكن هذه العبارة تدل على تفسيره للتاريخ: وهو أن القدرة الإلهية.. أو الإرادة
التاريخية هي التي تصنع العظماء.. وتجعلهم واحدا في سنة أو عشرة في سنة..
أو عشرة في قرن أو عشرة قرون..

إنه - إذن - لا يرى أن «الصدفة» هي التي جمعت هؤلاء العظماء معا.. لأننا لا
نعرف كيف «تقرر» أن يظهر: العقاد وطه حسين والحكيم والمازني وعبد الرحمن
شكري وسيد درويش ومختار وشوقي وحافظ إبراهيم وعزيز أباظة ومحمود حسن
إسماعيل وناجي وعلى محمود طه وصالح جودت ورامي ويوسف وهبي ومحمد
عبد الوهاب والسنباطي والأخوان رحباني وأم كلثوم والسنهوري والتابعي
ومصطفى أمين وعلى أمين ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس والسباعي
وصلاح طاهر.. ثم إننا لا نعرف متى يظهر آخرون.. يملئون الفراغ الثقافي..
وهل من الضروري أن يظهر آخرون بنفس المقاس.. أو أن ظهورهم مرهون
بظروفهم.. فكما أن لكل ظروف رجالا، فلكل رجال ظروف..

ثم هل هناك «صدفة» في التاريخ؟

لا توجد صدفة!

.. وإنما الصدفة هي عبارة عن: سلسلتين من الأحداث.. كل واحدة تمشي
مستقلة عن الأخرى.. وفي وقت ما تصطدم السلسلتان.. فتكون الصدفة - هذا رأى
الفيلسوف الفرنسي كارنو..

ولكن يجب أن أوضح.. مثلا نفرض أن شخصا ينظر من طائرة هليكوبتر

وقفت فى سماء القاهرة.. ونفرض أنه يرى شخصا خرج من بيته من إمبابة.. وهو يعلم مقدما أن هذا الشخص سوف يقطع المسافة من بيته إلى مبنى مجمع التحرير فى ساعة وثلاث دقائق وعشر ثوان.. ونفرض أيضا أن طوبة فوق هذا المبنى يحركها الهواء والمطر ملليمترا كل يوم.. وأنه بناء على ذلك سوف تسقط بعد كذا دقيقة..

وعند سقوطها فى الوقت المحدد لها، أى فى الوقت الذى يجعلها تفقد توازنها وتسقط «يتصادف» مرور هذا القادم من إمبابة.. هو يمشى فى حال سبيله لا يعرف شيئا عن الطوبة.. والطوب يتحرك بانتظام لا علم لها طبعاً بهذا الشخص.. وفى الثانية وفى المكان هبطت الطوبة فوق دماغه تماما - ومات! الصدفة - إذن - لمن يرى حادث الاصطدام..

ولكنه لا يعرف مسار الشخص ولا مسار الطوبة.. ولكن الذى ينظر من نافذة الطائرة.. أو الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يعرف كل ذلك.. فهل هى صدفة؟
الجواب: لا..

ولكن لماذا تصيب الطوبة هذا الشخص بالذات؟ لأنه مقدر له أن يموت هكذا. فنحن لا نعرف إلا أن الطوبة وقعت فوق دماغه وإلا أنه مات!.. وإلا أنهم قد ولدوا معاً، تعاونوا، أو تقاتلوا.. ظهوروا فى مسرحية اسمها: لعبة القدر.. أو القدر لعبتنا.. ثم تحدوا القدر أو استسلموا له..

أو هل «الصدفة» أو «القاعدة» أن يظهر عظيم واحد فى أى وقت.. بل اثنان.. ثلاثة فى نفس العلم أو نفس الفن.. أو فى علوم وفنون مختلفة.. ثم ينحسر المد التاريخى.. ليرتفع بعد ذلك.. بعشرين سنة.. بمائة.. بألف.. ويكون العظماء بأشكال وألوان وأحجام وأدوار أخرى سوف نرى!

إن شيئا عجيبا لا نظير له فى التاريخ قد وقع فى كل الدنيا فى ١٨٨٩.. لقد ظهر عظماء كثيرون يدفعون الحضارة الإنسانية بقوة العقل والوجدان.. أو بقوة الدمار القائم على أحدث ما اخترع العقل..

أو بقوة الألم والندم على الذى كان والأمل العظيم ألا يكون مرة أخرى.. حاول معى أن ترى وتسمع وأن تجد «خط سير» العظماء.. إلينا ومعنا وأمامنا إلى ما لا نعرف من إبداع الحضارة الإنسانية..

العقاد: بحر بلا انتهاء!

أستاذنا العظيم عباس محمود العقاد، شغلنا عن العظماء من حولنا.. فلم نكن نرى غيره، ولا نسمع سواه، ولا النور إلا في حضرتة، ولا الحكمة إلا عندما نسترجع ما قال وما يمكن أن يقول.. وشغلنا بالفلسفة عن الأدب، وفلسفته هو عن دواوينه وعن شعره، نحب شعر شوقي وحافظ ومطران - والعقاد لا يحبهم ولا يرى لهم أية موهبة!

ولم يكن العقاد مجاملا في ذلك.. ففي يوم جاءت شاعرة لبنانية جميلة وألقت شعرا لها.. ولم يظهر الارتياح على وجه الأستاذ العقاد.. ثم جاء شاعر من أسوان وألقى شعرا وظهرت البهجة على وجه الأستاذ. وكان لابد أن يفسر لنا ذلك فقال مشيرا إلى الجميلة: أما أنت فنراك ولا نسمعك.. وأما أنت يا مولانا فنسمعك ولا نراك.. هاها.. هاها.

وكان الأستاذ في منتهى القسوة! وعندما كان الشعراء الشبان يبعثون إليه بقصائدهم باعتباره مقررا للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، فكان يعيدها إلى «لجنة النشر» - لأن هذا الشعر بلا قافية!

وعندما طلبوا إلى الأستاذ أن يشترك في ذكرى مرور عشرين عاما على وفاة شوقي أمير الشعراء، رأينا العقاد يجدد الهجوم على شوقي.. وبأنه شاعر زخرفي، وليس شاعرا له شخصية!

وتساءل الناس: ولكن شوقي قد مات!

وكان رد العقاد: ولكنى أراه لا يزال حيا في أمثالكم.. ولذلك لابد أن أعيد هجومي عليه!

وفي إحدى المرات جاء الشاعر الظريف محمد مصطفى حمام وقال للأستاذ العقاد: سوف أسمعك شعرا لواحد من شعراء العراق لأعرف رأيك فيه يا أستاذ.

فأشار إليه العقاد أن يقول. فقال: إنها قصيدة فى رثاء الموسيقار فردى الذى
توفى سنة ١٩٠١:

مضى ومحاسنه باقيه	فتى العقل والنعمة العالیه
إذا ضم الحانة الغالية	يكاد على الماس بعض النحاس
وتفشى سريرتها الخافيه	وتبلغ موضع أوطارها
و«عايدة» شببتها زاهيه	لقد شاب فردى وجاز المشيب
كما هى فى العصر الخاليه	تمثل مصر لهذا الزمان
ونندب أيامنا الماضيه	ونبكي على عزنا المنقضى
ونبكي مع الأسرة الباكيه	فيا آل فردى نعزيكم
يقل الزمان له راويه!	فقدنا بمفقودكم شاعرا

فأبدى الأستاذ إعجابه ببناء هذه القصيدة ومعانيها «ووحدها العضوية» أى
ترابطها وانسياقها كأنها كائن حى. وهى النظرية التى نادى بها العقاد هو
وزميلاه الشاعران عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى!

وإذا بالشاعر مصطفى حمام ينفجر ضاحكا وهو يقول: ولكنها من نظم أمير
الشعراء شوقى! فيغضب العقاد وينهض واقفا وهو يقول: اخرج من هنا يا ابن
ال...!

ويلقى الأستاذ العقاد من اهتمام النقاد أقل كثيرا جدا مما يستحقه كشاعر
عظيم وناقد عظيم.. وهى مشكلة تقع لكل الموسوعيين من المفكرين.. فالعقاد
مؤرخ وناقد وشاعر ومفكر سياسى.. ولذلك احتواء العقاد صعب.. فليس كاتب
قصة وكفى.. ولا شاعرا فقط.. ولا هو الناقد وحسب.. ولا هو المؤرخ للعبقريات
والمحلل النفسى لها.. ولا الداعية إلى التفسير السيكلوجى للتاريخ.. ولا عاشق
البطولة فى الأدب والسيرة والتاريخ والفلسفة والشعر.. وإنما كل هؤلاء.. ولذلك
كان من الصعب أن نضع عنوانا واحدا لكل الذى هو عباس العقاد!

غير أن كاتبنا الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى قد اختار به توصيفا آخر.
وهو: البحر بلا انتهاء.

فهذا هو العقاد الشاعر والمفكر والمؤرخ والناقد.

يقول الأستاذ المازنى فى تقديم ديوان العقاد:

بحر بلا انتهاء.. موج فوق موج.. رغبة من ورائها رغبة.. وحركة فى إثر

حركة.. ورياح مصطفقة ومد وجزر وضوضاء، كأنها انطلقت شياطين الأرض
تعوى، وكلام يصد العين عن النظر، وسحب ترق وتكثف وتتفرق وتتجمع وتهضب
ثم تطلع، وإمساء حالكة، وإصباح مشرقة، وصخور نائية ورمال بليلة، وسفائن
ماخرة أو مغرقة، ورعود مجلجلة، وأغاريد هافية، وآفاق تصفو، وأنجم تخنق،
ودر وأصداف وحصى وحجارة وأعشاب ثابتة، وأحياء متصارعة، وصور يختفى
فيها الزائل فى ثنايا الثابت، وتجتمع فيها الجنة والنار، والحاشية الرقيقة،
والجوف الغائر، والحاضر والماضى والسكون والحركة، والفناء والخلود، والبر
والبحر، والشرق والغرب، والليل والنهار، والشمس والقمر.. ويقول العقاد نفسه فى
وصف ديوانه:

فيه من الحكمة والغباء	وفيه من يأس ومن رجاء
وفيه من حُب ومن بغضاء	صورة محياى لعين الرأى!
ويقول العقاد أيضا:	
والشعر السنة تقضى الحياة بها	إلى الحياة بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت هى فاتنة	خرساء، ليس لها بالقول تبيان
مادام فى الكون ركن للحياة يرى	ففى صحائفه للشعر ديوان
ويقول المازنى:	

«... إنى طلعت من شعر العقاد على نواح كانت محجوبة عن عيني، وإنى وجدت
فيه التعبير عما كنت أحسه، ولا أكاد أدرك كنهه.. وإنما زدت للحياة فهما وبها
شعورا وعلما».

ويرى الأستاذ المازنى أن الحياة كانت سوف تبقى لغزا غامضا، إذا لم يقل
العقاد ما قال..

والأستاذ العقاد يرى أن النهضة تبدأ بالشعر.. وبعدها تجيء النهضة العلمية
لأن الشعر هو فهم عميق للحياة، والذين يفهمون الحياة ويذهبون إلى أعماقها،
ثم ينقلون ذلك فى صورة جميلة هم أقدر الناس على تطوير الحياة وأدوات الحياة
ولذلك يرى الأستاذ العقاد أن الشعراء الإنجليز هم أعظم الشعراء ؛ لأن الإنجليز
أقدر الناس على فهم الحياة ولذلك كانت قدرتهم الفائقة فى السياسة وفى
التجارة.. وفى الشعر أيضا!

وهناك نوعان من الشعر:

شعر الشطارة.. شعر الذكاء.. أى البراعة فى رسم الصورة الزخرفية.. والقدرة الفائقة على تقليد القدامى.. وهذا هو شعر القشور.

وهذا الشعر كما ظهر يختفى.. وكما بهرنا ببريقه، فلن يدهشنا أفوله واختفاؤه.. وهناك الشعر الطبيعى أو الطبيعى - أى الشعر الذى ينظمه الشاعر عن طبيعته.. عن إحساسه العميق بنفسه وبالدنيا حوله.

فالشاعر يترجم أعرق خلجاته. فهو الصدق وهو العمق. وهو لحم ودم. وليس مجرد صورة وزخرفة.. هذا هو شعر الوجدان. وجدان الشاعر، أى الشعر الشخصى. ولا بد أن يكون الشاعر شخصياً.. أى تظهر ملامحه الشخصية فى كل الذى يقول. ويرى العقاد أن أمير الشعراء شوقى هو نموذج للشعر الذى ليس شخصياً فشوقى قد ارتفع بالصناعة الشعرية، وهبط بالوجدان الشعرى.. إنه شعر الأبهة فى الصياغة، ولكنه شعر مجهول الناظم!

ويلفت العقاد نظرنا حتى لا ننخدع بالشعراء الذين يصفون الطيارة والسيارة ويقول لنا: هؤلاء شعراء قدامى، وإن عاشوا فى عصرنا.. لماذا؟ لأنهم يقلدون الشعراء القدامى.. فالشاعر القديم كان يصف الجمل والحصان والصحراء والخيام..

والشاعر الحديث يصف السيارة والطيارة والحقول.. فليس هذا شعراً إبداعياً وإنما هو شعر تقليد.. أى أن الشاعر المعاصر عاجز عن أن يكون معاصراً فيرتد وينتسكس ويقلد القديم فى كل شىء.

فقط يضع السيارة مكان الناقة، ويضع الطيارة مكان الفرس. ولكن لو جاء شاعر من البادية ورأى الطيارة لأول مرة وحاول أن ينقل لنا ما الذى يراه والذى أدهشه والذى أثاره والذى أهاج خياله فراح يقارن بينها وبين الحصان فهو شاعر معاصر ولا شك.. لأنه اندهش وحاول أن يقول وأن يعبر عن الذى يرى.

ولكن الشاعر المعاصر الذى يرى الطيارة، فلا يرى إلا الحمار والحصان، فهو شاعر مقلد عاجز عن أن يكون معاصراً!

وإذا رأى الشاعر المعاصر أن الحصان أحسن من الطيارة، وأنه أجمل وأروع وأن هذا هو رأيه الشخصى.. فهو شاعر مطبوع - أى شاعر صادق فى تعبيره عن طبيعته هو.. فمقياس الشعر الجيد أن يكون الشاعر صادقاً فى تعبيره عن طبيعته

هو.. فمقياس الشعر الجيد أن يكون الشاعر صادقاً فيما يقول: وأن يكون الصدق هو مطابقة شعره لواقعه النفسى.. لوجدانه.. ولذلك كان إعجاب العقاد بالمتنبى وابن الرومى لا حدود له.. فهما نموذج رفيع للشعر العظيم.. شعر الوجدان.. للشعر الذى هو «بطاقة شخصية» دقيقة لكل منهما.

والمفكر العقاد هو الذى حولنا عن الشاعر العقاد.. فلم يحدث مرة واحدة فى «صالونه» الأدبى الذى يعقد كل يوم جمعة أن قرأ أحد شعرا له.. أو حتى ناقشه.. لعلها مرة واحدة جاءت سيدة لا نعرفها، واستأذنت فى أن تغنى للأستاذ العقاد.. وغنت واحمر وجه الأستاذ من البهجة والسعادة.. ولم ندر ما الذى نفعله هل نصفق.. هل نطلب منها أن تعيد وتزيد.. هل صحيح ما قاله بعض الزملاء من أنه رأى دموعاً فى عيني العقاد.. فلو حدث ذلك لكان أكثر من احتمالنا.. الأستاذ يبكى؟! معقول؟ وهل نطلب إلى السيدة أن تغنى مرة أخرى لكى نتأكد من هذه الدموع؟ وهل نسامح أنفسنا إذا كنا سببا فى بكاء الأستاذ؟ إن أكثرنا قد تحاشى أن ينظر إلى عيني الأستاذ.

وبسذاجة منا، وحب عميق جدا، لم نفكر مرة واحدة أن نقرأ للأستاذ شعراً.. أو نسأله عن المعانى الدقيقة والرقيقة لقصائده فى الغزل والعشق والعتاب.. ولكن شعر العقاد ليس بعيداً عن نثر العقاد.. ففى نثر العقاد كل مزايا وصفات الشعر: العمق والصدق والقوة والجمال والإقناع.

ولكن أروع ما تعلمناه من العقاد هو التعطش الدائم إلى الجديد.. هو الشهية المفتوحة على كل فكر وكل أدب.. هو: الانفتاح والتفتح فلا نمل أن نقرأ ولا نتعب أن نفكر، وأن المفكر هو أعظم مخلوقات الله..

ولذلك يجب أن نرفع رءوسنا عالية.. فإله قد خلقها كذلك.. لا المال ولا الحياة ولا السلطة ولا الشهوة تشغلنا عن أن نجلس فى خشوع أمام الحقيقة.. والحقيقة ليس لها مكان.. إنها فى كل مكان. وليس «صالون» العقاد.. إلا محطة لتزويدنا بالوقود.. بالزيت والهواء والطاقة والخريطة.. وتركيب عدسات أقوى وأكبر.. وانشغلنا بأنفسنا أيضاً عن العقاد فأعظم تحية للعقاد هى أن ننشغل به عنه.. أن ننشغل بأثره فينا نحن عنه هو صاحب الطريق والطريقة.

وكان شعارنا ما قاله العقاد مرة، وما قلناه لأنفسنا ألف مرة:

ظمان ظمان لا صوب الغمام ولا عذل المدام ولا الأنواء تروينى.

حيران حيران لأنجم السماء ولا معالم الأرض فى الغماء تهدينى!
ظمان حيران.. لا شىء يروى ولا شىء يهدى.. فالذى نحتاجه كثير جدا حتى
نرتوى.. والذى نحتاجه كثيرا جدا حتى نهتدى.. ويجب أن نظل هكذا إلى الأبد..
فقد اخترنا ذلك أو اختارنا القدر أو أننا وجدنا أنفسنا هكذا.. محكوم علينا
بالأفكار الشاقة المؤيدة، مع الشغل والنفاذ!
ولم ينقش أحد على قبر العقاد، أعظم المفكرين العرب، هذه الأبيات التى التفت
إليها تلامذته ومحبه.. ولم يشأ الأستاذ العظيم أن يقول لنا: انقشوها.. اذكروها..
اذكرونى.. لعله وجد فى ذلك إهانة له وإهانة لنا، أن ينبهنا إلى ما يجب أن نعرف
من تلقاء أنفسنا، يقول العقاد:

إذا شيعونى يوم تقضى منيتى
وقالوا: أراح الله ذاك المعذبا
فلا تحملونى صامتين إلى الثرى
فإنى أخاف اللحد أن يتهيبا
وغنوا فإن الموت كأس شهية
وما زال يحلو أن يغنى ويشربا
وما النعش إلا المهد، مهد بنى الورى
فلا تحزنوا فيه الوليد المغيبا
ولا تذكرونى بالبكاء وإنما
أعيدوا على سمعى القصيد فأطربا!

طه حسين:

في البدء كان الشعر!

كان حزني على الأستاذ العقاد عظيماً.. ويبدو أنني تحدثت عن ذلك طويلاً وكثيراً حتى قال لي طه حسين: أنا لم أكن أعرف أن له تلاميذ مثلك! فتضايقت وسكت..

فعاد طه حسين يقول: لو أن له تلاميذ!

فتضايقت أكثر.. ولكني لم أعلق بشيء.. وسكت طه حسين.. ثم عاد يقول بصوته الهادئ وسخريته الرقيقة: إذا أنت نجحت يا سيدي.. فقد اختبرت احتمالك على المكاره، فوجدتك قادراً على ذلك..!

وكان ذلك نوعاً من الأدب والرقه والسخرية وحسن التخلص والذكاء والدهاء وكان طه حسين أرق كثيراً من العقاد.. وكانت فيه أبوة عظيمة.. وفي كل مرة أزور طه حسين أزداد يقيناً أن خسارتي فادحة. فأنا لم أعرف طه حسين إلا متأخراً. لم أعرفه إلا كنوع من التمرد على الأستاذ العقاد الذي حجب عنا الكثير من الأدباء المعاصرين.. وفي مقدمتهم أديبنا العظيم طه حسين.. فلما عرفت طه حسين، ولما عدت أقرأ لطه حسين شعرت بالخجل.. كيف لم أعرف ذلك.. كيف لم أكتشف هذا العظيم الأستاذ الثائر الباهر؟ كيف؟

وليس صحيحاً أن العقاد هو وحده الذي يستطيع أن يمد يده إلى أعماق البحر فيأتي لك باللؤلؤ.. ولا هو وحده القادر أن يجعل نجوم السماء خواتم في أصابعنا.. إن طه حسين يفعل ذلك.. إنه لا يمد يده إلى البحر.. وإنما هو يتقدم إلى البحر برفق ويلقى شباكاً التي صنعها.. وينتظر، ونحن معه.. ويخرج الشباك باللؤلؤ الذي يريد.. إن العقاد يقرأ ويبحث ويعاني: ثم يطلع علينا بما اكتشف من المعاني.. وطه حسين يفعل نفس الشيء ولكن أمامنا: إنه يقرأ لنا ويفكر معنا ويطلع بنا ومعنا وعلينا بالمعنى الذي يريد. إن العقاد مثل فولتير: يسخر منك أولاً ثم يملأ عليك قراره.

وطه حسين مثل سقراط يبحث معنا ويناقشنا ويسحق أفكارنا القديمة، ثم تتولد المعانى الجديدة من الحوار معنا..

قلت لطفه حسين: ولكنك يا أستاذنا مختلف عن العقاد جدا فضحك وقال: أنا أقول إننى أختلف عنه.. وهذا طبيعى.. وهو يقول: بل يجب أن نختلف.. فأنت ترى أنه لا فرق بيننا؟ ها.. ها..

وإذا أنت قرأت لطفه حسين الآن فسوف يبهرك هذا الرجل العظيم بجمال عباراته.. وسهولة تفكيره ووضوحه.. ويجب ألا تضيق به وهو يدور حول المعانى.. إنه يعرض عليك كيف اهتدى وكيف يهديك فى نفس الوقت.. إن أسلوب طه حسين هو البحث عن المتاعب.. البحث هو الأسلوب.. والمتاعب هى الهدف.. والإصلاح هو الغاية من كل ذلك.. فهو يبحث أمامك وبك ومعك.. وهو الرجل العارف تماما.. ومتاعب طه حسين هى مناهج البحث فى الفكر المصرى كله.. وكانت ثورة طه حسين على مناهج البحث - وطبيعى أن يبدأ طه حسين بنقد المنهج - فهو ابن الحضارة الفرنسية المخلص.. ولكنه الأديب العربى دائما.. وهو الذى ذهب إلى أوروبا ليووظف أوروبا كلها فى اكتشاف عبقرية الشعر العربى والفكر العربى وإذا أنت تذكرت ما الذى أدى إليه اكتشاف العالم الفرنسى شامبليون، فطفه حسين قريب من ذلك.. شامبليون اكتشف لنا حجر رشيد؛ فاكشف لنا الأهرامات.. فقد كنا نراها ولا نعرف ما هى.. وطه حسين اكتشف لنا الأدب العربى شعرا ونثرا.. كنا نراه ونمر به ونتوقف عنده ونلعنه، ولا نعرف جوهره ورسالته وعمقه وعبقريته.. طه حسين اكتشفنا لأنفسنا..

طفه حسين يرى التطابق التام بين الحضارة العربية والحضارة الإغريقية.. ففى البدء كانت البداوة، كانت الجاهلية.. وفى الجاهلية كان الشعر.. فى البدء كانت القصيدة.. وفى القصيدة كانت الفلسفة والدين والعادات وكانت المخاوف والآمال.. فالشعر هو أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القوية عند هذين الشعبين.. ولولا الشعر والشعراء عند الإغريق ما ظهر فلاسفة من مثل سقراط وأرسطو وأدباء مثل اسكلوس وسوفوكليس.. لولا شعر هوميروس ما كان هؤلاء الفلاسفة ففى شعر هوميروس كل المعانى والرموز.. وكل الآمال والطموحات فقد كان هوميروس هو الكنز العظيم الذى أقبل عليه الفلاسفة يلتقطونه ويقررونه ويحللونه ويرون فى هذه الأشياء الصغيرة صورة للكون العظيم.. لولا امرؤ القيس

والنابغة والأعشى وزهير ما عرفنا بعد ذلك مبادئ الحياة والأخلاق وأصول العلاقات الاجتماعية..

والفرق بين الإغريق والعرب هو أن حضارة العرب كانت للعرب.. ولم تذهب إلى أبعد من ذلك.. وحضارة الإغريق أثرت في الإغريق والرومان والعالم كله وأثرت أيضا في الحضارة العربية.

ولكن عندنا مشكلة.. هذه المشكلة عالجها طه حسين في سبعين عاما: كيف نقرأ أدبنا؟ كيف نفهمه؟ كيف نتذوقه؟ ومن هؤلاء الذين أفسدوا علينا تاريخنا ويعملون جاهدين على أن نتعاون في دفنها ووأدنا أيضا..

يرى طه حسين أن هناك مدارس في النظر إلى الأدب العربي: مدرسة الأزهر التي تنظر إلى الشعر كما كان ينظر علماء النحو والصرف في البصرة والكوفة.. مع نقد عنيف لكل ما قال الشعراء - لابد من النقد.. وإلا كان أستاذ الأدب لم يأت بجديد.. فالجديد هو أن يهدم وأن يدمى ويتعلم الطلبة على يديه براعة الهدم والتجريح.. فالأدب كله ضحية.. ذبيحة يتبارى الأساتذة جميعا في الإجهاز عليها.. ومدرسة المستشرقين بزعامة الأستاذ الإيطالي كارلو ثلثيو.. وهم يدرسون الأدب وتاريخ الأدب كما يفعلون في بلادهم.. يدرسون الأدب والاجتماع والسياسة والعادات والتقاليد معا، ويوزعون الأضواء في كل مكان..

ثم مدرسة شريرة فاسدة هي مدرسة دار العلوم.. وأساتذة دار العلوم هم الذين يولفون كتب المدارس الثانوية أيضا.. فهم يخطفون معلومات عن حياة الشاعر من هنا وهناك، ثم يختارون بعض الأبيات.. وأسوأ من ذلك ينشرون شيئا يخلون أن يقولوا إنه كتب.. فهم يلخصون الكتب ويوزعونها على التلاميذ.. ويسمونهم التلخيص أو التهذيب.. ويفرضون على التلاميذ أن يحفظوا ذلك.. المهم أن يرددوه.. فلا قرأوا ولا فهموا.. ولا تذوقوا.. وإنما هم حريصون على أن ينقلوا هذه الصورة المشوهة للشعر والأدب.. ومن الغريب أنهم يسمون هذا المنهج - إن كان منهجا - أدب اللغة العربية.. أو تاريخ أدب اللغة العربية..

فما العلاج؟ لقد وجد طه حسين العلاج منذ أكثر من ثمانين عاما.. فكل الذي نقوله اليوم من علاج الكتب المدرسية لا يخرج عن الذي قاله طه حسين.. فقد كان أسبقنا إلى معرفة المرض ومن أين جاء؟ والدواء.. وكيف نتناوله؟ وأين يذهب في جسم اللغة والأدب والنقد؟

قال طه حسين: العلاج هو أن نحجب إلى طلاب المدارس قراءة النصوص العربية وفهمها.. ثم نقرب إليهم هذه النصوص ونحسن اختيارهم.. وليس صحيحاً أن الأدب العربي جاف عسير الهضم إنه على عكس ذلك: سهل يسير لذيق.. والعلاج أيضاً إعداد المعلمين الذين يعلمون اللغة العربية.. فليس في مصر أساتذة لهذه اللغة، لا من حيث إنها أداة للتعبير ووسيلة من وسائل البيان.. أو مظهر من مظاهر التاريخ..

أما الخيط الذهبي في كل ما كتبه طه حسين فهو: حرية النقد.. وحرية الرأي.. وضرورة الإصلاح.. وأن الإصلاح قد آن أوانه.. ولذلك يجب أن نبدأ فوراً.. وقد بدأ طه حسين. وعندما كنا نقارن بين العقاد وطه حسين والحكيم نقول: المفكر العقاد والأديب طه حسين والفنان الحكيم.

ولم يكن ذلك تعريفاً دقيقاً.. فالعقاد كان أديباً أيضاً.. وطه حسين مفكر دائماً، والحكيم أديب مفكر..

وكان العقاد: أقوى وأعنف «وطه حسين أرق وألطف» والحكيم أخف وأظرف.. وبسرعة تكونت علاقتي القوية بطه حسين وقد شجعني طه حسين على أن أحدثه في التليفون وأن أزوره ما وجدت إلى ذلك سبيلاً - وهذا تعبيره أيضاً.. وكان يعني ما يقول.. وفي كل مرة أعتذر عن طول الزيارة. كان يردني قائلاً: كانت متعتي أعظم يا سيدي.. منتهى التواضع والأبوة..

وكان من السهل أن نحب طه حسين، كما كان من السهل أن نكره العقاد وطه حسين لم يقصد أن نحبه. ولكنك لا تملك إلا أن تحبه والعقاد لا يريدك أن تكرهه، ولكنه لا يستطيع أن يمنعك من ذلك..

وفي يوم سألني طه حسين: وماذا تريد لحياتك يا سيدي؟ قلت: أن أتفرغ لدراسة الفلسفة.

قال: أنت مهياً لذلك يا سيدي ولكن يجب أن تفرغ بسرعة من التأثير بأساتذتك، وأن يكون لك رأي وموقف.. حتى ترى بعينيك أنت، وتلمس بيدك أنت.. وأن تختلف بسرعة معهم..

قلت: نعم يا سيدي.. لأنك مختلف ويداية الاختلاف ليس الخلاف معهم.. وإنما أن نقف بعيداً عنهم وأن ترى من بعيد.. أين أنت وأين هم.. وأين زمانهم وما

زمانك.. وأن تتحلل بسرعة من الإعجاب الزائد إلى الإعجاب فقط. ثم الإعجاب مع التحفظ.. ثم تفرغ من التحفظ لتقول كما قال سقراط: تكلم حتى أراك.. يجب أن تتكلم بلسانك أنت وبوجدانك أنت حتى نراك.. نلتفت إليك.. وإلا فأنت مدرس أضيف إلى عشرات المدرسين.. وإلا فأنت درويش ذاب في لجة الدراويش...!!

وقلت: يا أستاذ إننى لم أسمع مثل هذا الكلام من أستاذنا العقاد.. وكيف وصلت إلى هذا اليقين وأنا لم أتحدث إليك طويلاً..

أجاب - وكانت هذه العبارة نقطة تحول في حياتي كلها: لسبب بسيط جداً يا سيدى.. إننى أسمعك ولكنك تسمع العقاد.. إننى أراك ولكن العقاد لا يراك.. إن رسالتى فى التربية لم تنته.. والعقاد ليست له رسالة فى التربية.. فهو الأستاذ الذى لم يتخرج على يديه إلا تلميذ هو العقاد.. أما أنا فأرى من الضرورى أن يظهر تلامذة يكملون دورنا النقدي فى الأدب المصرى الحديث.. ثم قال يا سيدى إنك لم تتكلم.. لقد تكلمت منذ يومين عن الفلسفات الوجودية الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والروسية.. وأعجبتنى قدرتك على التفرقة الدقيقة بين هذه المدارس.. فلما جاءنى أستاذك وتلميذى عبد الرحمن بدوى نقلت إليه ما سمعت منك.. فأيدنى فى أنك أنت التلميذ الذى يستطيع أن يقف إلى جوار أساتذته ثم يتقدم عليهم.. أنت مؤهل لذلك يا سيدى...!!

ما الذى قلته يا أستاذ الأساتذة؟ ما الذى دخل أذننى واستقر فى قلبى وعقلى؟ ما هذه الدماء الجديدة.. أدخلتها فى عروقى.. ما هذه الضياء الباهرة أشعتها فى كل شىء.. لو عرفت يا أستاذ الأساتذة ما الذى فعلته كلماتك.. ما الذى أحدثه صدقك.. ما الذى خلقتة أبوتك؟! أنت لا تعرف يا سيدى.. فقد اعتدت بعظمتك وتواضعك وأستاذيتك على ذلك.. ولكنى ما سمعت قبلك ولا رأيت مثلك.. يا قمة عارى: ففى كل مرة أتذكر طه حسين أشعر بخجل لا حد له.. كيف لم أره أوضح.. كيف لم أسمع أعمق.. كيف لم أتحوّل إليه نهائياً.. كيف تأخرت هكذا فى المثل بين يديه.. إنه العمى والصمم الذى أصابنا فاحتجت صوتاً وصورة ودفئاً.. يا من كل كلماته أحضان، يا من كل لمساته أمان.. يا من كل جلساته عناية مركزة.. ولما طال صمتى وأحس طه حسين أننى لا أتابعه قال فى غاية الأدب: لقد أرهقتك اليوم يا سيدى.. موعدنا غداً.. وموعدك مع أبناء جيلك بعد غد..!!

وعندما كتب طه حسين «قادة الفكر» كان لابد أن يتقدم للقراء بمنهج فى

الدراسة.. لابد من المنهج.. يرى طه حسين أن هناك منهاجين لدراسة المفكرين: منهج يرى أن المفكر هو كل شيء.. هو جيل متربع على هضبة هي الناس.. هو البارز القوى هو الضوء.. هو الجهات الأصلية.. هو الشمس والقمر والظلام والعواصف.. هو القادر على كل شيء.. وغيره لا شيء.. وغيره هو المجتمع!! ومنهج يرى أن المجتمع هو التربة التي يخرج منها.. المجتمع هو الأرض والماء والهواء والشمس.. وكما يكون «الجو» يكون هذا النبات.. فالقطن نبات المناطق الحارة.. والبلوط نبات المناطق الباردة.. فالمفكر لا ينفصل، ويستحيل أن ينفصل عن المجتمع.. والمجتمع هو صانع الأفراد.. يصنعها على صورته، وعلى هواه ووفقا لضرورته..

ويقول طه حسين: كلا المنهجين مسرف وخطأ.. ولكن دراسة الفرد ودراسة المجتمع الذي أظهر الفرد أو ظهر فيه الفرد، ضرورة أيضا ولا بد من الاعتدال بين الطرفين.. ولذلك كان طه حسين يعيب على أستاذنا العقاد دراسته للشخصيات وخصوصا سلسلة «العبقريات» محمد صلى الله عليه وسلم وعمر وأبو بكر وعلى رضى الله عنهم. وكان نقد طه حسين للعقاد عنيفا عندما ظهر كتاب العقاد عن «أبى نواس».. فالعقاد يعتمد عادة على الدراسة التحليلية لنفسية الشاعر أو البطل.. ولذلك استخدم العقاد فى دراسته لأبى نواس كل مصطلحات علم التحليل النفسى عند فرويد وبونج وادلر.. كل ذلك لكى يفهم أبا نواس ويجعلنا نشاركه هذا الفهم أيضا.. ولكن طه حسين يرى أن العقاد قد أسرف على نفسه وعلينا أيضا.. وكان العدل يقتضيه أن ينظر إلى أبى نواس مرة، وإلى مجتمعه مرة أخرى ويوازن بين الشاعر وبيئته، بين أسلوبه ولغة عصره.. وكان من رأى طه حسين أنه يمكن للقارئ أن يضع اسمًا آخر لأبى نواس.. أى اسم.. لان العقاد قد انشغل بمرض أبى نواس وحشد له الدنيا كلها ليؤكد أنه مريض.. مع أن الشاعر لم يكن فى حاجة إلى هذا الكونصلتو من الأطباء بزعمامة العقاد.. فالشاعر معترف.. وليس وحيد زمانه فى ذلك.. فطه حسين يرى أن البداية هي شعر الشاعر.. لأن الشعر قد بدأ من أعماق الشاعر.. واتجه به الشاعر إلى الناس فى زمانه!

وغضب العقاد من نقد طه حسين.. وأذكر أنه طلب منى أن أنقل إلى طه حسين: أن العقاد من رأيه أنه لم يخلع العمامة عن رأسه.

يقصد أن طه حسين قد سافر إلى فرنسا وتعلم ونقل إلينا الذى تعلمه، ثم عاد يرتدى عمامته بعد أن نسى الذى تعلمه.. ثم لا يريد أحدا أن يتعلم أو يقول غير الذى قال والذى رأى - منتهى القسوة من العقاد - فليس شىء أبعد عن طه حسين من مثل هذه العبارة الجارحة!

وبعد وفاة العقاد استأنف طه حسين الهجوم عليه فى برنامج أعدده له فى التليفزيون.. وذهب إلى أبعد من ذلك فقال إن حفيده لم يفهم كتاب «عبقريّة عمر» المقرر على طلبة الثانوية العامة.. وإنه يرصد مكافأة مالية لمن يفهم هذا الكتاب - أى يفهم أسلوب العقاد فى التفسير النفسى للتاريخ.. أو التفسير البطولى للفكر الإنسانى كله!

ولم أكن من رأى طه حسين، واعترضت بعنف فى مقالات نشرتها فى «أخبار اليوم» ثم ذهبنا إلى طه حسين: خمسة من دارسى الفلسفة والأدب والنحت والموسيقى، وسألنا طه حسين عن أسمائنا أكثر من مرة.. وعن تخصصاتنا وأسعده ذلك.. وقال لنا إنه كان يقرأ الرسام العظيم دافنشى.. وهو أديب وشاعر ورسام وموسيقار ومخترع وعظيم أيضا..

وتمنى لو كانت لديه كل ما لدينا من معلومات متخصصة ليتذوقه أكثر وأعمق.. وهى تحية بليغة لرجل عظيم التواضع..

وكان طه حسين يستأنف ما دار بينى وبينه فقال: إننى لم أطلب إليك أن تتجرد تماما من ملابسك القديمة.. يجب أن تستبقى بعضها.. لتعرف كيف كانت البداية.. لقد كان أستاذك العظيم الفيلسوف الألمانى «كُنْت» يحب النظر إلى الخرائب لكى يفكر فى بنائها أو يتخيل ذلك.. وقد أقام صرحا فلسفيا لم يبلغه أحد من قبله.. أو من بعده.. هناك يا سيدى ما يمكن أن تتخلص منه بسرعة.. الكثير من الأسماء والنظريات.. إنها جميعا انتقالية.. إنها تشبه التريزين الذى نستند إليه صفارا ونحن نصعد السلالم.. ولكن يجب أن تبقى السلالم والأبواب والنوافذ.. ويراعتك هى فى إعادة تأثيث البيت الفلسفى والأدبى.. هذه هى البداية.. وسوف يبقى.. لونه.. رائحته.. الحنين إليه.. والشاعر القديم قد وجد عذرا لمحبوخته التى لم تزره فى الليل: جبينها الذى يضىء فى الليل.. والحلى الذهبية التى لها صوت يسمعه الناس، ثم عطرها.. ثم عاد الشاعر القديم يقول: نفرض أنها استطاعت أن تغطى جبينها المضىء بجانب من ثوبها، ثم إنها نزعته ما فى يديها من حلى

حتى لا يسمعها أحد.. فكيف تمنع النسيم أن ينقل رائحة عرقها.. قال الشاعر
القديم وأظنه - إذا لم تخنى ذاكرتى - أنه أبو المطاع بن ناصر الدولة:
ثلاثة منعتها من زيارتنا
وقد دجا الليل، خوف الكاشح الحنق
ضوء الجبين ووسواس الحلى
وما يفوح من عرق كالعنبر العبق
هب الجبين بفضل الكم تستره
والحلى تنزعه ما الشأن فى العرق؟!
والعرق هنا يا سيدى هو الجهد العظيم الذى بذلته فى الدرس والمقارنة
والتمرد على الذى لم يعد يقنعك.. هذه المعاناة سوف تبقى معك وسوف تبقى بك..
وتتبعك يا سيدى.. فتوكل على الله!
يرحمك الله يا سيدى!

المازنى

أول أديب وجودى!

الفرق بين الأربعة، عباس العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وإبراهيم المازنى

العقاد: يحاضرک..

طه حسين: يحدثک.

توفيق الحكيم: يداعبك..

إبراهيم المازنى: يسخر منك ومن نفسه..

فكان المازنى أسوأهم حظا وأقلهم اهتماما من النقاد والمؤرخين. مع أن المازنى كان أرقهم وأعمقهم وأسبق من زمانه.. فإذا كان فى أدبنا الحديث كله واحد يمكن أن يوصف بأنه الأديب الوجودى فالمازنى هو الشخص الوجودى والأديب الوجودى دون أن ينازعه أحد فى ذلك..

كما أن الشاعرة جليلة رضا هى الشاعرة الوجودية الوحيدة فى الشعر العربى فى كل العصور..

ولا أذكر أننى رأيت الأستاذ المازنى فى «صالون العقاد» ولكن كثيرا ما يرد اسمه فيضحك الأستاذ العقاد ويقول:

إنه شيطان.. وإذا جاء اسم الحكيم ضحك وقال: إنه تاجر شاطر.. ويضحك الأستاذ وأصدقاؤه الأكبر منا سنا.

ويوم قدّم الأستاذ العقاد صديق عمره الأستاذ المازنى؛ ليكون عضوا فى المجمع اللغوى ألقى بحثا عظيما وصف فيه المازنى بالعبقريّة نثرا وشعرا. فذهبت أبحث عن المازنى؛ لكى أحصل منه على صورة نضعها مع مقال الأستاذ. وأيامها كنت أعمل محررا أدبيا فى جريدة «الأساس» وقال لى الأستاذ المازنى: نلتقى على سلم جريدة الأساس.

وانتظرتة على السلم وجاء قصيرا يعرج بوضوح. وأخرج الصورة من جيبه وانصرف. وفي صالون العقاد قلت: شئ غريب يا أستاذ.. لقد أعطاني المازنى صورة له.. ووجدت على ظهر الصورة هذه العبارة: هذه الصورة بناء على طلب الأستاذ أنيس منصور!

وكأننى ألقى قنبلة مسيلة للدموع؛ فضحك العقاد وزكى نجيب محمود وصلاح طاهر وعلى أدهم وعبد الرحمن صدقى وفؤاد الأهوانى. ومع الضحكات غمز ولمز. ولم أفهم ولم يشأ أحد أن يقول ما الذى أضحكهم على المازنى بهذه الصورة العصبية!

ويرى الأستاذ العقاد أن المازنى شاعر عظيم وأنه عرض ودار وحل الكثير من المعانى الفلسفية فى شعره.. وأنه أضاف السخرية إلى كل ذلك.. فكأنه لم يكتف بالجدید؛ وإنما أضاف إلى هذا الجديد لمعانا من النكتة والسخرية لا تدل على السعادة وإنما على اليأس من هذه الحياة والأحياء.. ومن نفسه أيضا..

ولم يكن المازنى غزير الإنتاج مثل الأستاذ العقاد. ولكن القليل الذى كتبه المازنى نثرا يستحق عظيم الاهتمام والتقدير.. فالألوان التى استخدمها هى الأسود والأزرق الغامق والفاتح.. هى اليأس والحزن والرومانسية فما الذى أحزن المازنى على نفسه وعلى الناس؟ ما الذى أياسه من الدنيا وأن يكون له دور فيها؟ وما جدوى أن يقول وأن يقال..

الأستاذ المازنى تركيبة نفسية دقيقة وهل مثل كل الأجهزة الدقيقة: معقد التكوين ومثل نسيج الحرير، دقيق العقد.. حتى ليخيل إليك أن الحرير بغير عقد.. فهو منذ سن مبكرة أحس أنه ضئيل الحجم بينما إخوة له وأقارب أطول وأعرض وأجمل شكلا.. حتى أن والده كان يخاف على أخ له من الحسد.. أما المازنى فلا خوف عليه ولا خوف منه.. كأنه لا شئ.. أو كأنه أسوأ شئ.. ثم إن المازنى سقط فانكسرت ساقه.. فهو القزم الأعرج.. وكان حجمه الضئيل يجعله مثل الصفر إذا سار إلى جوار رقم: ١ الذى هو العقاد.. وكان الناس يسمونها معا: العشرة!

فإنه يقبل أن يكون صفرا على يمين العقاد صديقه وحبيبه ومثله الأعلى، ولكن يرفض أن يكون كذلك إذا ما قورن بأى إنسان آخر..

وأصبح العائق الأول فى حياته أنه ضئيل الحجم والعائق الثانى أنه أعرج.. أما العائق الثالث والرابع ففى أعماقه هو: فهو فى حالة من الفرع الدائم.. خائف

على نفسه من الناس.. خائف من الزحام.. خائف من الظلام.. خائف إذا انفرد بنفسه أن يموت.. خائف إذا زاحم الناس أن يسحقوه. فهو خائف عام..

يحكى لنا المازنى عن تلك الحارة التى كانت تنتهى إلى بيته.. مظلمة ضيقة رطبة.. يدخلها الناس بصعوبة.. لا يمكن أن يدخلها اثنان فى وقت واحد.. ويحكى المازنى: إنه أحس فى إحدى المرات وهو يتسلل خائفا من هذه الحارة أنه ارتطم بجسم امرأة، وأنه أحس صدرها وأنها احتضنته حتى وصل إلى باب بيته ولم يجدها بعد ذلك.. كان يحس أن هذه الحارة ليست إلا مصارين حيوان مخيف.. حيوان خرافى. ولكن الخوف حقيقى. والفرع عضوى.. وأن الطريق خارج البيت كالطريق إلى البيت: طريق العذاب.. إذا سار فيه، وإذا فكر!

ويقول المازنى أيضا: إن طريقه كان على المقابر ليلا فسقط فى مقبرة فوق عدد من الجثث.. وأحس باللحم والعفونة.. وكان خوفه عظيما.. حتى ليقال إنه مات من الخوف.. أو لقد تحول الموت إلى خوف حى.. أو تحول الخوف إلى موت يسترده قطعة قطعة.. عصبيا عصبيا. حتى انتهى!

وكان المازنى أكثر صراحة من الفيلسوف الوجودى كير كجار الذى كان أحذب الظهر.. ولم يشعر هذا الفيلسوف بهذا العيب الخلقى إلا عندما تقدم لخطبة الفتاة رجيتا.. هنا أحس أنه بعقله أعظم الناس، وبجسمه أحقرهم.. وأن المرأة تريده جسما بلا عقل، وأن عشيقته التى هى الحقيقة تريده عقلا بلا جسم، فرفضته رجيتا، وارتضته الحقيقة.. ولكنه لعن الاثنين معا!

أما المازنى فكان أسبق الناس إلى السخرية من حقيقته هو.. وإلى وصف حريته وعذابه وهوانه.. فهو يصف نفسه كيف انتصر وطال انتظاره ووقف وتكلم وسوى ملابسه ومسح جزمته فى بنطلونه حتى خيل إليه: ولماذا لا أرى وجهى فيها.. ولكنه خاف أن تراه المحبوبة فتضربه بالجزمة!

ونضحك مع المازنى عندما يحدثنا عن رجل يقال عنده حمار. وهو يعلم الحمار كيف ينهق. ولا يعجبه نهيق الحمار فيصرخ فيه: هكذا يا بهيم - ثم ينهق أحسن من الحمار!

والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى كان أسبق أهل زمانه فى الإحساس بعبثية الحياة.. وجاء شعوره هذا بعد الحرب العالمية الثانية.. وهذا العبث هو الذى جعله يشعر بمنتهى العمق بأنه لا وسيلة للقضاء على القرف وسوء الظن إلا

بالحوار.. بالكلام.. بإقامة الجسور.. بأن يكون هناك تعبير وعبور.. ولا سبيل للقضاء على الشعور بالغربة، إلا بخلق قرابة وقربى بين الناس.. وكان المازنى واحد من الحواة.. فهو لابد أن يلفت الناس؛ لكي يلتفتوا حوله. فإذا فعلوا، وراح يحدثهم عن نفسه وعن أنفسهم.. فالسخرية عند المازنى هى نوع من إعداد الناس لكي يشعروا ولو لحظة واحدة أنهم أسمى وأعلى من الكاتب.. فالكاتب قد انحنى لهم لكي يبدو أطول وأعرض وأعقل.. وبعد ذلك يقول ويقول.. ومما يقوله لهم: إنهم أيضا يستحقون السخرية.. وإنه وإنهم أطراف هذه المهزلة التى هى حياتنا، والتى لا فرق فيها عند اليأس والبؤس والموت بين الإنسان والحيوان.

يقول شوقى:

إذا ما نفقت ومات الحمار أبينك فرق وبين الحمار؟!
ويقول المازنى إن إسماعيل عليه السلام الذى «فدیناه بذبح عظیم» قد مات تماماً كالكبش الذى ذبحه أبوه إبراهيم فداء له. ويرى العقاد أن هذه الأبيات هى أروع وأرق وأجمل وأعمق ما نظم المازنى:

يا أم لا تجزعى بما يحيق.

من الخطوب ولا تأسى لما فاتا.

تمضى المقادير فينا الحكم عادلة.

ويقسم الله أرزاقا وأقواتا.

وكل ضائقة تعرو إلى فرج.

وأن ليسر مثل العسر أوقاتا.

ضد الذى يرتجى تأخير قسمته.

قد مات كالكبش إسماعيل قد ماتا!

ولا أظن أحدا فى الأدب المصرى الحديث قد تناول مشكلة «الصلة» و«الاتصال» و«العبور» إلى الناس، كما فعل المازنى بصدق وعمق.. وهى مشكلته هو فى المقام الأول.. ولا أظن أحدا انتهى إلى ما انتهى إليه المازنى، وما انتهى إليه أدباء العبث فى فرنسا فى الخمسينيات، والوجوديون فى الستينيات والمسرح المصرى ابتداء من السبعينيات حتى اليوم.

ويرى المازنى أن «الجوامد» الأدبية هى واحدة من العوائق بين الناس.. وهذه

الجوامد.. هي القوالب الجامدة والتعبيرات البالية التي اكتسبت مذاق القداسة عند الأدباء الذين لم تتسع آفاقهم، فلم يقرأوا ولم يتذوقوا الآداب العالمية الأخرى.. وهذه «الجوامد» هي طوب يقف في حلق المتحدثين، وجنادل تعترض انسياب الشعر الحديث.. شعر الوجدان.. وشعر «الديوان» - أي شعر مدرسة عبد الرحمن شكرى والعقاد والمازنى.. ولذلك كان المازنى أسبق الجميع إلى التخلص من هذه المعوقات فكانت لغته أسهل وأقرب إلى العامية، وإن لم تكن كذلك.. وكان هدف المازنى أن يصل إلى مشاعره دون وساطة.. دون تدخل من اللغة بتراكيبها المختلفة.. فهو لا ينتظر الألفاظ حتى ترتدى زيتها الرسمى العباسى أو الجاهلى وتقف صفا واحدا لتمشى فوقها أو تئن تحتها المعانى والمشاعر الإنسانية الشخصية.. ولكن المازنى كان يذهب إلى المعانى بملابسه العادية.. لا حواجز ولا فواصل دون أن يستأذن من السادة: الخوف والرعب والقلق والموت، فيقول: تسمح لى أشعربك.. هل تأذن لى أن أتحسسك.. أرجو أن أتجرعك - أبدا لا شىء من ذلك.. فالمازنى قد ذاق وتجرع كل هذه المعانى وليس أسهل عليه من أن ينقلها وأن ينقل نفسه إلينا.. ونقل أدق وأرق المعانى فى أسلوب جميل فريد فى كتبه «إبراهيم الكاتب» و«إبراهيم المازنى» و«عود على بدء» و«حصاد الهشيم» و«قبض الريح» و«خيوط العنكبوت» و«فى الطريق» - ومن عناوين هذه الكتب ترى اليأس فى الطريق.. أو بحثا عن طريق إلى نفسه وإلى نفسك!

وقد عاش المازنى ومات وهو يمسك الريح وينسج عش العنكبوت أو هو فى سبيل ذلك.. أى أنه لم يصل إلى شىء.. ففى كل مرة يؤكد لنفسه أنه استطاع؛ ليكشف أنه توهم ذلك..

فالذى يكسبه يخسره، والذى يراه صديقا يكتشف أنه عدو.. يقول المازنى:

أكلما عشت يوما

أحسست أننى مته

وكلما شمت خلا.

وجدت أنى فقدته:

والمازنى يرى أن الكاتب أو الفنان يجب أن يكون على يقين من أنه ناقص وسوف يبقى كذلك.. وعلى الكاتب أن ينصرف اهتمامه بالكمال.. فالكمال لله.. ويرى المازنى أن الخوف واليأس والإعجاب هي كيمياء مشاعر الإنسان إذا رأى

البحر والجبال والسماء.. فكلها صور من الجلال: أى الجمال والخوف واليأس
ولذلك فمشاعر الفنان كلها خليط من البطولة والتعاسة.. هو يصارع ويقاوم
ويضحى.. فهو البطل.. ولكن الذى يحاوله صعب، والذى يبلغه قليل. والعمر قصير
والناس لا يشعرون به - فهذه هى التعاسة!

ورد فعل ذلك عند المازنى هو السخرية. فالسخرية ليست إلا نوعا من الحزن
الخفى.. حزن على نفسه وعلى الناس الذين لا يدركون ذلك.. وإذا أدركوه لم
يفهموه وإذا فهموه يكون الكاتب قد مات!

ولذلك لم يكن المازنى رقيقا عندما هاجم الأدبية مى زيادة.. وكانت عبارته
الشهيرة القاسية جداً: أن الأنسة تكتب وكأنها تخاف أن يفوتها شيء!
مع أنه سوف يفوتها ويفوتنا الكثير وهذا طبيعى.. فالذى يفوتنا هذه المرة
نعود إليه بعد ذلك..

فنحن نطارد الحقيقة ونراها عن قرب وعن بعد.. وقوفا ونياما.. وخائفين
وقلقين، ويائسين وفرحين.. ولكن الذى ندركه قليل دائماً.. والذى نفهمه أقل
القليل فكيف لا يفوتنا الكثير..

ولذلك فالأنسة مى زيادة يجب أن تهون على نفسها كثيراً، فلا ترهق نفسها
والقارئ، بالنظر إلى كل ملابسها وكل حليها التى وضعتها مرة واحدة.. كأنها لن
تكتب بعد ذلك.. وكأن أحداً لن يقرأ لها أبداً!

وقد أغضبها. ولكن الحق مع المازنى ولأسباب تتعلق بفلسفة المازنى فى
النظر إلى الأسلوب واللغة والاتصال والعبور إلى القارئ.. وتلك قضايا كانت
تشغل المازنى شخصياً وأدبياً وفلسفياً. ولم تفهم مى زيادة أعماق المازنى. ولا
الناس فى زمانه..

ولذلك غابت عنهم حكمته وبعد نظره.. وأنه كان متقدماً على زمانه عشرات
السنين.. ولو كانت أعمال المازنى، وما أسهلها، قد ترجمت إلى اللغة الفرنسية
لكانت دستور الوجوديين جميعاً.

ولكن المازنى ظل الصفر أمام الواحد.. ولم يتقدم الصفوف فى اجتماعات
الأحزاب السياسية.. ولا تعرض للمعارك ولا دخلها.. وإنما جلس إلى الوراء بعيداً..
يتفرج يائساً، ويكتب حزينا، ويتمنى أن يصاب الناس بما أصيب به.. وأن يتعذب
الناس عذابه.. فتصاب بالأمراض كل محبوبة.. وكل الناس.

يقول المازنى:
وأوصيت للمحبوب بالسهد والضنى
وبالدمع لا يرقا، ولا هو عامر
وبالجدرى فى وجهه ليزينه
وبالعرج المزدول والله قادر!
وانشغل النقد الأدبى بالأستاذ العقاد عن الشاعر الكبير عبد الرحمن شكرى أول
من قدم رموز مدرسة «الديوان» فى الشعر والنقد الأدبى.
وكان عبد الرحمن شكرى أكثر عذاباً من المازنى وأكثر انطواء حتى لقد عاش
بعيدا عن الناس حتى خيل للناس أنه مات.
لولا عثرت عليه فى الإسكندرية فنشرت أنه ما يزال حيا ونقلت ذلك للأستاذ
العقاد فأملانى رثاءه والدموع فى عينيه.. وبعدها مات عبد الرحمن شكرى..
فكأننى ساعدته على أن يموت علنا!
وكذلك انشغل التاريخ الأدبى بالشاعر العقاد، والناقد العقاد، والمؤرخ العقاد،
والفيلسوف العقاد عن المازنى الأديب الشاعر الناقد الفيلسوف.. مع أن المازنى
كان أسرع إلى فهم النفس المعذبة بعد الحرب العالمية الأولى والثانية.
ولم يكن يقصد الأستاذ المازنى أحدا بالذات عندما نظم أبياتا للشاعر
الألمانى هينه وطلب أن ينقشوها على قبره، إن وجدوا حجرا أو وجدوا لأحد
أصابع يكتب بها.. يقول المازنى:
أيها الزائر قبرى
اتل ما خط أمامك
هاهنا، فاعلم: عظامى
ليتها كانت عظامك!

أطبّق عينيه ليرى!

إذا سماؤك يوما تحجبت بالغيوم
أغمض جفونك تبصر خلف الغيوم نجوم!
والأرض حولك أما توشحت بالثلوج
أغمض جفونك تبصر تحت الثلوج مروج!
وإن بُليت بداء وقيل داء عياء
أغمض جفونك تبصر فى الداء كل الدواء!
وعندما الموت يدنو واللحد يفغرفاه
أغمض جفونك تبصر فى اللحد مهد الحياة!
وقد نظم قصيدة «النهر المتجمد» باللغة الروسية وهى من أروع ما أبدع، ثم
ترجمها إلى العربية. يقول:

يا نهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخير؟
أم قد هرمت وخار عزمك فانثنيت عن المسير؟
بالأمس كنت تسير لا تخشى الموانع فى الطريق
واليوم قد هبطت عليك سكين اللحد العميق

ما هذه الأكفان؟ أم هذى قيود من جليد؟
قد كبلتك وذللتك بها يد البرد الشديد؟

لكن سينصرف الشتاء وتعود أيام الربيع فتفك جسمك من عقال مكنته يد
الصقيع.

قد كان لى يا نهر قلب ضاحك مثل المروج

حر كقلبك، فيه أهواء وآمال تموج

قد كان يضحى غير ما يسمى ولا يشكو الملل
واليوم قد جمدت كوجهك فيه أمواج الأمل

فتساوت الأيام فيه: صباحها ومساؤها
وتوازنت فيه الحياة: نعيمها وشقاؤها

وغدا غريبا بين قوم كان قبلا منهم
وغدوت بين الناس لغزا فيه لغز مبهم

يا نهر ذا قلبي، أراه، كما أراك مكبلا
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك، وهو.. لا

ويقف ميخائيل نعيمة عند قمة الدنيا في جبال لبنان وينظر إلى ما حوله
وتحت قدميه وفوقه ينشد لحظة السكون المقدس.. حين لا يريد شيئا من شيء
أو من أحد.

يقول ميخائيل نعيمة:

نتمنى، وفي التمنى شقاء
وننادى ياليت كانوا وكنا
ونصلى فى سرنا للأمانى
والأمانى فى الجهر يضحكن منا

غير أنى كرهت التمنى
أتمنى لو كنت لا أتمنى

نتمنى وما التمنى سوى مهماز
دهر، يحثنا للمسير

فصغيرا قد كنت أطلب لو كنت
كبيراً، ولى صفات الكبير
وكبيراً، لو عدت طفلاً صغيراً
واستردت نفسى نعيم الصغير

أتمنى ما زلت أجهل نفسى
وأنادى ياليتنى ولو أنى
وأصلى فى داخلى للأمانى
الأمانى فى داخلى للأمانى
والأمانى فى الجهر يضحكن منى
غير أنى لابد أبلغ يوماً
فيه أمسى حراً عديم التمنى!

ميخائيل نعيمة أديب لبنان وشاعر التصوف كان آخر الأحياء من عظماء سنة
١٨٨٩.. توفى فى العام الماضى عن ٩٩ عاماً - هتلر كان أصغرهم فقد انتحر عن
٥٦ عاماً..

ميخائيل نعيمة عاش ومات يتيماً.. أو كأنه يتيم الأبوين أو يتيم الناس
جميعاً.. فقد ولد فى قرية «بسكنتا» فى جبال لبنان.. سافر أبوه إلى أمريكا وتركه
لوالدته التى تعلمه كيف يصلى كل يوم لوالده ولأسرته.. وهو لا يفهم معنى ما
يقول.. كتب ميخائيل نعيمة فى الجزء الأول من قصة حياته التى سجلها عندما
بلغ السبعين من عمره ماذا كان يردد وراء أمه:

«قل معى يا ابنى: أبانا الذى فى السماوات.. ليتقدس اسمك.. ليأت ملكوتك..
لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض..

ثم تقول له: قل معى يا ابنى: يا رب وفق أبى فى أمريكا إذا أمسك التراب
فليقلب فى يده ذهباً.. يا رب رده إلينا سالماً.. يا رب خل لى إخوتى.. يا رب خل
خالى إبراهيم وخالى سليمان ووفقهما وارزقهما أولاداً.. يا رب..

يقول ميخائيل نعيمة فى سذاجة وسخرية أيضاً: وأطبق عينى على صور غريبة
رسمتها كلمات أمى فى مخيلتى صورة أب قالت لى أمى: إنه ليس له لحم ودم،
وأنه يسكن السماء - ذلك الفضاء الأزرق حيث الشمس فى النهار والقمر والنجوم

فى الليل فما أدرى كيف أتخيله أو أتخيل مقره.. وهل بيته هناك يشبه بيتنا هنا؟ بل هو أكبر وأجمل. إنه من القرميد لاشك.. وصورة أب من لحم ودم فى بلاد يدعونها أمريكا.. فأتخيله عملاقا بشارين أضخم بكثير من أى شاربين وقعت عليهما عيناي. وأتخيل أمريكا بلادا وراء الأفق يمسك فيها الناس التراب فيتحول ذهباً أما الذهب الذى ما كنت بعد قد أبصرت له وجهها، فقد تخيلته شيئاً ثميناً جداً. إلا أننى كنت أعجب لأبى كيف سافر إلى أمريكا ليأتى بالذهب مادام فى استطاعة أمى، بدعاء بسيط إلى أبى فى السماوات أن يجعل التراب فى يديه ذهباً، فها هى أرض بيتنا من التراب وسقفه كذلك وها هو التراب حوالينا فى كل مكان وبكميات لا نفاذ لها. أياكون تراب أمريكا غير ترابنا؟ أجل.. هكذا يجب أن يكون...».

وقصة حياة ميخائيل نعيمة كما يرويها سهلة رقيقة جميلة فيها الصفاء والسذاجة وفيها التساؤل والشك واليقين والعمق والضياء والبهاء وفيها يشعر ميخائيل نعيمة أنه الصغير جداً ولكنه فى نفس الوقت هو الكون العظيم أيضاً.. فهو الجزء من الكل، وهو الكل الذى فيه كل الأجزاء.

كانت دراسته فى المدارس الروسية فى بلدته وفى مدينة الناصرة.. ثم سافر إلى روسيا يكمل تعليمه. وأدرك روسيا أثناء تحولاتها الكبرى إلى الاشتراكية وانبهر بتولستوى المسيحى الذى لم يترك الكنيسة إلا لى يرى كنيسته أعظم وأعمق وأجمل هى الكون كله.. وآمن ميخائيل أن الكنيسة ليست هى المكان الذى يعبد فيه الإنسان ربه.. فهى أضيق من ذلك كثيراً جداً وهو يضيق بالضيق لأنه ابن الجبل.. ابن القمم الصافية.. ويندهش كيف كانت تطالعه فى الكنيسة صورة للسيد المسيح. هكذا حزينة وليست فيها رحمة يقول: صورة قائمة الألوان تمثل رجلاً بلحية كثيفة ووجه منقبض الأسارير وعينين عابستين لا رحمة فيهما ولا شفقة.. كيف؟ والمسيح هو الرحمة والحب والفرح؟

وفى روسيا رأى الدنيا أوسع والناس أكثر وعندهم كلام جديد.. ونظريات وعندهم عباقرة باهرون: تولستوى وجوركى والشاعر الحزين مثله لرمنتوف.

ومن روسيا سافر إلى أمريكا.. لعله هو الآخر أن يعود بالذهب.. أو لعل الذهب يستطيع أن يحول بيت التراب إلى بيت من القرميد.. ولعله أن يجد للبيت باباً كبيراً يدقه الناس قبل الدخول.. فإذا سمع هو الدق على الباب راح يفكر فيمن الطارق.. وهل يفتح له أو لا يفتح.. ويا ترى ما الذى أتى به مبكراً صباحاً، أو متأخراً ليلاً..

ولكن بيته كان بلا أبواب.. فالمسافة بين الشارع والسرير خطوة.. والناس ليسوا فى حاجة أن يقولوا لماذا جاءوا.. فأنت لا تستأذن من تجده جالسا على الرصيف إن كنت تقترب أو تجلس إليه.

وفى أمريكا درس اللغة الإنجليزية وتخرج فى كليتين معا: الآداب والحقوق ونظم شعرا بالإنجليزية أيضا. ولم يشأ أن يترجمه إلى العربية.. وعند منتصف عمره توقف عن نظم الشعر. لقد أحس أنه مثل بدلة أنيقة جميلة معطرة ولكنها ضيقة. يقول ميخائيل نعيمة:

«الشعر لا أجد فيه سوى متانة لغوية وزركشة بيانية، ومقدرة عروضية فهو فى نظرى كغرفة طولها ذراعان، وعرضها ذراعان، وعلوها ذراعان.. جدرانها موشاة بالرسوم، وسقفها مموه بالذهب. وأرضيتها مرصوفة بالفضة يبهرنى لأول وهلة منظرها، ولكننى لا أمكث فيها بضع دقائق حتى أشعر بحاجتى إلى الهواء النقى.. وإلى فضاء الله الواسع، فأهرب شاكرا لله على النجاة وغير ملتفت إلى مثل هذه الغرفة مع الكثير من الشعراء الذين رفعهم هذا الجيل والأجيال التى قبله إلى قمة الأوليمب»..

وكان الأستاذ العقاد يأخذ على ميخائيل نعيمة، وكل الشعراء فى المهجر أنهم لا يهتمون بقواعد اللغة والصرف والنحو. وأنهم يقولون كلاما جميلا دون معرفة بخبر كان واسم إن ولا تحركهم حروف الجر.

وكان رد ميخائيل نعيمة أن الأستاذ على حق.. ولكن ميخائيل نعيمة مشغول بوظيفة اللغة أكثر من انشغاله بانضباط حركتها.. ثم إنه لا يجد قاموسا باللغة العربية يحدثه عن هذه القواعد.

ثم أهدى الأستاذ العقاد كتابه «الفصول» إلى ميخائيل نعيمة.. ثم كتاب «الديوان» من تأليف العقاد والمازنى. وهنا كانت سعادة ميخائيل نعيمة لا توصف، فقد أحس أن الذى يقوم به العقاد فى مصر هو بالضبط ما يقوم به فى أمريكا.

يقول ميخائيل نعيمة:

«ألا بارك الله فى مصر. فما كل ما تنثره ثرثرة. ولا كل ما تنظمه بهرجة. وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام، وتؤله رصف القوافى، فكم زمرت لبهلوان، وطبلت لمشعوز، وطيببت لسكران. غير أنى عرفت اليوم بالحس ما كنت

أعرفه أمس بالأمل. عرفت أن مصر مصران: مصر ترى البعوضة جملاً، وترى الحجرة جبلاً.. ومصر ترى البعوضة بعوضة والحجرة حجرة»..

أما الصفات التي تبهر القارئ في شاعر لبنان الصوفي، وأديبها الفيلسوف فهو صفاء العقل وإحساسه بالدنيا كلها شيء واحد.. وإيمانه بأن الإنسان يعرف بالقلب ما يعجز عنه العقل.. وأن الأديب ليس أديباً إذا لم يكن لسان حال أهله والدنيا ولا يكون شاعراً إلا إذا غنى الجبال والوديان والأنهار والنجوم والسماء، وعظمة الضمير الإنساني ثم هذا الإيمان العميق الذي يفيض عليه ولا يدرى كيف.. والموسيقى الذي تتعانق أصداؤها في جوانبه ولا يعرف لماذا؟ وهو زاهد في الدنيا.. امتلاً بها ليرفضها.. وعائشاً لينبذها.. واستغرقتة لينجو منها..

لقد صفى حسابه نهائياً مع الدنيا.. فتجرد من شهواته الخمس: السلطة والمال والمرأة والشهرة والخلود..

ولكن لم ينته شعوره بالدهشة لكل الذي حوله.. فهو يحذرنا من أن «نألف» الدنيا.. فلا نفكر ولا نندهش ولا نبحث عن المعنى وراء كل شيء.. يقول ميخائيل نعيمة:

«يا ابن آدم حذار من الألفة.. كأن تألف الأشياء فلا تدهش لشيء.. كل ما في الأرض وفوقها مدهش وعجيب.. فحري بك أن تعيش في دهشة دائمة.. وحري بدهشتك أن تفتح لك الباب إلى قلب الحياة الفسيح.. أما متى فارقتك الدهشة فقد فارقتك الأمل بدخول قلب الحياة. تلك هي البداية..

وكان الأديب الفرنسي أندريه جيد ينصح الذين يدرسون التاريخ والفلسفة أن يبعدوا عن كل الذي يشبههم - أي الذي يجدونه شبيهاً بهم.. وإنما أن يبحثوا عن الشيء المختلف.. فكل شيء خلقه الله في اختلاف هائل بعضه عن بعضه.. وفي وحدة وانسجام لا حدود له.

وقد اعتزل ميخائيل نعيمة هذه الدنيا كلها عندما عاد إلى قريته واختار له كهفاً أطلق عليه اسم «الفلك» - بضم الفاء - أي سفينة نوح.. ولم يكن في هذا الفلك أحد سواه.. كأنه هو وحده الذي في حاجة إلى أن ينقذ نفسه من الطوفان.. فإذا نجا، أصبح قادراً على إنقاذ الآخرين.. وما الطوفان إلا هذه الدنيا المتضاربة الشهوات والألوان والعناصر والأديان.. الخائفة من الموت مع أنه لا موت.. فكل

شئ يموت ليولد من جديد.. الحيوان يتوالد منه الحيوان.. والبذور تلد البذور.. لا شئ يفنى.. والإنسان يموت ليعيش فى حياة أخرى.. وكل حياة جديدة تقوم بتطويره وتعديله.. ولكنه لا يموت.. فكل شئ يذهب ليعود، يعيش ليموت ليعيش ليموت ليعيش.. إلى آخر أشكال التصوف الهندى.

مثل هذه المعانى هى التى جعلت ميخائيل نعيمة على قدر كبير من اليقين إنها قواعد فكرية متينة اهتدى إليها.. فلم يعد يخاف.. تماما كما أن بيته الجديد قد أصبح من الحجارة بدلا من التراب.

يقول:

سقف بيتى حديد
ركن بيتى حجر
فاعصفى يا رياح
وانتخب يا شجر
واسبحى يا غيوم
واهطلى بالمطر
واقصفى يا رعود
لست أخشى خطر
سقف بيتى حديد
ركن بيتى حجر
من سراجى الضئيل
أستمد البصر
كلما الليل طال
والظلام انتشر
وإذا الفجر مات
والنهار انتحر
فاختفى يا نجوم
وانطفئ يا قمر
من سراجى الضئيل
أستمد البصر

باب قلبى حصين
من صنوف الكدر
فاهجمى يا هموم
فى المسا والسحر
وازحفى يا نحوس
بالشقا والضجر
وانزلى بالألوف
ياخطوب البشر
باب قلبى حصين
من صنوف الكدر
وحليفى القضاء
ورفيقى القدر
فاقدحى يا شرور
حول قلبى الشرر
واحفرى يا منون
حول بيتى الحفر
لست أخشى العذاب
لست أخشى الضرر
وحليفى القضاء
ورفيقى القدر

ولكن ميخائيل نعيمة لم يصل إلى هذا اليقين إلا بعد شك طويل فى كل الذى
يجرى حوله، وفى نفسه وفى دينه وفى ربه وفى الملائكة والشیاطين.. ويوم كان
فى شك من كل ذلك قال:

دخل الشيطان قلبى فرأى فيه ملاك
وبلمح الطرف ما بينهما اشتد العراك
ذا يقول: البيت بيتى ببعيد القول ذاك
وأنا أشهد ما يجرى ولا أبدى حراك
سائلا ربى: أفى الأكوان رب سواك؟

جبلت قلبى من البدء يداه ويداك؟
والى اليوم أرانى فى شكوك وارتباك
لست أدرى أرجيم فى فؤادى أم ملاك؟
وآخر ما بلغه ميخائيل نعيمة فى فهم هذه الدنيا ومعرفة الطريق الذى ليس
بعده ولا غيره طريق إلا هذا الذى قاله فى هذه الأبيات:

إن شئت خير دليل
فسر بغير دليل
أو شئت أصفى خليل
فعش بغير خليل!
أتيت البحر فى مده
وجئت البحر فى جزره
فلا بالمد أدنانى
ولا بالجزر أقصانى
فقلت وراقه قولى
أنا والبحر سيان!

ويوم أقاموا له حفلة فى المدرسة الروسية التى تعلم فيها، وجد الناس كثيرين
وتلفت حوله فى فزع كأنهم جاءوا يحاكمونه، وشعر بالرعب كأنه قال كلاما، لم
يفهموه أو اتهم أحدا فجاء يدافع عن نفسه.. فبدأ كلمته بالتوبة عن أى خطأ.
والاستغفار من كل ذنب ثم نبّه الناس إلى أنه فى أيامه الأخيرة، وأنه لم يعد
مدينا لأحد. وأنه قد أعطى وما أخذ.. أو أنه قد توهم أنه قد أعطى، فليحاسبه الله
والناس على حسن النية.. ثم أشار إلى أحد الشبان أن يلقي قصيدة له كان قد
نظمها من ستين عاما قال ميخائيل نعيمة:

غدا أرد هبات الناس للناس
وعن غناهم أستغنى بإفلاسى
وأسترد رهونا لى بذمتهم
فقد رهنت لهم فكرى وإحساسى
ورحت أتجر فى أسواق كسبهم

فما كسبت سوى هم ووسواسى
وكم فتحت لهم قلبى فما لبثوا
أن نصبوا كلبهم فى قدس أقداسى
غدا أعيد بقايا الطين للطين
وأطلق الروح من سجن التخامين
وأترك الموت للموتى ومن ولدوا
والخير والشر للدنيا وللدين
وألبس العرى درعا لا تحطمه
أيدى الملائك أو أيدى الشياطين
فلا تراعى نار الجحيم ولا
مجالس الحور فى الفردوس تغرينى
غدا أجوز حدود السمع والبصر
فأدرك المبتدا المكنون فى خبرى
فلا كواكب إلا كان لى سبل
فيها ولا تربة إلا بها أثرى
لى فى القضاء قضاء والمنون منى
وفى ملاحقة الأقدار لى قدرى
غدا؟ ولا أمس لى حتى أقول غدا
فلمنحها «الآن» من نطقى ومن فكرى!

شئ عجيب جدًا أن ينشر ميخائيل نعيمة كل فلسفته وهو دون الأربعين..
يقولها شعرا رائعا ثم يتوقف ويظل الخمسين عاما التالية يوضح كل ذلك نثرا
جميلا متماسكا قويا.

وفلسفة ميخائيل نعيمة كلها تدعو: إلى أن يتحرر الإنسان من كل قيد ليكون
وجها لوجه مع الله.. ووجها لوجه مع الكون الذى هو إحدى صور الله اللانهائية..
ووجها لوجه مع نفسه. فليس الصوت فى أعماقه إلا صوت الله، وليس الجمال فى
عينه، والجلال فى قلبه إلا ظللا لبهاء الله.. وأنه الدودة والبذرة والورقة والموجة
من عجائب مخلوقات الله .. تبارك الله!

عبد الرحمن الرافعي..

ناظر مدرسة التاريخ

تهذيب وإصلاح!

سألت المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي: ما رأيك في الحب؟ فقال: كلام فارغ! ثم كرر هذه الإجابة بأشكال أخرى.. فالحب يلخبط العقل. فإذا تلخبط العقل لم يصبح الإنسان قادراً على الفهم والحركة على الأشياء وهكذا ويسرعة ألقى الأستاذ الرافعي بنصف الأدب وربيع الفن في الزبالة - وبالمراة قبل ذلك! مع أن المرض والتعب والفقر والغيرة والحقد كلها مما يلخبط العقل، فهل هي جميعاً كلام فارغ؟!

ولكن الأستاذ الرافعي قال إنها كلام فارغ إذن هي كذلك! ولما سألت الأستاذ الرافعي عن رأيه في الحب والزواج.. وهل هو تزوج عن حب؟ فاستنكر السؤال تماماً. وقال - يقصد زوجته - وإنما تزوجتها عن اقتناع بأخلاقها ووطنيتها.. وبعد ذلك يجيء الحب أو لا يجيء.. فالأخلاق والوطنية هما الشرطان الأساسيان؛ لأن يوصف الرجل أو المرأة بالفضيلة. ويومها ازداد وجهه احمراراً.. ولم يكن هذا الاحمرار الشديد إلا مظاهرات التأييد التام من كل الكريات الحمراء في دمه.. انتهى. فهذا هو مقياس الشر والخير عند المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي.

فهو - إذن - يرى أن التاريخ هو درس من دروس الأخلاق صحيح أن المؤرخ يصور الواقع ولا يصححه ولكن العبرة والموعظة الحسنة هي الهدف.. فالإنسان يجب أن يعرف ما حدث، وأن يتعلم من الذي حدث فيقلع عن الشر ويتمسك بالخير. مع أن التاريخ قد علمنا أن أحداً لا يتعلم ولا يتعظ، فكلنا نقرأ عن الشرور ونكررها، كأننا لا قرأنا ولا سمعنا وإننا في حياتنا العادية نعيد ونزيد في أخطائنا.. وكذلك الشعوب!

فعبء الرحمن الرافعى رجل طيب. وعلى خلق كريم. ولأنه طيب فهو يصدق ما يقرأ وما يقال.. ولا يبدأ بالشك. مع أن الشك هو بداية اليقين ولكن الأستاذ الرافعى قد مر على كثير من الأحداث التى تحتاج إلى مراجعة وإلى رفض.. ولكن اكتفى بأن استوقف الأحداث وطلب إليها أن تقسم على قول الحق. فأقسمت كاذبة.. فصدقها..

يكفى أن ينقل الأستاذ الرافعى عن الصحف، دون تردد.. مع أن الإنسان يجب أن يتردد كثيراً جداً فى الذى تنشره الصحف فهى تخطف المعلومات خطفاً، وهى تهتز كثيراً، وهى تعرض وتحكم وتحلل.. ثم إن الصحف تخضع لأهواء كثيرة.. هوى الرقيب الذى يمثل الحكومات الحزبية.. ولكن الأستاذ الرافعى لم يتحفظ فى الذى نقله عن الصحف..

ثم إن الأستاذ الرافعى يحتكم إلى الأخلاق فى السياسة.. مع أن السياسة والأخلاق لا يلتقيان، والسياسة هى فن من فنون السفالة الأنيفة، والكذب الرشيق. وغلطة الثالثة تعيب منهج الأستاذ الرافعى. هى «حزبيته» - أى انحيازه التام لوجهة نظره الحزبية.. فالذى يوافق أفكار الحزب الوطنى؛ هو الأفكار. والذى يعارضها؛ هو الجريمة.. ويكفى خطأ فاحشاً أن يؤمن بأن مصطفى كامل عبقرى السياسة لا يأتية الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه. بينما أحمد عرابى يأتية الباطل من بين يديه ومن خلفه. فهو خائن لمصر - تصور - هذا حكم فظيع لمصطفى كامل وحكم شنيع على عرابى. ولكن الأستاذ الرافعى هو ذلك الرجل الرقيق الخجول الطيب لا تتحرك فيه شعرة واحدة. وهو يقدر مصطفى كامل، وفى نفس الوقت يلقى أحمد عرابى فى النار ويحرمه من دخول تاريخ مصر من أوسع الأبواب - ولكن هذا هو رأى الحزب الوطنى!

ورأى الرافعى فى المرأة هو رأى رجل محافظ تقليدى يؤمن بأن السفور كارثة تحيق بالمرأة ولذلك يجب أن نتحفظ فى ذلك تماماً.. وأن نؤجل ما استطعنا كشف وجهها وذراعيها وساقها وصدرها..

وسوف أختار ثلاثة أمثلة تكشف عن أسلوب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى، فى تناول القضايا التى يتعرض لها. أو التى يعرضها علينا بعد أن يكون قد فرغ من تحليلها وإصدار حكمه عليها. ولا يخطر على باله أننا سوف نستأنف الحكم فيها جميعاً.

القضية الأولى: وهى شخصية نفسية فيها قدر كبير من اليأس والقرف من الناس والزمان. يقول الأستاذ الرافعى: حرمت طيلة حياتى من معاونة الغير لى. لم أجد معاونة فى أعمالى ومشروعاتى ومنهجى فى الحياة، لا من المجتمع ولا من الحكومات ولا من الهيئات ولا من الأفراد. كل كفاحى أو معظمه كان يسير بلا سند إلا من معونة الله، لم أنل من المجتمع ولا من الحكومات أى علامة تقدير لأعمالى. لا أقول طعنا فى المجتمع بل تقريراً للواقع وتحديثاً بنعمة الله، نعمة الصبر ويلزمى أن أعترف بأننى إلى جانب حرمانى من التقدير، واجهت عقبات وتنكرا وجحودا من هنا ومن هناك.. وعلام كل هذا؟ لا أدرى إذا كنت على حق يتنكر له الناس، أم على باطل يتولى الناس تقويمه. على كل حال فإن اعتقادى أننى على حق وإننى كنت مغبوناً فى قومى، قد أكون مخطئاً فى اعتقادى، ولكنهم يقولون: لكل مجتهد نصيب. إذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران.

والأستاذ الرافعى كما ترى لم يحسن عرض قضيته، فهو شديد الاضطراب ثم إنه فاجأنا بالحكم دون أن نعرف حيثيات هذا الحكم ولا ملف القضية.. بل إنه لم ينطق فيها بحكم، فالذى قاله سحبه فى النهاية. وجعل حياته كلها قد خضعت لأحد الكليشيات السلوكية وهى: لكل مجتهد نصيب.. وتندهش أنت كيف لا يترافع الرافعى فى قضيته هو، وحياته وقصة سلوكه كإنسان وكمؤرخ ورأيه فى الناس فى زمانه وكل زمانه ثم يطمئن بعد ذلك لأحكامه ومن المؤكد أنه خسر قضيته كما خسر كل الناس.. وموقف الأستاذ الرافعى من قضيته هو كموقفه من كل القضايا الأخرى. هو يرى أنه على حق، ثم يرى أن الناس جميعاً ليسوا على حق!! وهذه فرصة نادرة قد أضاعها الأستاذ الرافعى، وكان فى استطاعته أن يتخذها مدخلاً لتناوله للتاريخ وللأحداث وللأشخاص.. فتعرف كيف يرسم الشخصية وكيف يضع مفاتيح الأحداث ومسارها.. وهل هو يعتمد على العوامل النفسية والاجتماعية أو الأخلاقية أو السياسية؟.. إن هذا الذى حكاه عن نفسه كان مدخلاً فريداً لكل أحداث التاريخ ولكنه ضاق بالناس وبنفسه.. ولم يعتمد كثيراً على التفسير النفسى أو الاجتماعى أو الأخلاقى للتاريخ.. وإنما أراد أن يقول إنه رغم التعب والجحود وسوء التقدير أو اللامبالاة الرسمية والشعبية له، فإنه سوف يمضى فى عمله، وسلاحه هو الصبر. والصبر نعمة من عند الله..

وعندما كنت أتحدث إلى الأستاذ الرافعى، كان يخيل إلى أنه يخطب فى

اجتماع سياسى.. ولم يكن غريبا أن ألفت حولى، لأرى إن كان هناك أحد غيرى.. ولكنه كان يخاطب التاريخ أو الأجيال القادمة بمناسبة جلوسى معه.. وهو يكتب كما يتكلم.. خطيبا واعظا..

والقضية الثانية: هى اغتيال سليمان الحلبي للقائد الفرنسى كليبر.. وقد نقل الحدث كله عن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى الحبشى الأصل. قال الجبرتى: واجتمع رؤساء العساكر فى الحصون والقلاع وظنوا أن الجريمة من فعل أهل مصر، فأحاطوا بالبلد وعمروا المدافع وحرروا القنابر.. وقالوا لابد من قتل أهل مصر عن آخرهم.. ووقعت هوجة عظيمة و«كرشة»..

ويقول الرافعى: وذكر الجبرتى إجراءات التحقيق مما لا يخرج عن المراجع الفرنسية، ونقل محاضر التحقيق ومحاضر جلسات المحاكمة؛ كما دونها الفرنسيون فى ذلك الحين. فقد نشروها بالفرنسية، وترجموها إلى التركية والعربية بلغة ركيكة مفككة مملوءة بالأغلاط، فضرينا صفحا عن الترجمة الواردة فى الجبرتى ورجعنا إلى المصادر الفرنسية!

ولم ينتبه الأستاذ الرافعى إلى الميزة العظيمة للجبرتى الذى استعان بالمحاضر الفرنسية ونقلها دون تغيير.. لأنه احترم الفرنسيين الذين لا دين لهم - كما يقول - ولكنهم لا يحكمون إلا بالعدل.. إلا بالعقل لا بالتعصب.. فقد كان فى استطاعتهم أن يقتلوا من يشاءون دون محاكمة.. ولكنهم سألوا وأعادوا الأسئلة، وطلبوا من المتهمين أن يختاروا من يدافع عنهم. ولما لم يختاروا انتدبت لهم المحكمة من يدافع عنهم وعلى الرغم من اعتراف القاتل، وعلى الرغم من وجود أداة القتل ملطخة بالدم فإنهم لم يكتفوا بذلك.. بل سألوا وسألوا.. منتهى العدل!

ولكن المؤرخ العظيم توينبى هو الذى خلع قبعته تحية لعبد الرحمن الجبرتى ووصفه بأنه أعظم المؤرخين فى كل العصور. أولا: لأنه كان موضوعيا فى كل الذى نقل.

ثانيا: لأن العلوم التى نقلها الفرنسيون إلى مصر لم تبهره، ولم تغير شعوره بكراهية الاحتلال الفرنسى والفرنسيين.

ثالثا: ورغم كراهية الجبرتى للاحتلال وللفرنسيين الكفرة، فإنه عندما رأى العدل والأمانة فقد أبدى إعجابه الشديد بهم..

ولذلك رأى المؤرخ العظيم أرنولد توينبى أن الجبرتى يستحق عن حق بأن يوصف بأعظم المؤرخين على الإطلاق!

ولم يتوقف الأستاذ الرافعى طويلا عند هذا المؤرخ الموضوعى، وإنما اهتم فقط بأن سجل على الجبرتى أنه نقل نصوصا مترجمة ركيكة، ولذلك انصرف عنها إلى الأصل الفرنسى ولم ينتبه إلى أن الجبرتى قد نقل هذه النصوص لأنه عظيم الاحترام للصدق والعدل والأمانة عند المحكمة الفرنسية.. ودهشة الجبرتى لم تنته: كيف يظلم الأتراك المسلمون، ويقتلون بلا محاكمة.. بينما الفرنسيون الذين لا دين لهم يحكمون بالعدل؟!!

والقضية الثالثة: هى قضية على باشا مبارك.. وهو أبو التعليم والإصلاح التعليمى.. وهو أيضا رجل طيب. فلاح صبور. وقد أثار حقد الكثيرين وأهين كثيرا وصفعوه على خديه الأيسر والأيمن وعلى قفاه.. ودفعوه إلى أن يعمل بالنجارة وبالفلاحة.

والأستاذ الرافعى تعرض لسرد حياة على مبارك الذى كان كلما ذهب إلى معلم عامله بقسوة فهرب.. إنه دائم الهرب أما والده فيريده أن يتعلم وأن يذهب إلى الأزهر، ولكن الطفل يريد أن يتعلم ولكن بغير قسوة، ويريد أن يتعلم إلا فى الأزهر وضاق به أبوه فهرب الطفل.. وهرب الشاب.. ولكنه كان متفوقا وسافر إلى فرنسا وعاد ليكون مديرا ووزيرا ومستشارا ومفصولا وعاطلا ومهددا فى حياته وفى بيته.. وبعد ذلك يرفعه الخديو إلى السماء.. ثم يجىء خديو آخر ويضعه فى باطن الأرض والفقر والخوف.

أما تعليق الأستاذ الرافعى على حياة على مبارك فهو أنه رجل عنده أخلاق وشرف. وليس غريبا فأبوه كذلك.. وهو أبوه وأسرته نموذج للأسرة المصرية التى تريد أن تتعلم مهما تعبت.. والتعليم فى ذلك الوقت يقوم به الجهلاء الذين لا رحمة فى قلوبهم.. واضطراب حياة على مبارك نموذج لاضطراب الحياة فى مصر فى ظل الأتراك أصحاب النزوات والذين يعتمدون على الدسائس والفتن. يعنى: على باشا مبارك رجل عظيم على خلق كريم وأبوه كان كذلك!

ولكن الأستاذ الرافعى لم يفكر فى أن يبحث فى ملفات على مبارك فقد اتهمه معاصروه بأنه كان ضعيفا وكان سلبيا، وأنه كان لا يناقش الخديو، وإنما ينفذ له كل ما يأمره به.. طلب منه أن يخفض ميزانية التعليم، ففعل فأغلقت المدارس

وشرد المدرسون والتلاميذ.. ولم نعرف إن كان على مبارك استسلم؛ حتى ينفذ سياسته العامة فى التعليم.. أو أنه فعل ذلك لأنه بتكوينه إنسان خائف. وإن الذى كان يعمل هو طفل؛ لم يعد يستطيعه وهو رجل - كيف يهرب- أو أن ينسحب لأن الانسحاب هو خير وسيلة للدفاع عن الكرسي ولقمة العيش والأولاد.. وهل أصبح على مبارك ضحية لعصره.. فقد خاف صغيرا وظل خائفاً كبيراً.. وأنه ضحية الوشاية والدسائس.. حتى أصبح هو الآخر يستمع للوشاية والدسائس.. فزوجته الثانية كانت غنية وساذجة.. فلم يكد أحد أقاربه يهمس فى أذنه بشيء عنها، حتى طلقها دون أن يناقشها أو يتحقق من كل الذى قيل عنها فى غيابه وعن الأموال التى ورثتها، واستولى عليها أحد أقاربها.. فعلى مبارك ضحية زمانه. وصورة منه أيضاً!

ولا أنسى لقاء بين الأستاذ الرافعى والأستاذ العقاد. وقد أدهشنى ما سمعته من الأستاذ الرافعى وخلاصة رأيه أن المؤرخ «مغرض» ولا يستطيع أن يكون محايداً.. لأن الحياد هى صفة الذين يبحثون فى الفيزياء والكيمياء ولكن كيف يكون العاشق محايداً والخائف والجائع.. فان الأستاذ الرافعى يقول للعقاد: كيف تقول للشاعر لا تكن عاطفياً.. وللمطرب لا تهتز وأنت تغنى.. والمؤرخ إذا قال لنفسه: يجب أن أكون صادقاً عادلاً، فهذا وعد وعهد.. وإلا فما قيمة التاريخ إن لم يكن درساً وموعظة وأنا عندما أكتب تاريخ مصر فأنا أكتب قصة حياة أمى وأبى ولا بد أن أكون باراً بأمى، رحيماً بأختى.. وكيف أكون محايداً إذا سالت دماء أمى وأختى.. وكيف أكون منزهاً عن التعصب وعن الانتقام وأعتقد أن كل مؤرخ هو عاشق لشيء ما وهذا العشق الذى يوقظ وجدانه ويشغل فكره كثيراً ما يجعله يفقد عقله أيضاً!

وقد سجلت ذلك بتفصيل أكثر فى كتابى (فى صالون العقاد كانت لنا أيام) - وأصدق ما قاله الأستاذ الرافعى فى فهمه للتاريخ ولدوره فى كتابة التاريخ: أن العاشق يفقد عقله.. وهذا واضح تماماً فى كل الذى كتبه الأستاذ الرافعى.. فهو لا ينظر إلا إلى الجوانب الأخلاقية أو المنافية للأخلاق - أى اتباع التعاليم الدينية أو التعاليم الحزبية.. فكل من هو على خلق هو وطنى أيضاً - ولكن مفهوم الوطن عند الأستاذ الرافعى هو مبادئ الحزب الوطنى، وليس حب الوطن. فحب الوطن يشترك فيه كل الناس من كل لون ومذهب ودين!

والأستاذ الرافعى ناظر مدرسة التفسير الأخلاقى للتاريخ أو التفسير الحزبى للعمل الوطنى والتاريخ الذى كتبه الأستاذ الرافعى هو أوفى سجل لتاريخ مصر الحديثة، وهو عمل شاق لم يلق ما يستحقه من العناية والرعاية والتقدير الكريم لشخص المؤلف.

وكان الرئيس السادات يشيد كثيراً بما كتبه الأستاذ الرافعى وهو الذى أمر بإعادة طبع كل أعمال الرافعى فى دار المعارف. ونقلت ذلك إلى زوج ابنته المستشار حلمى شاهين، وأسعده وأسرة الرافعى هذا القرار. وتمنوا لو أن مثل هذا التكريم قد صدر قبل ذلك. والرجل مازال حيا ولذلك فشكوى عبد الرحمن الرافعى من الناس والأيام والمجتمع والدولة ظلت مؤلمة حتى وفاته. وبوفاة الأستاذ الرافعى أغلقت مدرسة التفسير الأخلاقى للتاريخ أبوابها بالضربة والمفتاح. وامتلات صحف مصر ومكتباتها بالمؤرخين، من كل لون واللون عندهم أهم من التاريخ ومن معناه ومن مساره ومن قواعد الحركة التاريخية.

ولم يعد من السهل أن يعرف القارئ إن كان صدقا أو كذبا أو خرافة هو الذى يقرأ عن تاريخ مصر الحديثة وعن قادتها وزعمائها.. لقد انطلقت الأقلام، وانتهكت حرمت التاريخ واستراح المؤرخون إلى «التنفيس» عن آرائهم ومشاعرهم.

أما الجيل الجديد أو نصف سكان مصر فهم الضحية: لا يعرفون أين الصدق وأين الكذب.. أين الحق وأين الباطل.. أين المجرم وأين البطل.. أين الوطنى وأين الخائن.. كل الألوان اختلطت واضطربت وارتبكت الأقلام وارتعشت العيون. وتداخلت القيم وتحطمت الأصنام وقامت أصنام أخرى على جثث الشهداء.. ولم يعد أحد يعرف ما هى الشهادة ولا من الشهيد.. ولا الهدف وراء كل ذلك!

إن الذى يعانى به الشباب اليوم هو نوع من «الكفر» السياسى والاجتماعى.. والضياغ التاريخية.. وقد أسلمتهم هذه الحالة إلى الهرب.. إلى الهرب إلى أى مخابأ سياسى أو اجتماعى أو دينى.. وتعاطى المخدرات نوع آخر من الهرب.. لأنه إقامة للقصور فوق السحاب.. ثم أصابهم الشعور بالغربة والغربة والشذوذ.. نراهم شواذ ويروننا خونة.. نراهم ضائعين ويروننا السبب.. حتى يجىء جيل آخر يقرأ كتباً أخرى بأقلام منصفة علمية.. تمسح الصور وتجلو العدسات وتقول كلمة الحق على نفسها.. ولكن البداية الكريمة النظيفة والنبيلة والتربوية كانت وسوف تبقى مؤلفات

عبد الرحمن الرافعى!

إيليا أبو ماضي:

أروح الحائريه!

كل لبناني يحب أن يكون تاجرا وشيئا آخر.. حتى إذا كان شاعرا، فهو تاجر بعد ذلك.. أو يريد أن يكون..

فالشاعر إيليا أبو ماضي هاجر إلى مصر في العاشرة من عمره.. جاء يبحث عن لقمة العيش.. فوجدها في كشك سجائر.. كان يبيع.. وكان يتنقل وراء الزبائن في بيوتهم: وكان يغري الزبائن بأن يعطوه عناوينهم ليأتي لهم بما يريدون بعد أن يقفل الكشك. لماذا؟ كان يعطى لنفسه فرصة أن يمشى في الشوارع.. أن يتصعلك فيقفز الشاعر في أعماقه يقول ويقول.. وكان إيليا أبو ماضي شاعرا موهوبا. فالكلام يخرج من فمه موزونا مقفى.. ولا يعرف كيف. وكان يخطئ في مبادئ النحو والصرف. فهو لم يتعلم إلا سنوات قليلة في مدرسة.. والباقي أكمله كما فعل أستاذنا العقاد.. لم يكن عالما مثقفا متفلسفا دارسا مثل ميخائيل نعيمة.. وإنما كان شلالا جبليا فوارا وثرثارا.. يخرج من الصخر وينزل على الصخر ويتدفق في القنوات المتعرجة في الوديان.. والعطر في كل مكان والفراشات.. كلها تخرج منه.. ولا يدري كيف.. وعندما جاء إلى مصر أراد أن يدق أبواب الشعراء والمثقفين، وفي الوقت نفسه يسرح بسجائره.. وفي يوم جاءه رجل أحمر الوجه متوسط القامة.. أنيق ورآه يكتب شعرا على علب السجائر، كما كان يفعل أمير الشعراء شوقي. وسأله: إن كان هذا من مختاراتك؟ فأجاب: بل هذا من نظمي.. وعندي كثير.. فاندesh الرجل الأنيق ونشر له بعض قصائده وعرف فيما بعد أن هذا هو أنطون باشا الجميل؛ رئيس تحرير الأهرام..!

وعندما قرأ د. طه حسين شعر إيليا أبو ماضي، أعجبه الشاعر وبهرته موهبته الفنية.. ولكن لم يستطع طه حسين إلا أن يطلب إليه أن يتعلم مبادئ النحو وقواعد اللغة.. فالشعر موجود والشعر جميل، ولكن اللغة لها أصولها!

وعندما قرأ د. هيكل باشا شعر إيليا أبو ماضى وشعر ميخائيل نعيمة خاف
تماما على الشعر المصرى.. وقال: إن هؤلاء الشوام قد تقدمونا فى المعانى
والصور الجميلة.. ولا عيب فيهم إلا أنهم متأمركون.. أى أنهم شعراء خواجهات..
ومالم نستدرك ما فاتنا، فسوف يكون الشوام هم شعراء الأمة العربية!

ولأن إيليا أبو ماضى لم يدرس فقد وقع أسيرا للمتنبى وأبى تمام
والبحترى. وكان يقف ببابهم دائما.. إن قرأ لهم قصيدة أسرع فنظم واحدة
مثلها.. نفس الوزن والقافية.. وحتى هذا الشعر التقليدى كان يدل على أن إيليا
أبو ماضى شاعر حقيقى، كامل الأدوات.. شاعر تقليدى.. ولكن عندما هاجر إلى
أمريكا تفجرت ينابيع الشعر الجديد.. فانتقل من التقليد إلى التوليد، فإذا
الأوزان أكثر تنوعا. وإذا الصور أبلغ، وإذا المعانى أعمق.. فالشعر قد خلع جلده
القديم وانطلق يتفجر مثل نافورة أنيقة وسط حديقة.. أما هذه الصور، وأما هذه
الفراشات فهى أيضا من مختاراته.. انطلق إيليا أبو ماضى إلى السماوات
الواسعة.. انتهى، لم يعد شاعرا لبنانيا يريد أن يكون صورة للمتنبى وأبى تمام
والبحترى.. وإنما أفسح لنفسه مكانا بينهم.. كان عظيم الاحترام لهم: أساتذة
علموه وتقدموه.. ولكنه بعد أن عبر المحيطات راح ينتقل بين بحور الشعر
وينتقى أرقها..

ولكن إيليا أبو ماضى الذى هاجر من لبنان إلى مصر، ومن مصر إلى أمريكا،
مايزال مهاجرا.. فالتجارة لن تعطيه الذى أراحه.. والشعر لم يحقق الذى أسعده..
فهو حائر بائر.. محكوم عليه بأن يظل شاعرا معذبا ويفرحه ويفرحنا ذلك..
أما أيامه فى مصر.. وكان دون العشرين من عمره فقد وصفها هكذا، مع
الامتنان لمصر ومع الأسف على تركها وفقدتها:

أشقى البرية نفساً صاحب الهمم	وأتعس الخلق حظاً صاحب القلم
لقد صحبت شبابى والسيراع معا	أودى شبابى.. فهل أبقى على قلم؟
أصبحت أنحل من طيف وأحير من	ضيف، وأسهر من راع على غنم
ليس الوقوف على الأطياف من خلقى	ولا البكاء على ما فات من شيمى
لكن مصرا، وما نفسى بناسية	ملكية الشرق ذات النيل والهرم
صرف شطر الصبا فيها فما خشيت	نفسى العثار، ولا نفسى من الوصم
فى فتية كالنجوم الزهر أوجههم	ما فيهم غير مطبوع على الكرم
الشرق تاج ومصر منه درته	والشرق جيش ومصر حامل العلم

هيهات تطرف فيها عين زائرها بغير ذى أدب أو غير ذى شمم
أحنى على الحر من أم على ولد فالحر فى مصر كالورقاء فى الحرم
وفى أمريكا لم يحقق أبو ماضى شيئا مما كان يريد.. فلا هو التاجر الغنى،
ولا هو الشاعر المعروف.. ضاع فى أمريكا.. ضاع تاجرا وشاعرا.. وضاع إنسانا
لا يعرف ما حقيقة هذا الإنسان.. وما حقيقة هذا الكون.. وكلما حارب بين الذى يريد
والذى يفهم والذى يرد والذى يحلم، لم يجد أمامه إلا هذا الشاعر.. إلا نفسه.. فقد
خلقه الله مختلفا عن كل الناس.. لو كان الله خلقه أقل اختلافا.. أى أبقاه شاعرا
وتاجرا.. أى أعطى الشاعر بعض أموال التجار، وأعطى التاجر بعض صعلكة
الشعراء.. وقد حاول أبو ماضى أن يكون كاتباً أو ناشراً.. فكان شعوره بالغيرة
أعمق وأرجع.. فما أكثر وأجمل قصائده عن الشعر والشعراء فى كل دواوينه.. إنها
جميعاً صورة للموهبة التى يعتز بها، ويعذابها أيضاً.

يقول الشاعر الغريب المغترب إيليا أبو ماضى:

رأى الله ذات يوم	فى الأرض أبكى من الشقاء
فرق، والله ذو حنان	على ذوى الضر والعناء
وقال: ليس تراباً داراً	للشعر فارجع إلى السماء!
وشاد فوق السماء بيتى	ومد ملكى على الفضاء
فالتفت الشهب حول عرشى	وسار فى طاعنى الضياء
فالأمير بين النجوم أمرى	لى الحكم فيها والقضاء
لكننى لم أزل حزيناً	مكتئب الروح فى العلاء
فاستغرب الله كيف أشقى	فى عالم الوحي والسناء
وقال: ما زال آدمياً	يصبو إلى القيد والطلاء
ومس روحى واستل منها	شوقى إلى الخمر والنساء
واشتد نوحى وصار جها	وكان من قبل فى الخفاء
يا أيها الشاعر المعنى	حيرنى دواؤك العياء
هل تشتهى أن تكون طيراً؟	فقلت: كلا ولا غناء!
هل تشتهى أن تكون نجماً؟	أجبت: كلا ولا بهاء
هل تبتغى المال؟ قلت: كلا	ما كان من مطلبى الثراء!
ولا قصوراً ولا رياضاً	ولا جنوداً ولا إماء
وليس ما بى، يا رب، داء	ولا احتياجى إلى دواء

لكن أمنية بنفسى
فقال: يا شاعرا عجبا
فقلت: يا رب فصل صيف
فإننى ههنا غريب
فاستضحك الله من كلامى
لبنان أرض كل أرض
فأى شئ تشفق فيه؟
فأشرف الله فى علاه
فقال: ما أنت ذو جنون
فإن لبنان ليس طودا

يسترها الموت والحياء
قللى لى إذن ما الذى تشاء؟
فى أرض لبنان أو شتاء
وليس فى غربة هناء
وقال: هذا هو الغباء
وناسه والورى سواء
فقلت: ما سرنى وساء
يشهد لبنان فى المساء
وإنما أنت ذو وفاء
ولا بلادا، لكن سماء!

والشاعر العظيم إيليا أبو ماضى كان نموذجا للحيرة والغربة.. فهو اللبناني
الغريب بين اللبنانيين.. وهو العربى الغريب بين الأمريكان.. وهو الشاعر الغريب
دائما، يرى مالا يرى الناس، ويسمع مالا يسمعون.. ويفكر فى الحزن وسط
البهجة، وهو المبتهج الحزين.. يرى البداية عند النهاية، ويتوجع بالنهاية قبل
البداية.. من هذا المجنون؟ ليس مجنونا! من هذا العاقل؟ ليس عاقلا! من هذا
المأخوذ؟ إنه الحاضر دائما فى خضم الكون.. من هذا الحاضر؟، انه الغائب فى
مناهاة الجمال والجلال.

يقول إيليا أبو ماضى:

قالت وصفت لنا الرحيق وكوبها
والحقل والفلاح فيه سائرا
ووقفت عند البحر يهدر موجه
وأريتنا فى كل ثغر روضة
لكن إذا سأل امرؤ عنك أمرا
من أنت يا هذا؟ فقلت لها: أنا
قالت: لعمرك زدت نفسى ضلة
فأجبتها: هو من يسائل نفسه
والعين سر سهادها ورقادها
قالت: أتعرف من وصفت؟ فقلت: من؟
يا شاعر الدنيا وفيك حصافة

وصريعها ومديرها والعاصرا
عند المسا يرعى القطيع السائرا
فرجعت بالألفاظ بحرا هادرا
وأريتنا فى كل روض طائرا
أبصرت محتارا يخاطب حائرا
كالكهرياء أرى خفيا ظاهرا
ما كان ضرك لو وصفت الشاعرا
عن نفسه فى صبحه ومساءه
والقلب سر قنوطه ورجائه
قالت: وصفت الفيلسوف الكافرا
ما كان ضرك لو وصفت الشاعرا؟

فقلت: هو امرؤ يهوى العقارا
ملول لا يـدوم على ولاء
أخو لبُّ ولكن لا إرادة
يميل إلى الدعابة والمزاح
فقلت: جئت بالكلم البديع

كما يهوى مغازلة العذارى
ولكن لا يـدوم على عدا
وذو زهد ولكن بالزهاده
ولو بين الأسنة والرماح
ولكن ما وصفت سوى الخليع

وخفت اعتراضها عنى فقلت: إذن
يشكو السقام وما فى جسمه مرض
والهجر، وهو بمرأى من أحبته
ولا يرى حسنا فى الأرض يألفه
ينوح فى الروض والأشجار مورقة
فقاطعتنى وقالت: قد بعث بنا
قلت: مهلاً إذا ضللت وعذرا
هو من ترسم الجمال يـداه
ويرينا ما ليس يبقـى سـيبقى
هو من تراه سائراً فوق الثرى
إن نام فالأرواح فى عبراته
يبكى مع النائى على أوطانه
وتغير الأيام قلب فتاتـه
هو من يعيش لغيره ويظنـه

هو الذى أبدا يبكى من الزمـن
والسهد هو قريب العهد بالوسـن
والأسر، وهو طليق الروح والبدن
أو يشتهيـه وكم فى الأرض من حسن
كما ينوح فى الأطلال والدمـن
ما ذى الصفات صفات الشاعر الفطن
ربما أخطأ الحكيم وضلا
فتراه فى الطرسى أشهى وأحلى
ويرينا ما ليس يبلى سـيبلى
وكان فوق فؤاده خطواته
وإذا شدَّ فالحب فى نغماته
ويشارك المحزون فى عبراته
ويظل ذا كلف بقلب فتاتـه
من ليس يفهمه يعيش لذاته!

وإذا كان الشاعر العظيم ميخائيل نعيمة هو صاحب أجمل الإجابات فى الشعر
المهجري، فإن إيليا أبو ماضى هو صاحب أروع الأسئلة، وهو كثير التساؤل يريد
أن يعرف ولكن الذى يريده كثير كثير.. والذى يقدر عليه قليل قليل.. ثم إنه لا
يعرف بالضبط ما هذه الحقيقة فكل إنسان يريد شيئاً ويرى أن هذا الذى يريد هو
الحق.. ولا شىء إلا الحق وكل الحق فإذا تنوعت الحقائق، فأين الحقيقة الواحدة.

يقول إيليا أبو ماضى

ذهبت سائلاً عن خير شىء
فقلت لى الكنيسة: خير شىء
وقالت لى الشريعة: خير شىء

لأعرف كنه أخلاق البرية
هو الزهد الذى يمحـو الخطية
شمول العدل أبناء الرعية

وقال أخو الحصافة: خير شيء
وقال أخو الجهالة: خير شيء
وقال لى الفتى: وصل الصبايا
ولما أن خلوت سألت نفسى
فقال لا أرى خيراً وأبقى
وأشهر قصائد إيليا أبو ماضى قصيدته الشهيرة «الطلاسم» أى رموز وألغاز
هذا الكون.. والتي تنتهى كل مقطوعة فيها بكلمتى: لست أدرى..
وقد وصفه الشاعر ميخائيل نعيمة بأنه شاعر «لا أدرى» أى من المدرسة
الفلسفية الشهيرة باسم مدرسة «اللاأدرية» ولا أرى أن هذه شتيمة أو سخرية.. فما
أكثر الذى ترى ولا تفهم وتحاول وما أقل الذى ندريه عن الدنيا حولنا، والكون
من فوقنا وتحتنا، ثم لا ندري أنفسنا.. ولا أمل فى أن ندري.. فالعقل صغير والعمر
قصير وعلامات الاستفهام جبال فوق جبال..

يقول إيليا أبو ماضى فى أروع غابة «من الأسئلة»:

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيت
وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟
لست أدرى!

وطريقى ما طريقى؟ أطويل أم قصير؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور
أنا السائر فى الدرب أم الدرب يسير
أم كلانا واقف والدهر يجرى
لست أدرى!

أنت يا بحر أسير آه ما أعظم أسرك
أنت مثلى أيها الجبار لا تملك أمرك
أشبهت حالك حالى وحكى عذرى عذرك

فمتى أنجو من الأسر وتنجو؟
لست أدري!

قد سألت السحب فى الآفاق هل تذكر رملك؟
وسألت الشجر المورق هل يعرف فضلك؟
وسألت الدر فى الأعناق هل تذكر أصلك؟
وكأنى خلقتها قالت جميعا:
لست أدري!
أمن الدير أم الليل اكتبابى؟
لست أدري!

قد دخلت الدير أستنطق فيه الناسكينا
فإذا القوم من الحيرة مثلى باهتونا
غلب اليأس عليهم، فهم مستسلمونا
وإذا بالباب مكتوب عليه:
لست أدري!
إننى أشهد فى نفسى صراعا وعراكا
وأرى ذاتى شيطانا وأحيانا ملاكا
هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذا اشتراكا
أم ترانى واهما فيما أراه؟
لست أدري!

رب بستان قد قضيت العمر أحمى شجره
ومنعت الناس أن تقطف منه زهره
جاءت الأطيّار فى الفجر فناشت ثمره
الأطيّار السما البستان أم لى؟
لست أدري!

رب قبح عند (زيد) وهو حسن عند (بكر)
فهما ضدان فيه وهو وهم عند (عمرو)
فمن الصادق فيما يدعيه. ليت شعرى

ولماذا ليس للحسن قياس؟
لست أدري!

قد يصير الشوك إكليلا لملك أو نبى
ويصير الورد فى عروة لص أو بغى
أيغار الشوك فى الحقل من الزهر الجنى
أم ترى يحسبه أحقر منه؟
لست أدري

أنا أفصح من عصفورة الوادى وأعذب؟
ومن الزهرة أشهى؟ وشذى الزهرة أطيب؟
ومن الحية أدهى؟ ومن النحلة أغرب؟
أم أنا أوضع من هذى وأدنى؟
لست أدري!

كلها مثلى تحيا، كلها مثلى تموت
ولها مثلى شراب ولها مثلى قوت
وانتباه ورقاد وحديث وسكوت
فبما أمتاز عنها ليت شعرى؟
لست أدري!

إننى جئت وأمضى وأنا لا أعلم
أنا لغز.. وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز لغز مبهم
لا تجادل ذا الحجا من قال إنى:
لست أدري!

حاول إيليا أبو ماضى الشاعر التاجر، أن يجد المال فلم يجد.. أن يجد الإجابة
عن سؤال واحد.. فوجد ألوف الأسئلة.. وكانت الأسئلة هى الإجابة: كل شىء لغز..
حتى هو لغز.. خصوصا هو لغز.. أراد أن يكون تاجرا فكان شاعرا.. أراد أن يكون
شاعرا فكان حائرا.. أشهر الحائرين، أروع الحائرين فى القرن العشرين.

كم فتاة مثل ليلي وفتى كابن الملوح
أنفقا الساعات في الشاطئ تشكو وهو يشرح
كلما حدث أصغت وإذا قالت ترنح أحفيف الموج سرُّ ضيِّعاه؟
لست أدري!

قيل لي في الدير قوم أدركوا سر الحياة
غير أني لم أجد غير عقول آسنات
وقلوب بليت وإذا المنى فهي رفات
ما أنا أعمى فهل غير أعمى؟
لست أدري!

قيل: أدري الناس بالأسرار سكان الصوامع
قلت: إن صح الذي قال فإن السر شائع
عجبا كيف ترى الشمس عيونا في البراقع
والتي لم تتبرقع لا تراها؟
لست أدري!

إن تك العزلة نسكا وتقى فالذئب راهب
وعرين الليث دير حبه فرض وواجب
ليت شعري أيमित النسك أم يحيى المواهب
كيف يمحو الشك وهو إثم آثم؟
لست أدري!

إنني أبصرت في الدير ورودا في سياج
قنعت بعد الندى الطاهر بالماء الأجاج
حولها النور الذي يحيى وترضى بالدياجي
أمن الحكمة قتل القلب صبورا؟
لست أدري!

فدخلت الدير عند الفجر كال فجر الطروب
وتركت الدير عند الليل كالليل الغضوب
كان في نفسي كرب، صار في نفسي كرب

الله قال لي: اكتشفني

فكّنت دراستي للتاريخ

ما وجه الشبه بين طفل يولد في نيويورك، وطفل يولد في واحة سيوة، وطفل يولد في جزيرة قبرص، وطفل في كردفان؟.. كلهم أطفال. وأسلوبهم في التعبير عن احتياجاتهم واحد، ومراحل النمو من الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة إلى الشيخوخة إلى الموت واحدة.. ولكن كل واحد من هؤلاء يختلف في كيفية العثور على احتياجاته، وكيفية الاستمرار في حياته بعد ذلك.

أو بعبارة أخرى: كل واحد من هؤلاء تواجهه تحديات البيئة، ولا شيء يدل عليه وعلى قدرته وعلى مستقبله إلا مواجهته لهذه التحديات وتغلبه عليها.. بشرط أن تكون التحديات صعبة لا مستحيلة، فالتحديات الصعبة هي التي يمكن أن تبذل جهداً في التغلب عليها.. وإنما محاولة تحدي المستحيل لا تعتبر تحدياً.. فنحن لا نتحدى الموت. لأن الموت نهاية لا مفر منها، وإنما نحن نتحدى المرض.. ونتحدى الجوع ونتحدى الفقر..

بهذه النظرية اتجه عميد المؤرخين الإنجليز أرنولد توينبي إلى دراسة تاريخ البشرية كلها وهو يدرس التاريخ على شكل حضارات. لا مجتمعات ولا شعوب ولا أفراد ولكن كلها معاً فالحضارة تضم شعوباً والشعوب تضم مجتمعات. والمجتمعات تضم عائلات والعائلات تضم أفراداً.. والفرد نتاج التاريخ الإنساني كله في حضارة من الحضارات.

وقد اهتدى المؤرخ الكبير توينبي إلى فكرة «الحضارة» أو أن هناك حضارات تتشابه رغم اختلاف الظروف، كتشابه هؤلاء الأطفال رغم اختلاف البيئات عندما كان يدرس الحضارة الإغريقية.. فقد لاحظ أن هناك تشابهاً بينها وبين حضارات أخرى.. إحدى وعشرين حضارة، أولاً الحضارة المصرية القديمة قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة.. وآخرها الحضارة الغربية قبل القرن السابع الميلادي.

ولهذه الحضارات كما للإنسان والحيوان والنبات: بذور ونمو وازدهار ونضج وذبول وموت.. طفولة وشباب ورجولة وشيخوخة وموت.. ولكن الحضارة لا تموت.. كما أن الإنسانية لا تموت.. وإنما تتولد فيها عند مرحلة الشيخوخة بذور نمو الكائنات الجديدة وازدهارها.. وتداخل حضارات أخرى وتفاعلها وانفعالها وردود مقاومتها أو انهيارها ضحية حضارة أخرى..

وكل حضارة لها تحدياتها التي تواجهها وتحاول أن تتغلب عليها.. ثم تتغلب عليها بعض الوقت.. وتعجز عن مواجهتها ثم انهيارها.. فتحديات الحضارة المصرية هو التفكك.. وعدم الترابط.. ولذلك استطاعت الحضارة المصرية أن تحقق الوحدة والتكامل والدفاع عنها.. وهناك حضارة كل تحديها الأكبر هو البحر.. وحضارة تتحدى الصحراء.. وحضارة تتحدى الغابات.. وحضارة تتحدى الجليد الذي ولدت فيه.. فالحضارات التي ولدت على شواطئ البحار، كان البحر عقبة تريد أن تعرفه وأن تتجاوزه وأن تعبره.. وحضارة ولدت في الغابات فكانت الغابات مصدرا للحياة وفي نفس الوقت عائقا وعازلا.. وحضارات ولدت في الجليد.. وعاشت في بيوت من الجليد.. ولكنها لم تستطع أن تتغلب على الجليد ولا أن تقهره.. وكل حضارة لكي تتقدم فلا بد أن تتولد فيها قواها التي تدفعها إلى الأمام.. هذه القوة تظهر إلى الأقلية الخلاقة.. أو الأقلية المبدعة.. هذه الأقلية هي التي تتسلط وتحكم بما عندها من حلول جديدة للتحديات القديمة.. ومادامت هذه الحلول نافعة للأغلبية، ظلت هذه الأقلية المبدعة من رجال الدين والمفكرين والعلماء حاکمة للأغلبية السلبية.

وعند انحدار الحضارة تظل الأقلية هي الحاكمة، ولكن هذه الأقلية تحكم بالقوة السياسية أو العسكرية، لا بقوة الإبداع والخلق. ويتفكك المجتمع وتتباعد الطبقات والأديان والأجناس.. فتجد هذه الأقلية أن وسيلتها الوحيدة في السيطرة هي ربط المجتمع بالقوة.. ويرى المجتمع أنه يجب أن يتضامن مع مجتمعات أو شعوب أو دول أخرى، لعله يجد حلا واحدا لمشاكله ومشاكل هذه الشعوب.. أي أنه بعد أن عجز عن حل مشاكله هو، فإنه يتضامن مع شعوب أخرى لها مشاكل، لعل الشعوب معقدة ومختلفة. ولكن الشيء الوحيد الذي يجمع بينها هو الضعف والتفكك والانهيار.. وهذه الرغبة في الوحدة الشاملة ليست دليلا على القوة وإنما هي أكبر دليل على الضعف. ونحن هنا أمام أكذوبة شاملة. فكل شعب من شعوب هذه الحضارة المنهارة يعلم أنه ضعيف وأنه عاجز.. وهذه هي الحقيقة الوحيدة.

ولكن الوهم هو أن يتصور أن الشعوب الأخرى لديها الحل.. أو لا يكون الحل إلا بها ومعها.. والأكذوبة الثانية هي أن هذه الشعوب تتصور أنها معاً أقوى مما هي وحدها.. أى ضعف + ضعف = شعباً قوياً.. وهذا الكذب الشامل والخداع العام هو من أهم مظاهر الانحلال.. ثم يجيء الانحلال.

وكل محاولة لإنقاذ حضارة منحلة، هي محاولة فاشلة، ويجب أن تفشل لأنها يجب أن تموت ولا مفر من الموت.. وأبناء هذه الحضارة يعلمون تماماً أنهم بلغوا الدرك الأسفل من الانحطاط.. ولكنهم يغالطون ثم يصدقون أنفسهم.. يقول توينبى: إنهم كالذين يضعون نبیذاً جديداً فى أكواب أثرية.. هذه الأكواب لن تتحمل هذا النبىذ.. سوف ينساب النبىذ على الأرض.. فلا أبقينا النبىذ ولا أبقينا الأكواب الأثرية! أو بعبارة أخرى: كأننا وضعنا موتوراً جديداً فى عربة كارو.. إن هذا الموتور قادر على أن يفك، الأعواد الخشبية للعربة ويسقط أيضاً على أرض.. فلا بقيت العربة ولا فائدة من الموتور!

وقد درس المؤرخ العظيم توينبى تاريخ الإنسانية كلها. وكان اهتمامه أعظم بأسباب انهيار هذه الحضارة. ولم يكن من همه أن يؤكد أن كل الحضارات تنحدر، وأننا نشهد انهيار الحضارة الغربية، وأنه لذلك لا أمل فى إنقاذها فعلاً.. لا أمل ولكن لا بد أن تمر الحضارة بالمراحل الضرورية لأى كائن حى.. وسوف تتوالد فيها قوى الإبداع هذه القوى هى التى سوف تجر عربات التاريخ.. أما هذه القوة الإبداعية فهى النبىذ الجديد فى أكواب جديدة.. هذه الأكواب هى القادرة على أن تحفظ لنا النبىذ.. تماماً كتركيب موتور جديد لسيارة جديدة.. هو يحفظها وهى تحفظه أيضاً.

وقد غضب كثير من المؤرخين والساسة على هذا المؤرخ العظيم لأنه صارحهم وصدمهم ورأى ما لم يره أحد. فقال: إن الحضارة الأمريكية مهما علت فهى زائلة.. إنها ترتفع وتسحب جذورها معها إلى السماء، وسوف تحتلها الحضارة الغربية الحديثة. وقد استمعت إلى محاضرة لأرنولد توينبى فى مدينة سيدنى فى أستراليا سنة ١٩٥٩ ويومها قال لشعب أستراليا سياستكم خاطئة يجب أن تفتحوا الأبواب للشعوب الصفراء بالذوق.. وإلا دخلوا بالقوة! وكانت، ولا تزال، سياسة أستراليا بيضاء أى لا تسمح بدخول الشعوب الصفراء أو السوداء.. فقط للبيض. وعدد سكان أستراليا ١٢ مليوناً. بينما هى قارة تتسع لألف مليون نسمة.. وإلى الشمال منها تقع أندونيسيا؛ وعددها ١٥٠ مليوناً وشمالها تقع الهند وعددها ٩٠٠ مليون وإلى الشرق منها تقع الصين؛ وعددها أكثر من ألف مليون واليابان ١٥٠ مليوناً..

فكيف تبقى قارة أستراليا خالية من السكان والدول فوقها تضج من الزحام حول قليل من الطعام.

لا بد من أن يفتحوا الأبواب وإلا.. وقبل أن يكمل توينبى عبارته كانت الزوارق تجيء فى الليل أشباحا سوداء وينزل منها على الصخور جياح من الصين ومن الهند.. يدخلون ولا يخرجون.. بل إن أصحاب رءوس الأموال هم الذين استدرجوا هذه العمالة الرخيصة - حتى يكسبوا أكثر.. ودخلت الألوان الصفراء والسوداء وسوف تدخل بالذوق وبالقوة ويجشع أصحاب رءوس الأموال!

وكانت شجاعة توينبى عظيمة عندما أعلن بعد هزيمة مصر سنة ١٩٦٧ أنه حتى لو انتصرت إسرائيل فى كل الحروب على العرب فلا بقاء لها فى هذه المنطقة لا حياة لها.. سوف تتمزق من الداخل، إن هذه الحروب سوف تقضى على إسرائيل: فالحرب المستمرة ترهق الشعوب اليهودية فى إسرائيل وفى خارجها.. وهذه الحروب سوف تجعل العداوة العربية لإسرائيل أبدية.. وسوف يهرب يهود إسرائيل إلى خارجها لينعموا بالرفاهية التى ينعم بها اليهود الأمريكان. ثم إن المجتمع القائم على الحرب والاستعداد.. والتعبئة المستمرة كان له نظير فى التاريخ وهو مجتمع إسبرطه.. وكان مجتمعنا إغريقيا رجوليا عسكريا.. حتى المرأة كانوا يعدونها للقتال.. وكانت تدخل فى سباق مع الرجل وهى عارية تماما.. وكان هذا المجتمع يعرض أطفاله لعوامل الطبيعة فالطفل الذى لم يقتله البرد والحر هو الذى يعيش.. والذى يمرض يجب أن يموت.. حتى الرجال فى إسبرطة إذا عجزوا جنسيا أتوا لزوجاتهم بشباب أقوى ليمتع الزوجة ويحمى الأولاد.. وذهبت إسبرطة وسوف تذهب إسرائيل الا.. إذا استطاعت بالسلام والتوافق مع كل جيرانها.. ليعترفوا بها وتعترف بهم!

قال ذلك وإسرائيل قد اكتسحت كل الجبهات وفرضت علينا هزيمة عسكرية ونفسية واقتصادية واجتماعية وتاريخية وفرضت علينا الكفر السياسى لكل القيم الثورية والبطولية.. ولم يكن هذا رأى جديدا أو من وحى ساعتها. وإنما هذا رأى قد أعلنه فى كتابه «دراسة التاريخ» ١٠ - مجلدات - ألفها فى ٢٧ عاما.

قال مستنكرا ما تفعله إسرائيل بالشعب الفلسطينى.

من أبشع سخریات التاريخ التى تدل على الطبيعة الشريرة للإنسان أن اليهودى الجديد المتطرف الوطنى بسبب الفظائع التى ارتكبها النازيون ضده والتى ارتكبت ضده فى كل التاريخ؛ نجده قد انتقم من الشعب الفلسطينى. فهو

يرى أن فلسطين هي أرض أجداده. صحيح أن يهود إسرائيل لم يرتكبوا نفس الجرائم التي ارتكبتها النازي بوضعهم الفلسطينيين في معسكرات الاعتقال أو إحراقهم في غرف الغاز ولكن طردوهم من أرضهم، نزعوا أرض الأغلبية التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.. بعد أن زرعوها وحرثوها أجيالا عديدة. ثم جردوهم أيضا من كل ممتلكاتهم التي كان في استطاعتهم أن يأخذوها معهم. لقد حولوهم إلى لاجئين على أرضهم.

وقد أدى هذا الواقع الجديد إلى أن تغيرت أساليب حياة اليهود: انتقلوا إلى العمل اليدوي بدلا من العمل العقلي، وإلى الحياة في الريف، بدلا من سكنى المدن وإلى منتجين بدلا من سماسرة، وزراعيين بدلا من ممولين، إلى محاربين بدلا من بقالين، وإلى إرهابيين بدلا من شهداء.

والعرب أكثر كماً واليهود أفضل كيفاً.. والعرب أقل طاقة.. واليهود أكبر طاقة. ولا بد من التوافق ولا بد من التلاؤم والتوازن.. ولا بد أن يسود السلام. فبغير السلام لا حياة ليهود إسرائيل ولا إسرائيل نفسها - وهذا ما أعلنه توينبي ولم يشأ أن يغيره رغم الهجوم العنيف عليه من كل من المنظمات الصهيونية في بريطانيا وفي أمريكا. وللأستاذ عباس العقاد نظرية في ذلك. فأثناء الحرب العالمية الثانية كان يهاجم هتلر والنازية والفاشية والشيوعية بعنف - إنه ضد سلطان الفرد.. وضد النظريات الشمولية وضياح قيمة الإنسان وحريته..

وكان يقول: إن هتلر لا بد أن يهزم والديمقراطية لا بد أن تنتصر! أما نظريته فهي: أن الذي يرى هتلر يغزو الدول الأوربية واحدة بعد واحدة ويقول: إنه منتصر أو سوف ينتصر؛ فهو إنسان «ينظر» إلى الواقع ولكنه لا يفكر في الذي يراه. فإذا فكر فسوف يرى أن الطغيان نهايته معروفة. وأن الغرور والحق وامتهان الإنسان له نهاية واحدة: سقوط الدولة التي على رأسها هذا الفرد الطاغية.. تماما كالذي كان يرى المعسكر الديمقراطي يهدم ويتراجع فيقول إن الديمقراطية تنهار أمام النازية.. إنه هو أيضا «ينظر» ولا يرى.

أما الذي «يرى» فهو الذي لا يبهره ما ينظر إليه.. إنما هو الذي يقول: - رغم الانتصار الظاهري لهتلر - إنه لا بد أن يهزم.

فأكثر الناس على أيام العقاد ينظرون إلى قوات ألمانيا، ولا يرون الأسس الوحشية التي قامت عليها.. والتي تؤكد أنها لا بد أن تنهار وأن يهزم الألمان مهما استولوا على الأرض ومهما كانت الأسرى بمئات الألوف.

وكان من رأى العقاد أيضا فى قيام دولة إسرائيل أنها إذا لم تنصرف على أنها دولة، وأن جيرانها دول لها حقوق واجبة الاحترام، فلا بقاء لها.. ومادام المتهوسون دينيا وسياسيا يتصرفون على أنهم «عصابة دولية» فلا حياة لها إلا إذا مات هؤلاء المجانين أو اقتتل المجتمع الإسرائيلى جذورهم.. فإذا فعل فهذه هى الخطوة الأولى نحو السلام، فالسلام يبدأ من داخل إسرائيل وبعد ذلك من خارجها.

وقد صدقت نبوءة كل من توينبى والعقاد.. فالسلام بدأ يغزو إسرائيل من داخلها وقد كان نجاح السلام مع مصر أروع نموذج لما يفعله الحوار والتفاهم والتوافق وما سوف يفعله فى الشرق الأوسط.. ولا سلام فى الشرق الأوسط وبين إسرائيل وكل العرب مالم يجد الشعب الفلسطينى حقه على أرضه.. هذه هى قضية اليوم وبعد الغد أيضا.

وهناك نوعان من الحضارات:

الحضارة الآسرة والحضارة الأسيرة.. أو الحضارة السيدة والحضارة الخادمة.. أو الحضارة النامية والحضارة المبتسرة أو المجهضة..

مثلا: نجد على أطراف العواصم الكبرى قرى صغيرة هذه القرى بعيدة عن مركز النشاط التجارى والسياسى والاجتماعى فى العاصمة فهى أقل انفعالا وتفاعلا.. ولكن هذه القرى تستخدم كل أدوات الحياة الحديثة بينما تحتفظ بأساليبها القديمة فلا هى قديمة ولا هى حديثة.. مثلا قرى الجيزة القريبة من القاهرة فى كل بيت تلفزيون ملون فى زريبة.. وفيها الثلاجات فوق الأفران وفيها التليفون أيضا والسيارة أمام الباب.. ولكن الأطفال يستحمون فى المصارف والنساء يغسلن الحل والأطباق فى ماء البرك!

وفى دراسة للصحة العالمية عن الريف المصرى اعترف بعض الفلاحين بأن ماء الترع يقويهم جنسيا؟!

والخطأ فى هذا التفكير أن ماء الترع يحدث التهابا، فظنوا أن هذا الالتهاب والحرقان هو الحرارة والهيأج الجنسى!!

وفى القرى القريبة من الرياض عاصمة السعودية لاحظت أن المرأة البدوية تركب السيارة وتذهب إلى السوبر ماركت.. وتعود إلى بيتها الذى هو خيمة مصنوعة من شعر الإبل وعلى الخيمة يوجد إيريال تلفزيونى. فإذا جلست هذه

السيدة للطعام مع زوجها وأولادها فعلى الأرض. ولا ترابيزه ولا حتى طبلية
ويأكل الجميع بأصابعهم، ويمسحونها فى ملابسهم أو فى الخيمة.. وكل م
عدا ذلك من عادات فهى بدوية لا علاقة لها بالحضارة الغربية التى تسود حياة
أهل الرياض!!

وكذلك هناك حضارات «أسيرة» للحضارة الأمريكية.. وتقع على حدود أمريكا
وكندا.. مثل حضارة الإسكيمو.. هؤلاء الإسكيمو يعيشون فى صحارى جليدية..
وبيوتهم من جليد.. وملابسهم من جلود الحيوانات وعرباتهم تجرها الكلاب.. ولم
يفلحوا فى أن يذوبوا فى الحضارة الأمريكية، ولم يفلحوا فى أن يتغلبوا على
تحديات الصحارى الجليدية.. فكانت لهم عاداتهم وتقاليدهم ومحاولاتهم
المستمرة فى أن يتحرروا من الغرب، وأن يتغلبوا على الصحراء المتجمدة..
وهناك حضارات أخرى أسيرة فى أماكن مختلفة من العالم..

ولماذا التاريخ وما الفائدة؟

يقول المؤرخ توينبى: إن المؤرخ قد تلقى نداء من الله سبحانه وتعالى وقال
له: تعال.. ابحث عني تجدنى.. اكتشفنى!
فأله هو الذى يحرك التاريخ ويطوره فى كل مراحله.. والله قد وضع للتواريخ
قانونا.

والمؤرخ الذى وهبه الله هذه القدرة على الاستطلاع والتفهم والتحليل هو الذى
هداه إلى قوانين التاريخ الإبداعية والمتطورة.
والمؤرخ يرى ما لا يراه غيره.. ولكنه يحاول أن يوضح لنفسه ولغيره كل الذى
وجده، ويدفعنا جميعا إلى أن نسير وراءه ونفكر:

يقول: إن نابليون العظيم عندما نظر إلى الأهرام وقال: إن أربعة آلاف سنة تنظر
إليكم من فوق هذه الأهرامات، قد رأى بعبقريته ما لم يره مراد بك الذى حشر قواته
لمحاربة نابليون.. ومنذ تلك اللحظة عادت للحياة إحدى عشرة حضارة لم يكن
الغرب يعرف عنها الكثير: المصرية والبابلية والسومرية والمناوية والفينيقية
والهندية والصينية والمايا واليوكتان والمكسيكية والإنديزية!

ملحوظة: هناك طريقتان للإعجاب بهذا المؤرخ العظيم: أن تقرأ كتابه الضخم
«دراسة للتاريخ» فى عشرة أجزاء، أو تقرأ ملخصا لذلك فى مجلد واحد كتبه
الأستاذ سويرفيل: وضوح وجمال ومتعة مؤكدة!

شاعر الثورة الفرنسية: في زفافه الجنائزى!

هذا الشاعر أندريه سألوه وهو طفل:
ما الذى تريده عندما تكبر؟
فأجاب: أن أموت صغيراً!
وفى عيد ميلاده السادس عشر طلبوا إليه أن يلقي قصيدة من نظمه فأخرج
ورقة من جيبه وراح يقرأ:
لا أحسد النجوم اللامعة..
لا أحسد الشمس المشتعلة أبداً
إننى أحب أن أكون شهاباً
يلمع وهو يحترق.. ويحترق
لامعاً ساقطاً ميتاً شاباً!
هذا أملى.. ساعدونى أن
أموت نجماً فى السماء!
فاقترب أحد الأطباء وهمس فى أذن والدته:
لا ترفعى عينك عن هذا الشاب إنه يريد أن يموت.. سوف يعرض نفسه للخطر..
ويكون ذلك نوعاً من الانتحار.. بيد الغير لا بيده هو!
وكان ذلك هو التشخيص الصحيح لأعماق الشاعر الفرنسى أندريه شينيه
(١٧٦٢ - ١٧٩٤).. إنه أعظم شعراء فرنسا فى القرن الثامن عشر.. وفى شعره
نجوم وكواكب وشموس من المعانى والخيالات والهديان.. إنها نيران متفاوتة
الحرارة متقاربة اللهب.
كأنه أشعل النار فى ملابسه.. وراح يتهادى سعيداً بهذا الزفاف «الجنائزى».
كما وصفه الأديب شاتوبريان.

أبوه كان القنصل العام الفرنسى فى أسطنبول. وأمه يونانية.. وهى التى قرأت له الشعر الإغريقى القديم.. وهى التى فسرت له ما الذى يقصده الشاعر هوميروس. وشرحت له الفلسفة الإغريقية.. وهى التى ملأت أحلامه بالآلهة والأبطال.. وفى كل مرة يسألها عن أية حكاية.. تبادر الأم فترويها له.. ولكن بعد لحظات يطلب مز أمه أن تسمعها منه.. فإذا هو يروى الأسطورة بشكل آخر.. ويضيف إليها مز الأحداث والمعانى ما جعل الأم تقول له: لا تفعل ذلك.. أنت يجب أن ترويها كم هى.. هذه أمانة تاريخية!.. ولكن عندما تكتبها فافعل بها ما تشاء!

وفى إحدى الليالى قفزت الأم من سريرها على صراخ فى غرفة ولديها أندريه ومارى جوزيف - وكلاهما شاعر عظيم - فوجدت أندريه ملقى على الأرض.. بينما أخوه ينظر إليه من فوق السرير.. واعتذر لها أن أندريه فقط كان يعيد تمثيل بعض المشاهد من ملحمة الإلياذة.. وكان يؤديها باللغة الإغريقية القديمة!

وشعرت الأم بالقلق على ولدها أندريه.. وطلبت من والده أن يجد حلا لهذا الجنون المبكر.. واشترك عدد من القساوسة والحاخامات والمشايخ فى دراسة حال الشاب أندريه.. ولكن لم يجدوه مجنوناً وإنما هو شاعر يتحمس كثيراً جداً لكل ما ينظم من شعر.. ثم يؤديه بصورة مسرحية..

شئ واحد اندهش له الشاعر أندريه منذ طفولته، وهو كيف يشنق الممثل نفسه على المسرح ومع ذلك لا يموت.. فهل الممثل عندما يقوم بدور المحكوم عليه بالإعدام لا يموت فعلاً؟ كيف يمثل الموت؟ لابد أنهم يلفون حبلاً غير محكم حول عنق الممثل - كده وكده - ثم يسقط على الأرض - مع أنه لم يمت.. انشغل الشاعر بتطبيق هذه الفكرة.. فوضع عدداً من الكتل الخشبية تحت قدميه.. ثم لف حبلاً حول عنقه وتعلق الحبل من إحدى الأشجار.. وكان الحبل محكماً.. وتدحرجت الأخشاب من تحت قدميه.. فالتف الحبل بإحكام شديد حول عنقه.. ولم ينقذه فى آخر لحظة إلا أن الغصن قد انكسر عندما قفزت أمه تفك الحبل وهو بين الحياة والموت!

كيف تمكنت منه فكرة الموت مبكراً.. أو فكرة الانتحار؟

أن أندريه شينيه شديد الحساسية مرهف الوجدان.. كان مفتوناً بكل الشعراء الأوروبيين الذين ماتوا فى سن صغيرة مثل سن السيد المسيح عليه السلام - حول الثلاثين.. وكان يرى أن هذه هى سن الشعراء.. أما المؤرخون ففى الخمسين والفلاسفة فى الستين.. ورجال الدين فى السبعين - ويعد ذلك لا يصح للإنسان أن يعيش فخير للإنسان أن يموت عاقلاً من أن يعيش مجنوناً!

كان صعلوكا - أو أراد أن يظل كذلك.. لا يعمل.. ولا يهدأ. ولا يفكر فى البحث عن مكان يعيش فيه مستقلا عن والديه.. إنه يستطيع أن يكون منعزلا تماما حتى لو عاش فى بيت به ألف شخص.. فقد وهبه الله نعمة «السرحان».. أن يكون بين الناس ولا يشعر بهم.. أن ينظر إليهم ولا يراهم.. أن يسمعهم ولا يرد عليهم.. أن يصطدم بهم ولا يتوقف كأنه ارتطم بالجدران.

ولكن والدته أصرت على أن يعمل.. فوجدوا له عملا أقرب إلى النفى والطرء.. فعمل فى سفارة فرنسا فى لندن.. بعيدا ووسط مجتمع مختلف. منضبط. فالمجتمع الإنجليزى الذى امتدحه فلاسفة الثورة الفرنسية سوف يعيد إلى الابن الضال عقله.. وسوف يعيد إلى العقل هدوءه.. وإلى الهدوء أسرة صغيرة تتربع فيها فتاة جميلة.. ولا يهم أن تكون إنجليزية أو فرنسية.. المهم أن يجد الابن منطقا يعيش بمقتضاه.. وأحس أندريه أن الحياة فى لندن عذاب فى عذاب.. وأنه ظل طوال عمره القصير يبحث عن سبب قوى للهرب.. ثم وجده أخيرا.. وهو الآن يريد أن يهرب من لندن إلى فرنسا.. إلى باريس.

ولما قامت الثورة الفرنسية وجد السبب الأقوى لأن يشارك فى الزفاف الجديد: زفاف الحرية إلى المساواة إلى الأخوة إلى الحضارة.. فنظم شعرا يبارك الثورة.. بعث بالقصائد والأغنيات والتهنئات.. لقد أحس الشاعر أندريه شينيه أنه ولد للمرة الأولى.. وأن هذه الثورة هى الأم الحقيقية لكل فكر وفن.

وعاد إلى باريس.. وفى الشوارع والمظاهرات وجد نفسه على أكتاف الجماهير يصرخ ويغنى ويترنم ويهتف.. ولكن شيئا أفسد عليه هذه السعادة التاريخية: الدم والعنف والقسوة.

فهاجم الثورة الفرنسية! وامتدح الملك لويس السادس عشر الذى شنقوه هو وزوجته النمساوية ماري انطوانيت.. فقد كان الملك طيبا سخيا.. والذين أفسدوا صورته عند الناس: حاشيته وقبلهم جميعا: زوجته الأجنبية المسرفة المبدرة الطائشة.

وهى مسرفة فقد كانت معذبة فى حياتها.. فزوجها عاجز جنسيا.. حاول.. وحاول الأطباء معه ولكنه لم يفلح.. واتهمها الشعب الفرنسى بأنها عاقرة.. وقد نسب إليها الشعب الفرنسى أنها قالت فى مواجهة مظاهرات الشعب الذى لم يجد الخبز: بأن الشعب إذا لم يجد الخبز، فلماذا لا يأكل كعكا؟!

وقد ثبت تاريخيا أنها لم تقل هذه العبارة.. فهى شابة عاقلة ذكية كريمة

سخية بل إنها سفيهة فى توزيع ثروتها على الصديقات، وكل من طلب منه مساعدة مادية أو أدبية!

وغضب زعماء الثورة الفرنسية على أندريه شينيه.. فألقوا به فى سجن الباستيل خمسة شهور.. ثم أفرجوا عنه قبل يومين من إعدام روبسبير زعيم الثورة.. والذى انتهى بوفاته «زمن الرعب» - ولو أجلا إعدامه يومين أو ثلاث لعاش الشاعر، كما عاش أخوه عظيم الاحترام بين كل فئات الشعب الفرنسى! وعندما سحبوه إلى المشنقة لم يكن خائفاً، وإنما قال بهدوء أذهل الناس أخطأت فى الحساب.. أو أخطأ القدر.. فقد آمنت بأن الحب قدرى.. وأن الحب امرأة وأن امرأة هى التى سوف تغير مسار حياتى ومماتى.. لقد خاننى القدر.. لقد جاء وفى ذراعه مشنقة. وليست المرأة الجميلة التى كنت أحلم بها.. لا أعرف إن كان فى استطاعتى أن أستأنف حكم القدر فيما بعد.. فمعلوماتى عن الذى سوف يجرى بعد، قليلة جداً!

وقال عبارته الأخيرة: اشنقونى واشنقوا قدرى معى.. تعيش فرنسا حرة إلى الأبد

وفى العام الماضى ذهبت مع المليونير المصرى النمساوى فوزى متولى أتفرج على المسرح العائم الذى أقامه على بحيرة صناعية فى فرساي. وفوزى متولى هو الذى أنتج لنا «أوبرا عايدة» فى الأقصر.. أروع عرض وأعظم حدث فى القرن العشرين (وعلى فكرة لا تزال أدوات مسرح أوبرا عايدة محجوزاً عليها فى جمر ك الإسكندرية!!).

وعلى هذا المسرح سوف تظهر أوبرا «أندريه شينيه» من تأليف الشاعر الإيطالى لويجى اليكا ومن موسيقى وألحان الموسيقار الإيطالى أوبرتوجورانو.. وقد ظهرت لأول مرة على مسرح لاسكالا فى مدينة ميلانو يوم ٢٨ مارس سنة ١٨٩٦.

وليس الشاعر الإيطالى اليكا هو أول من كتب عن حياة هذا الشاعر الفرنسى البطل.. فكثير من أدباء فرنسا قد فعل ذلك.. فشاتوبريان له رواية: اسمها «العبقريّة والمسيحية» ظهرت سنة ١٨٠٢.. والناقد العظيم سانت بيّف له رواية: اسمها «يوسف دى لروم» ظهرت سنة ١٨٢٩.. والشاعر الفردى فينى كتب «استيلو» سنة ١٨٣٢.. وغيرهم كثيرون فى الآداب العالمية.

ومن أعجب ما وجدت فى الأوراق التى تركتها الأديبة المصرية الشابة عنايات الزيات التى لم تكتب إلا رواية واحدة «ثلاث صفحات هى «مشروع»

رواية أو مسرحية عن هذا الشاعر الفرنسي.. وعن الشعراء الذين ماتوا فى مثل عمره: نوفالس ورامبو وشيللى وبيرون وتيك ولوتريامون؟!

هذه الأوبرا التى ظهرت بمناسبة مرور قرنين على الثورة الفرنسية من أربعة فصول. والفصل الأول: يستعدون لعشاء ضخم. الخدم يعدون المقاعد والمناضد.. والفتى جيرار أبوه خادم عجوز فى هذا القصر فيتحدث إلى المقاعد الوثيرة وكم جلس عليها، وسوف يجلس من الناس التافهين والطفيليين.. وهو يحب ابنه صاحب القصر سرا.. ولا يقوى طبعاً على أن يجاهر بذلك.. عندما يدخل الشاعر أندريه.. وتلتف إليه مادلين فتاة القصر.. وتطلب منه أن يسمعها شعراً فيقول: رغباتك أوامر مقدسة يا سيدتى.. لولا أن الخيال لا يجىء بالأمر.. ولا حتى بالدعاء والصلاة.. فالشعر كالحب يا سيدتى: نزوة!

وهنا يقف جيرار ابن الخادم العجوز ويعلن بكل قوة: أقدم لكم سيداتى وساداتى أصحاب السعادة والفخامة: الفقراء!

ويفتح الباب ليدخل الفقراء والصعاليك والعاطلون والساخطون والمتظاهرون من كل شكل ولون وزى.

وأصوات تتعالى فى كل مكان تقول:

ليلاً ونهاراً نحمل التعاسة معنا فى كل مكان.. نحن الأشقياء الفقراء الموتى جوعاً.. المرضى الساقطون على أرض جرداء!

وفى الفصل الثانى يقول الشاعر أندريه شينيه: هل تؤمن بالقدر؟..

أنا أؤمن بالقدر.. أؤمن به يبارك خطواتنا.. وأحياناً نضل، وأحياناً نهتدى عبر العلاقات الإنسانية.

ولكن القدر يستوقفك فى أول الطريق أو فى منتصفه ويهمس فى أذنك: اذهب.. فأنت شاعر.. ومادمت شاعراً فسوف يكون الحب هو رسولى إليك.. والحب معناه امرأة.. إذن قدرى امرأة.. وما لم تظهر امرأة فى حياتى فى أى وقت، فلن أفعل شيئاً.. فعندها كلمة السر.. ومفتاح الطريق.. والطريق.

وكان الشاعر أندريه شينيه يتلقى خطابات من مجهولة.. هذه المجهولة هى مادلين التى تحبه.. ويحبها جيرار.. ويعلن جيرار أنه سوف ينتقم من الشاعر ويحاول أن يهدد مادلين ويهدد الشاعر.. فجيرار أصبح بطلاً شعبياً.. والجماهير تهتف بحياة جيرار.. جيرار جيرار يحيا جيرار.

وفى الفصل الثالث تتحدث مادلين عن الحب والحرية والثورة.. وأنها تفضل أن

تموت من أجل الحب.. فالجلاد لن يأخذ إلا جسدها.. أما روحها فهي مع القدر.. والقدر مع حبيبها. فالحب هو القدر. والحبيب هو القدر. وتقول: أنا التي سوف أجفف الدموع.. أنا التي سوف أهبك الحياة الأبدية.. جسدى جسد امرأة. والجسد سوف يموت والذكرى لن تموت.. بل إننى ميتة الآن.. لأننى أردت أن أموت.. فموتى حياة لى مع حبيبى بعد ذلك.. فمن لا حبيب له لن يموت.. ومن مات مع حبيبته فقد عاش الاثنان معا أبدا. ويحكم القاضى على أندريه شينيه بالإعدام لأنه خائن للثورة ورسالتها النبيلة. ويصرخ الشاعر: لقد واجهت الموت والشرف فى الحرب.. والآن أواجه الموت والعار فى المحكمة منتهى الظلم. اقتلونى ولكن اتركوا لى شرفى! ويحاول جيرار أن ينقذ الشاعر؛ لأنه وعد محبوبته بذلك لعله يفوز بها. فقال للقاضى: التهمة الموجهة للشاعر كاذبة.

قال القاضى: ولكنك أنت الذى وجهت إليه هذه التهم جميعا.

يرد جيرار: غلطتى!

القاضى: انتهى!

جيرار: هذه وحشية!

القاضى: اسكت: إنه ضد الدولة!

جيرار: العدالة لها اسم آخر..

إنها الإرهاب: إنها طاحونة الكراهية والانتقام.. دم الشعب يجرى هنا.. نحن نطعن

فرنسا فى قلبها الذى يتغنى هذا الشاعر بحبها.. الشاعر هو ابن الثورة.. لا تقتلوه!

ال جماهير: اسكت.. أنت خائن. لقد رشوك! اشترك!

جيرار: لن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا.. فالشاعر سعيد وسوف يموت سعيدا.. إن

أحدًا لا يستطيع أن يشنق سعادته!

مادلين: وأنا أيضا سوف أراه ثانية.. هذا مؤكد يا قدرى!

وفى الفصل الرابع تتفق مادلين مع السجنان، مقابل مبلغ من المال، أن يضعها

فى القفص بدلا من سيدة مظلومة قدمت حفيدها شهيدا للثورة الفرنسية. فوافق.

وتقول له مادلين: عندما ينادون على هذه السيدة المسكينة سوف أتقدم أنا..

سعيدة بذلك.. فهي من حقها أن تعيش وأنا من واجبى أن أموت.. وقدرى أن أعيش

مع حبيبى بعد الموت.. إننى أبارك موتى!

ويدخل جيرار ويقول: سوف أتحدث إلى قائد الثورة لكى ينقذه.. إن شاعرا يرى

أن موته ليس عذابا ولا انتقاما: إهانة للثورة.. ولذلك يجب أن يعيش فى حياته

عذاب له.. أما موته فهو قمة السعادة.. فإذا كان الموت لا يعذبه، فكيف نحكم عليه بالموت.. اتركوه يتعذب بيننا وينا.. اتركوه لنا.. فى حريته منتهى العذاب.. وفى حياته منتهى الهوان.. اتركوه.

والفصل الرابع هو أروع لحظات الأوبرا كلها.. إنها زفة جنازية أن ترى الشاعر ومحبوته سعيدين به بهذه النهاية.. بالسير معا.. بالموت معا.. باللقاء بعد الموت.. فالحب أقوى من الموت.

تقول له مادلين: أنت حبيبى.. أنت قدرى.. أنت أعمق أعماقى.. أنت نور النور.. أنت حياة الحياة.. فى عينيك كل النور.. وفى نورك كل السحر.. فى موجات عينيك الخضراوين تسبح روحى المعذبة.

إننى هنا حتى لا أتركك يا حبيبى.. إننى معك.. إننى حضنك.. أنت حضنى.. لا أقول وداعا.. بل إلى اللقاء وراء الورا.. كما عشت فى عينيك، سوف أموت فى عينيك.. انتهى العذاب.. إننى أبحث باسم الحب عن النهاية.. وهذه هى النهاية.. والنهاية هى الموت حبا، والحب موتا.. وآخر من يسمع كلماتى: وآخر كلماتى: أحبك..

الشاعر: أنت وجودى..

وجودنا هو الحب.. حب الروح للروح! مادلين: لقد أنقذت أمّا كان من حقها أن تعيش.. فعند الفجر سوف ينادون عليها.. فأتقدم أنا بدلا منها.. هذا قرارى وتدبيرى.. قدرى قدرك.. تعيش هى وأموت أنا.. قبلنى يا حبيبى.. قبلنى قبلة الموت الذى هو حياة بعد ذلك! الشاعر: يا كبرياء الجمال.. يا انتصار الروح.. حبك هو البحر.. هو السماء.. هو نور الشمس.. والنجوم.. وكل هذا الكون.

مادلين: حبيبى..

الشاعر: حبيبتى.. موتنا هو انتصار الحب!

مادلين: نعم موتنا انتصار الحب!

الشاعر: تعالى يا قدرى!

تعالى يا قدرى!

الشاعر: أبارك قدرى!

مادلين: حين نموت نغوص فى الأبدية.

هى وهو: قلبى! قلبى! الحب الأبدى.. الحب إلى الأبد.. يحيا الموت معا!

ومما قاله الشاعر الفرنسي أندريه شينيه فى آخر ديوان له عن الحب
والموت:

من قال لك قبلى:
إنى أحبك؟!
ألوف يا حبيبتى! يسعدنى!
من قال لك قبلى:
أنت قدرى؟ - ألوف ويسعدنى!
ولكن من قال لك: أنت
نهايتى.. أنت موتى.. أنت
أبديتى؟.. أنا يا حبيبى!
فأسعدينى بموتك معى.
لا تنطقى يا حبيبى.. اتركها
لتموت على شفتى وشفتيك لى
نقولها معا يا حبيبى!
وقال الشاعر أندريه شينيه عن الحب والموت والثورة والبطولة:
أن أموت ليس حدثا
أن أعيش ليس خبرا
ولكن موتى من أجل الحرية
هذا هو الخبر.
وموتى من أجل الحب
هذا هو الخبر القدر..
فلغير الحب لا موت،
وبغير الحب لا حياة
فمن يدعونى إلى جنازة
الحب التى هى زفاف
القدر..
لا أحد! فأنا أدعو نفسى
لأمشى فى جنازة قلبى
زفافى ولمحبوبتى
إلى مثوانا الأبدى!

جان كوكتو:

نسر له رأسان!

لو كنت صانعا للتماثيل لطلبت إليك أن تأتي بقطعة من الصلصال وتجعلها على شكل نسر.

والنسر له رأسان أحدهما رأس إنسان.. وله قدمان، إحداهما قدم إنسان، وله عينان إحداهما عين إنسان.. وله قلبان، أحدهما قلب إنسان.. أما الأصوات فلا شأن لك بها: إن هذا الكائن الغريب سوف يطلق أصواتا موسيقية.. فكل ما يقول: شعر فى شعر.. النثر شعر، والشعر موسيقى، والموسيقى ملاحم ويوم ضبطته إحدى قريباته يبكى اندهشت كيف أنه أتى بلوح من الصفيح لينزل عليه دموعه.. ثم أتى بكوب من الماء وجعل لقطراته وقعا منتظما.. إنه فى سن صغيرة، حاول أن يكون لكل شيء إيقاع.. أن يكون كل صوت موسيقى. وكل موسيقى شعرا.. إن كانت هذه الصورة واضحة عندك، أو ليست واضحة فهذا هو الشاعر الممثل الموسيقار الراقص الرسام الفرنسى: جان كوكتو!

ولد فى أسرة غنية جداً. فهو يجد كل شيء فى بيته وفى يديه. قال عن نفسه: ولدت ملكاً بغير تاج، فقررت أن أضع تيجانا أخرى على رأسى! عندما سألوه فى إحدى الحفلات المدرسية: ما الذى تريد أن تكون عندما تكبر؟ قال بسرعة: أن أكون فقيراً!

وفى مناسبة أخرى قال: ليس طبيعياً أن يكون الإنسان غنياً.. الطبيعى أن يكون فقيراً: فالفنان لا يكون غنياً؛ لأنه لو كان غنياً لأصبح مفلساً فى المعانى والصور الشعرية.. فالفن والعذاب توأم والشعر والفقر توأم.. والإنسان لا يضع على رأسه إلا تاجاً واحداً تاج الشعر وشوك الفقراء!

وفى سن صغيرة كان يحب أن ينام وحده. وفى إحدى المرات قلقت عليه والدته. فذهبت إليه وعندما دخلت إلى جواره فى السرير صرخت وأغمى عليها.. فقد وجدت ثعباناً تكوم إلى جواره!

فهو الذى أتى بالثعبان حتى لا ينام أحد فى فراشه!
وفى أحد الأعياد رجعت الأسرة إلى البيت، فلم يجدوا أحدا فى البيت.. وأهم من ذلك أن الطعام الفخم والضخم الذى كان من الضرورى إعداده فى ذلك اليوم ليس له أثر ولا رائحة.. لم تجد الأسرة أحداً تسأله: أين الخدم والطهاة؟
وأخيراً أدركوا أن جان كوكتو لا بد أن يكون قد ارتكب حماقة.. أو لا بد أن يكون هو السبب فى اختفاء الجميع.. وراحوا يدقون كل أبواب الغرف.. وفى غرفة فوق السطوح وجدوا جان كوكتو قد حبس تسعة من الخدم وثلاثة من الطهاة يقرأ عليهم ديوانه الجديد!

شئ غريب جعل هذا الشاب الصغير يهوى كل الفنون.. فهو أول من اخترع فكرة الرقص على حبل.. الحبل لصقه على الأرض ويحاول أن يرقص فوقه دون أن تمس قدماه الأرض.. فهو صاحب نظرية التوازن على الحبل.. فالراقص الممتاز هو الذى إذا رقص على حبل، لا يمس الأرض.. ويمكنه أن يواصل الرقص إذا ارتفع الحبل من فوق الأرض وظل معلقا فى الهواء.. فرقص الباليه هو التوازن والانسجام فوق أضيق مساحة من الأرض!

فى سن صغيرة جدا تأكد لدى الأسرة أن هذا الشاب ولد شاعرا. فأول ما أبدع كان شعرا، وآخر ما أبدع كان شعرا. وعندما علم بوفاة حبيبته «مطربة فرنسا الأولى: أدith بياف» قال:

«إن أصابعى حفظت وجهك عن ظهر قلب..»

.. آه لو كان قلبى فى أصابعى أيضا..

آه لو كان وجهى فى وجهك..

آه لو..

ولم يكملها.. لقد مات!

فى الحرب العالمية الأولى كان يعمل سائقا لإحدى عربات الإسعاف.
وبعد ذلك كتب يقول: تعذبت مرتين فى الحرب.. بالحرب نفسها، وبصدمات المرضى فى سيارة الإسعاف ويعجزى عن أن أفعل شيئا.. وقد أصيب بالصمم المؤقت.. وله تفسير فى ذلك: أن الرؤية إرادة.. والسمع إرادة.. فإذا أراد الإنسان أن يرى أقوى استطاع، وألا يسمع شيئا استطاع.. وهذا هو سر عظمة علماء اليوجا الذين يتحكمون فى مداخل الإحساسات كلها.. فالإحساس إرادة والحياة إرادة.. والموت إرادة.. أعود إلى أن جان كوكتو نسر له رأسان.. أحدهما رأس إنسان..

يقول كوكتو: صدقنى أننى لا أعرف فى كثير من الأحيان إن كان الذى أحمله على كتفى هو رأس طائر جارج أو إنسان مسكين.. فأحياناً أرى الصورة البشعة للعذاب الإنسانى وأجدنى أبكى عليها.. فأنا الذى خلقت صور المذابح والدماء والقتل والعذاب، وأنا الذى أنزوى أبكى على عذاب وهوان الإنسان.. وأتساءل: إذا كنت أبكى لذلك، فلماذا استدعيت هذه الصورة.. وإذا كنت أكره العذاب فلماذا أجعله غذاء ضروريا لوجدانى كل يوم..

يقول كوكتو: وأنا فى العشرين رسمت وجها لفتاة جميلة.. نصف الوجه ملئ والنصف الثانى شاحب.. والنصف الشاحب به عين كبيرة.. وهذه العين تذوب دمعا.. أريد أن أقول إن الدمع ظل ينزف حتى أصبح الوجه جلدا على عظم.. ولاحظت أن العين التى تبكى ضاحكة والعين التى لا تبكى حزينة.. فما المعنى؟ المعنى أن عينا تبكى على أخرى.. وأن العين الباكية سعيدة لأن البكاء يريح، ولأنها رأت تعاطفا معها من عين أخرى.. السؤال دائما هو: أين أنا؟ أنا الباكي السعيد؟ أو أنا الحزين الذى لا يبكى؟ أنا الاثنان معا!

لقد انشغل الأديب الفرنسى جان كوكتو بتعاسة الإنسان.. فقد رأى الحرب العالمية الأولى وعاش ويلات الحرب العالمية الثانية. ووجد أن الإنسان يزداد تعاسة.. وأن القلب الإنسانى ينفطر على نفسه.. وأن العقل خادم خائن. إنه يطور الخدمات للإنسان ويدعى - كاذبا - أنه لا يقاضيه أجرا.. والحقيقة أنه يقاضيه وأنه يقبض مقدما من سعادة الإنسان.. فالإنسان هو الحيوان الذى يتقدم نحو الشقاء بخطى ثابتة.. وأن المؤامرة التى يرتكبها الإنسان هى أنه بعقله يذبح قلبه.. إنه بمنقار النسرىفقا عينى الإنسان.. إنه بمنقار النسرىمزق لسان الإنسان.. إن الإغريق عندما صوروا العذاب اختاروا «برومثيوس» وربطوه بالسلاسل وأتوا بنسر ينقر قلبه ويأكله.. وكلما أكله ظهر له قلب جديد، ليأكله النسر إلى الأبد.

يقول كوكتو: الصورة صحيحة. ولكن لابد من إدخال تعديل طفيف عليها.. صحيح أننا أمام إنسان ونسر.. ولكن التعديل هو أن الإنسان هو نفسه النسر.. وأن لهما قلبا واحدا ومنقارا واحدا.. وأن النسر هو الذى يأكل قلب الإنسان.. فالنسر ينهش قلبه هو ويبكى من الألم.. ويبكى لأن حياته هى أن يشرب دمه هو! وكان من عادة خادمة كوكتو أن تضع فى غرفته أكثر من سرير وكنبة.. ولا

أحد يعرف على أى منها سوف ينام.. والحقيقة أنه ينام عليها جميعا.. يقفز من هذا السرير إلى ذلك فقد كان شديد القلق قليل النوم..

وكان يحسد كاتب القصص الدانماركى هانز كريستان أندرسن.. فقد كان أندرسن هذا ضعيفا جدا نحىلا جدا.. ويندهش الناس إذا رأوه.. ويخيل إليهم أنه لابد أن يموت عند نهاية الطريق.. أى طريق.. فهو إذا مشى تساقط، وإذا جلس نام وإذا نام لم يتحرك صدره.. وكان من عادة هذا الأديب الدانماركى أن يكتب ورقة إلى جوار فراشه تقول: لست ميتا ولكنى أبدو كذلك!

فقد حدث أن جاءت صاحبة البيت الذى يسكنه أندرسن ومعها الطعام.. ولما نادته لم يرد.. فراحته واستدعت القسيس.. وهزه القسيس فوجده حيا ولذلك كان يكتب لصاحبة البيت هذه الورقة، حتى تضع الطعام إلى جوار فراشه وتتركه.. فلم يكن فى استطاعة كوكتو أن ينام مثل هذا النوم العميق.. وكان هو الآخر يكتب ورقة على الباب تقول: لم أهرب من الغرفة ولكنى موجود هنا..

ويفتحون باب الغرفة يبحثون عنه فوق الأسرة.. وأخيرا يجدونه نائما تحت واحد منها فى داخل صندوق أو تابوت.. إنه لم يمت، ولكنه يجد متعة فى أن يشعر بذلك..! هو الشاعر الراقص الممثل الموسيقار الرسام العاشق ابن الذوات. كان يقول إن كل فنان له أداة واحدة للتعبير: الكلمة أو الخط أو النغمة أو الذراعان أو الساقان.. ولكنى أعبر بها جميعا..!

ولذلك ظهر على المسرح يرقص ويغنى مسرحياته الشعرية.. ورقصات الباليه التى صممها وألف لها الموسيقى سترافنسكى ورسم لها الديكور بيكاسو!

وكان إذا ظهر على المسرح ليقوم ببروفات مسرحياته ورقصات الباليه التى صممها يضع على مقعد فى الصف الأمامى صورة له.. لأنه يرقص ويغنى وينظم ويرسم لنفسه أولا.. وللناس بعد ذلك.. فكان يحب أن يرى نفسه وهو يعبر بكل جوارحه عن المعانى الحائرة فى أعماقه.. وكلها لها مذاق واحد: عذاب الإنسان أمام الحقيقة الكبرى التى يجهلها!

كان جان كوكتو يحب الشبان ذوى المواهب وكان يقدمهم وينتقل بهم من مكان إلى مكان.. ويدعو الناس إلى سماعهم وكان يخطب قائلا: أيها الناس ما أسعدكم.. أنتم الآن تشاهدون لحظة مقدسة.. فى عيونكم تولد موهبة جديدة.. إنها لحظة مباركة.. لحظة تقوم فيها السماء بشفاء الأرض من أمراض الإنسان!

فقد تبنى الشاعر الشاب راديجيه.. كان صغيراً وكان شعره مثله صغير المعانى قريب الصور.. ولكن كان يتألق كأنه قمر استوائى على بحيرة سويسرية.. القمر كبير والبحيرة هادئة.. وفى إحدى الليالى أصيب الشاعر راديجيه بالحمى.. وفجأة مات فى العشرينيات من عمره.. وحزن كوكتو وأقام سرادقا لا يتلقى فيه العزاء.. وإنما أغلقه على نفسه ومد يده اليسرى إلى يده اليمنى.. يعزيها فى أحب الناس إليه.. وضاق كوكتو بالدنيا وبالناس.. وعرف الأفيون.. تعاطاه.. أدمنه.. أدخل نفسه المستشفى.. ليعالجه الأطباء.. ثم أصدر كتابا عن تجربته فى تعاطى الأفيون.. تماما كما فعل من قبله الشاعر بودلير.

ولما سأله: كيف وأنت قد أدمنت الأفيون استطعت أن تنتشل نفسك؟
أجاب: إننى إنسان ونسر فالإنسان أدمن والنسر حملنى عاليا فى السماء.. وفى السماء قالوا لى: يجب أن تعيش فكلمتك لم تقلها بعد.. اهبط إلى الأرض فأنت نبي الشعراء..

وتوالت دواوينه الشعرية: مصباح علاء الدين ورقصة سوفوكليس ورأس الرجاء الصالح ووردة فرنسوا وغامض وواضح.. ورواياته: الأطفال المرعبون والآباء المرعبون وشبح مارسيليا ونهاية الهند.. والمسرحيات: أورفيوس وأنتيجونه والصوت الإنسانى والآلة الجهنمية وفرسان المائدة المستديرة.. والآلة الكاتبة والنسر له رأسان وباخوس.. وغيرها..

وكان حبه العميق للمطربة الشعبية أدith بياف صاحبة أقوى صوت عرفه الغناء الفرنسى.. ويقال العالمى أيضا.. وهى ضئيلة الحجم.. قصيرة.. رأسها كبير ووجهها مستدير..

يصفها كوكتو فيقول: ذلك الكائن الصغير.. أصابعها كل واحد منها يشبه البورص.. أما وجهها المستدير فهو قمر انطفأ.. أما عيناها ففيهما لمعان وضوء غريب.. إنه يشبه واحدا أعمى ارتد إليه البصر فجأة.. أما حاجباها فيشبهان حاجبى نابليون.. إنها كاهنة الحب، راهبة العشق.. إنها آكلة قلوب البشر بموافقة البشر.. لا أحد يعرف بالضبط ما هى الحكمة الإلهية من خلق هذه الإنسانية الصغيرة: لا بد أن السماء شاءت أن تجعلها معجزة.. فصوتها أقوى منها ألوف المرات، حتى يخيّل لمن يسمعها أن وراءها طابور من المطربات يعطينها الصوت والصدى والقوة.. ويخيّل إليك أن قلبها فى شفتيها.. وأنها لا تستخدم الهواء وسيلة لنقل بكائها إلى الناس.. إنها تبكى مباشرة فى كل قلب.. كان يحدثها كل يوم..

وفى السنوات الأخيرة كان يحدثها عن الموت.. موته هو أولا.. وموتها بعد ذلك كان يقول: سوف أموت قبلك.. فانتظرى بعض الوقت.. وأنت حرة فى أن تلحقى بى، إذا لم تكونى مشغولة فى البروفات أو فى الحفلات العامة أو الزواج من شاب جديد! وكانت تقول له: بل سوف أموت أنا أولا.. فاستعد من الآن لإلقاء أجمل قصيدة.. يجب أن تقف أمام إحدى لوحاتى.. اطلب إلى بيكاسو أن يرسمها من الآن.. واطلب إلى سترافنسكى أن يؤلف الموسيقى.. أرجو ألا تكون لوحة بيكاسو شبيهة بى.. فأنا لا أعرف لى شبيها.. وأن تكون الموسيقى مرحة.. فأنا قد أخذت الكثير من الدنيا وأسعدت الناس.. وأنا سعيدة لذلك.. ولا تجعل قصيدتك طويلة، فأنا أتعجل رحيلك إلى العالم الآخر.. لنكون معا أكثر حرية وأكثر انطلاقا.. ولعلنا نعرف الحكمة وراء كل ذلك.. أنت لا تعرف ولن تعرف.. أما أنا فقد عرفت: سوف أغنى للأبدية.. وسوف يسعد الملائكة بذلك.. صدقنى.. أنا على يقين من ذلك.. كما أنتنى على يقين من موتى.. وموتك بعدى!

قال كوكتو: إذا ماتت أدith بياف، فسوف يموت نصفى.. بل ثلاثة أرباعى.. بل أنا جزء منها.. وموتها موت لى..

وماتت أدith بياف يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩٦٣. ماتت فى ضواحي باريس وكانت قد أوصت أنها إذا ماتت أن يدفنوها فى باريس.. فهى ابنة الأرصفة والشوارع الباريسية.. ولذلك كتبوا على قبرها أنها ماتت فى باريس..

وفى حديث تليفونى من إذاعة باريس مع الأديب كوكتو يطلبون إليه أن يقول كلمة عن صديقة العمر: أدith بياف.. فوعدهم كوكتو فلما ذهبوا إليه وجدوه قد مات! وسارت باريس كلها وعشاق من العواصم الأخرى فى جنازة مطربة الأرصفة: أدith بياف.. ولم يمش فى جنازة كوكتو إلا خادمه وفى يده عشرة من الكلاب.. وعلى كتفه نسر صغير.. ولوحة رسمها الفنان لنفسه.. وتعلقت من العربة التى تحمل نعشه صورة لأدith بياف!

وعندما جاء جان كوكتو إلى مصر.. ذهب إلى الأهرامات.. وإلى الأقصر.. وتسكع فى خان الخليلى وتصعك فى مدينة قنا، كما فعل الأديب الفرنسى فلوبير قبل مائة عام. وعاد إلى بلاده فكتب مقالا عن مصر عنيفا.. أغاظنا جميعا. ولم نتعب من شتيمته وتعبيره بأنه شاذ جنسيا كما كان فلوبير أيضا.. وبأنه وبأنه.. قال كوكتو: تسألوننى عن المصريين؟ كما أن أهم معالم بلادهم الأهرامات الثلاثة.. فأهم معالم حياتهم كلمات ثلاث أيضا: معلش.. حشيش.. بقشيش!!!

شارلى شابلك:

مصرصار يطارده برغوث!

شارلى شابلكن أبوه من أصل فرنسى وأمه غجرية.. ولذلك فقد اعتاد على الزعيق فى البيت، وعلى التنقل من شارع إلى مدينة إلى قارة.. وعلى الطرد من مسرح إلى مسرح.. فى يوم صبحا من النوم على خناقة من طرف واحد فقد وجد أمه تقول: المحامى قال.. المحامى هو الذى قال بعظمة لسانه.. وهل أعرف أحسن من المحامى.. وهذه هى النتيجة..!

فقد ذهبت أمه إلى المحكمة تطالب والده بالنفقة ولكنه لم يشأ أن يدفع.. فكل أمواله ضائعة على الخمر.. وقد قضت عليه، وعلى فنانين ممتازين أيضا.. وكانت أمه تصف والده بأنه يشبه نابليون: عقلية جبارة وغرور لا حد له.. وفقر وخطرة..!

أما أمه فكانت تغنى فى النوادى الليلية وكان صوتها جميلا.. وكان شارلى شابلكن يعيب على أمه أنها تضع كل قوتها فى المقاطع الأولى من الأغنية حتى إذا وصلت إلى نهايتها كانت مرهقة متلاحقة الأنفاس.. وفى يوم فقدت أمه صوتها.. وراح الجمهور يرميها بقشر البرتقال والبطاطس.. وأنزلوها من المسرح وهى تبكى.. وكان من عادة أمه أن تأخذه إلى المسرح حتى لا تتركه وحده فى البيت.. وكان يقف بين الكواليس يقلد أمه.. وهى تتلوى وتتثنى.. وقد قام صاحب الفرقة المسرحية بتجربة جريئة.. فقد دفع الطفل شارلى شابلكن إلى المسرح يغنى ويقلد والدته.. والناس يضحكون ويرمونهم بالفلوس.. وكان يترك الغناء وينحنى على الفلوس يجمعها والناس يضحكون أكثر.. وحتى يستمر الطفل فى الغناء ظهر على المسرح صاحب الفرقة يجمع الفلوس.. فما كان من الطفل إلا أن أمسك فى ملابسه ولم يتركه إلا بعد أن تأكد أنه أعطى الفلوس إلى أمه.. ثم عاد إلى الغناء والناس يضحكون..!

لقد ولد الفنان شارلى شابلكن ذلك الطفل الصغير الحجم الشاحب النحيف على جثة أمه التى اعتزلت الغناء!

ثم أخذوا يؤلفون له المواقف المضحكة.. فكان يظهر مع شباب آخر فيقول له الشاب: عاوز إيه؟

فيرد: ش. ش. فيقول: كباية ميه؟

- ليه؟

- علشان استحم!

ويعود يسأله: نمت امبارح؟

- أبدا!

- ليه؟

- حلمت أن برغوث بيجرى ورايا!

ويضحك الناس ويلقون عليه بالفلوس..

وكانت أمه تقول له: إن شاء الله سوف تتسول مثل والدك.. وإن شاء الله سوف تصاب بالروماتيزم فى مفاصلك مثل جدك.. فقد كان ينام فى الأماكن الرطبة هرباً من البوليس.

وقبل أن يولد كانت لأمه مغامرات فقد هربت مع أحد اللوردات إلى إفريقيا.. وعاشت فى القصور الفخمة.. وكان لها خدم وكانت لها عربات تجرها الفيلة.. ثم عادت إلى بريطانيا لتلد أخاه الأكبر سيدنى.. وكانت تقول: عندما يصل سيدنى إلى سن الرشد فسوف يرث مالا كثيرا من والده.

وبعد سنة واحدة من ولادته هو انفصلت أمه عن أبيه وبدأ العذاب الحقيقى الذى هز كيان شارلى شابلن: الوحدة والجوع والبرودة والحرمان والعذاب والهوان والفشل والفشل والفشل.. وانتقلوا من شقة لها ثلاث غرف إلى شقة بغرفتين إلى غرفة واحدة.. إلى نصف غرفة مع أسرة أخرى.

واتجهت أمه إلى قراءة الكتاب المقدس والبكاء طويلا وهى تتحدث عن عذاب السيد المسيح.. الذى عاش يعانى نفس ويلات البشر.. وكانت توظف ابنها لكى تقرأ له آيات من الإنجيل، وليبكى الاثنان معا..!

وفى مرة تشاجرت مع صاحبة البيت فإذا بها تقول: عاوزة إيه يا ست زفتة الطين انت؟

وتقول صاحبة البيت: هل كلمة زفتة الطين تليق بسيدة مسيحية؟

وبسرعة ترد أمه: معك حق.. هناك كلمة أخرى فى سفر التثنية الإصحاح ٢٨

الآية ٣٧ هى أنسب صفة لحضرتك! «الكلمة هى أنها سيدة مهزأة»

وكانت أمه تقول له: اسمع يا بنى صحيح أنا من أصل غجرى.. وكنا نسرق ونخطف ولكن الأرض التى وضعنا عليها عرباتنا وبيوتنا الخشبية كنا ندفع عنها إيجارا للدولة. فنحن غجر شرفاء! أشرف كثيراً جداً من أصحاب القصور اللصوص وأصحاب البيوت الوحوش.. انظر هذه السيدة التى تريدك أن تغسل وتكنس لمجرد أننا عجزنا عن دفع إيجار أسبوع واحد! يا شارلى لا تنس قسوة الناس عندما تكبر.. لا تنس أن تضرب على خده الأيسر كل من ضربك على خدك الأيمن. ثم هى تضربه على خده الأيسر وبسرعة يقول لها شارلى الصغير: سوف أنسى أنك ضربتيني على خدى الأيسر..!

وكانت تضحك والدموع فى عينيها!
ومن النكت التى كان يؤديها شارلى شابلن: النكت التاريخية.
مثلاً: عندما دخل نابليون إحدى المكتبات أراد أن يمد يده إلى أحد الكتب.. ولكن الكتاب بعيد عن يده.. وهنا تقدم الجنرال ناى وكان طويل القامة يقول للإمبراطور: أنا أستطيع يا صاحب الجلالة.. فأنا أعلى..
فتضايق الإمبراطور وقال بسرعة: لست أعلى أنت أطول..
ويضحك الناس.

وفى التاسعة من عمره حاول أن يؤلف بعض النكت، فطلب إليه المدير أن يجرب حظه.. فظهر فى اليوم التالى يؤدى نفس النكت بعد تعديلها مع زميل له..
قال نابليون: لا أستطيع أن أصل إلى هذا الكتاب!
فاقترب الجنرال يقول: أنا أطول يداً..
فكان رد نابليون: كل اللصوص كذلك..
وكان من بين المتفرجين عدد من الفرنسيين فتضايقوا وخرجوا من المسرح..
وأمره صاحب الفرقة ألا يعود إلى مثل هذه النكت البايخة..
وسافر شارلى شابلن مع الفرقة إلى فرنسا.. إنه أعظم حدث فى حياته أن يعبر المانش وأن يرى فرنسا وأن يظهر على مسارح باريس..
يقول شارلى شابلن إن الرسام العظيم بيكاسو فى حياته مرحلة تعيسة اسمها: المرحلة الزرقاء.. أما هو فقد بدأت مع ولادته مرحلة اسمها المرحلة الرمادية..
مرحلة فى لون الضباب والهباب.. فى لون اليأس والفقر والبرد والجوع والطرء..
ونزول الستار قبل أن يكمل كلامه.

وعاد من فرنسا.. وكانت رحلة غامضة تركت أثرا عميقا فى نفسه.. ولكنه لا يعرف بالضبط ماذا حدث له.. فعندما سأله أحد زملائه عن الذى رآه فى فرنسا لم يعرف كيف يعبر عنه.. ولذلك اعتاد شارلى شابلن أن يتكلم بصوت عال قبل النوم.. وكانت أمه تتركه يقول.. فقد كانت تظن أنه يجرى بروفات.. وكان يتحدث أيضا أثناء النوم.. وكانت أمه تتركه يقول.. فقد أحزنها أن يكون ابنها هكذا صغير الحجم قليل الرزق عاجز الحيلة.

وفى يوم أراد أن يداعب أمه فقال لها: لا تغضبى.. سوف أكون الرجل الوحيد الذى لا ينحنى على أيدى النساء.. لماذا لأن فمى عند مستوى الأيدى.. ولكن سوف يجىء اليوم الذى تنحنى فيه النساء على يدى.. واحد عراف هندى قال لى ذلك.. ثم ترك عنوانه وتليفونه لكى أتذكره عندما أصبح عظيما.. وطلبت إليه أمه أن يؤدى هذه النكتة على المسرح.. ولكنه صرخ باكيا: ليست نكتة إنها حقيقية يا ماما!!

وسافر إلى نيويورك وكانت فرصة عظيمة وصدمة أعظم.. فكل النكات التى كان يضحك لها الإنجليز، لا يضحك لها الأمريكان! وقالوا له فى أمريكا: يجب أن تعرف الأمريكان أولا، لكى ت اخترع لهم النكت المناسبة..

وفى إحدى المرات ظهر على المسرح يواجه جمهورا ضخما وهو الشاب الضئيل الحجم الصغير السن. والذى ركب لنفسه شاريا واخترع لنفسه الزى المنفوخ المبهدل وأمسك بالعصا والقبعة التى فوقها.. وكان يقول: سألونى ما هو الفرق بين الأمريكى والإنجليزى فقلت: إن كل النكت التى يضحكون لها فى لندن ينامون عليها فى نيويورك.. والسبب هو أن الإنجليز عندما يصحون من نومهم، يتشاءب الأمريكان ليناموا.. يجب مراعاة فروق التوقيت..

وكان الأمريكان يضحكون لهذه المقدمة ولا يضحكون لبقية النكت. فكان يقدم هذه النكتة بصورة أخرى هكذا قائلا: لأننا بدأنا نعرف المزاج الأمريكى والذوق الأمريكى.. فبدلا من أن نؤدى لكم بعض النكت التى يضحك لها الإنجليز ولا نجد فيها سببا وجيها لإضحاكم.. فقد قررنا بالإجماع «ويشير إلى زميله» ألا نحكى النكت.. وإنما نضحك بالنيابة عن الإنجليز.. هاهـ.. هاهـ.. هاهـ.. ثم لا يؤديان النكتة» والأمريكان يضحكون جدا.

وانتقل ش. ش. إلى الساحل الغربى من أمريكا وعرف هوليوود ورأى الكواكب والنجوم وأصحاب الملايين.. وتحول ش. ش. إلى مؤلف وإلى مساعد مخرج وإلى مخرج.. وقدم للسينما الصامتة مئات المشاهد السينمائية القصيرة وكان يعتمد على الحركة البليغة «الخاطفة» وكان الناس يضحكون لقد استقرت شخصية ش. ش. فهو ذلك البلهوان القصير القامة المنفوخ القبة.. الميكانيكى الحركة المرتعش الشارب الغليظ الحاجبين.. وهو أول من اتخذ لنفسه حركة الإنسان الآلى قبل اختراع الإنسان الآلى.. وكانت له فلسفة. إن الإنسان أصبح هو الآخر آلة.. اخترع الآلة ثم خر ساجدا للآلة.. عبداً ذليلاً.. أراد الآلة خادماً له، فاستعبده الآلة! ومن هذا المعنى ولدت كل أفكاره الفلسفية الحزينة وهى أن الإنسان يحاول أن يسعد نفسه فلا يحظى إلا بالتعاسة.. ولكنه لم يفلح فى إنقاص حجم ومساحة وأعماق الشقاء الإنسانى ومن احتكاك الأحداث والأشخاص تتولد شرارة الضحك.. وفى أعماله الفنية نجد مواقف بليغة ولما نطقت السينما ونطق هو أيضاً كانت له حكمة تتألق فى حوارهِ وفى مواقفه..

يقول مثلاً: الشعر خطاب غرامى موجه لقلوب الناس.

ويقول: أحب الرجل الذى يواجه الناس بالحقيقة والدموع فى عينيه.

ويقول: إننا نخاف من منظر الدم مع أنه يجرى فى عروقنا!

ويقول: إننى أتعذب لأننى وحدى.. وأتعذب لأننى معك، فأنا وحدى معك! ثم

هذه الكلمات أيضاً:

كل واحد منا بهلوان أمام رغباته.. فهى التى تجعلك تتلوى وتتكسر ثم تعتدل وتستدير وتهرب حتى لا تقول لأحد: شكراً..

لا يوجد إنسان سافل تماماً.. ولا يوجد إنسان طيب تماماً.. وإنما كل إنسان كوكيتيل من السفالة والطيبة.. إنه «طافل»!

لا بد من الطين للشجرة.. ولا بد من الوحل للقديسين.. بشرط أن يكون الوحل قابلاً للغسل بعد ذلك..!

لا أعرف كيف كنت أجعل الناس يضحكون، يضحكون علىّ وأنا أتعذب خوفاً من الفشل.. وكانت سعادتى أن أراهم يضربوننى بكل ما فى أيديهم وكانوا يصيبوننى فى وجهى وهم يرموننى بالفلوس وكانت الفلوس توجعنى.. وكنت أبكى وأضحك معاً..!

أنا صرصار فيلسوف يطاردنى برغوث إرهابى...!
أنا ولدت مرتين: المرة الأولى وبعدها بعام عاقب والدى أُمى فطلقها.. المرة
الثانية عندما انحاش صوت أُمى.. هنا ولدت من حنجرتها.. فأحسست أننى
تعويض تافه جدا عن خسارة فادحة لأُمى..
الإنسان هو القزم الوحيد الذى يتحدى عمالقة الطبيعة: البحار والجبال
والعواصف والمجهول ولكنه فشل فى تحديه لنفسه..

واستقرت عظمة شارلى شابلن وقدرته الفذة على التمثيل والإخراج والتأليف
الموسيقى والغناء فى أفلامه الشهيرة: أضواء المدينة والعصور الحديثة ومسيو
فردو والديكتاتور العظيم هتلر.. وملك نيويورك وغيرها..
ولم يكن من الصعب على الأمريكان المتطرفين أن يجدوا عنده بذور التمرد
على اليمين الرأسمالى وعلى الإمبراطورية الأمريكية ولذلك اتهموه بالنشاط
المعادى لأمريكا.. أى أنه شيوعى أو يدعو لذلك.. فطردوه من أمريكا.. فأقام فى
سويسرا من سنة ١٩٥٣ مع زوجته الرابعة ابنة الأديب الأمريكى يوجين أونيل..
ولم يعد إلى أمريكا إلا سنة ١٩٧٣ قبل وفاته بأربع سنوات فأعطوه جائزة
الأوسكار الثانية.. الأولى كانت قبل ذلك بخمسين عاما..

وكان ش. ش. حريصا جدا فى حياته على شيئين: الصحة والفلوس. أما الفلوس
فجمع منها الكثير جدا.. وكان ينفق بالورقة والقلم.. وكان يعطى أولاده راتبا
شهريا ويطلب إليهم أن يقدموا له حسابا فقط ليعرف كيف ينفقون؟ وأين؟ ولماذا؟
وكان يكذب عليهم ويقول: أريد أن أنتج فيلما عن الشباب..

وعندما جاءت ابنته الكبرى بكشف حسابها اندهش كيف أنها أنفقت كل
فلوسها فى ليلة واحدة.. فقالت: دعوت أصدقائى إلى مشاهدة أحد أفلامك ثم إلى
عشاء نناقش فيه: معنى الذى رأينا..

ثم قدمت له ملخصا للمناقشة والدراسة.

فكافأها أبوها على ذلك قائلاً: تأخرت هذه الملاحظات وهذه النصائح
عشرين عاما.. لو أن واحداً قال لى كل ذلك لغيرت حياتى.. أشكرك..!

ثم كافأها بمرتبة سنة على هذا البحث الممتاز الذى طلب إلى زوجته أن تنشره
بعد وفاته بعشر سنوات.. ولكن الزوجة لم تنشره..

أما صحة ش. ش. فكانت نموذجية فهو يأكل بحساب، ويمشى بحساب، ويسبح ويتشقلب ويقف على رأسه، ويتدحرج فى برمىل من أعلى الجبل.. وله فى ذلك نظريات أخذها من اليوجا الهندية.. ثم إنه عندما مات قال الأطباء: لم يمت ضعيفا وإنما تدفقت فيه الحياة.. كما يرتفع التيار الكهربى فجأة فتحترق المصابيح.. فقد كانت حيويته وطاقته أقوى من احتمال جسمه الضئيل.. فمات محترقا.. مات شابا فى ملابس شيخ..!

وعندما نشرت إحدى الصحف أنه يتعاطى حبويا مقوية وهرمونات الشباب لجأ إلى القضاء وأصر أن يقاضى الشركة الطبية التى أعلنت فى الصحف أنها هى المسئولة عن حيويته وشبابه.. وطلب تعويضا ماليا ضخما. ولما سأل القاضى عن الأضرار التى لحقت به؟ قال: تماما كما يقال لتلميذ مجتهد جدا: إن أحد زملائه قد كتب له الإجابة..

فطلب إليه القاضى أن يوضح موقفه فقال: اعذرنى يا صاحب العدالة.. تماما كما يقال إن حيثيات الحكم فى هذه القضية.. والحكم نفسه قد أملاه عليك حاجب المحكمة..

وحكم له القاضى بالتعويض الكبير الذى أصر ش. ش. على أن يقبضه وأن يضيفه إلى حسابه.

فالصحة والشباب والحيوية واللياقة كلها من تجاربه ومن صنعه ومن قراءاته وليست بفعل عقار أو هورمون لشركة معينة!

ولما سئل ش. ش. عن أحب الأفلام إليه قال: ذلك الفيلم الصامت الذى ترى فيه إنسانا يربط مسمارا واحدا.. فقط يربط مسمارا والعجلات أمامه تدور وهو لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه.

فهذه هى بالضبط صورة الإنسان فى العصر الحديث.. لقد صنع الآلة ليكون هو أيضا آلة.. يربط مسمارا فقط يربط مسمارا فى جهاز.. يعيش ويموت يربط مسمارا.. ولو رأيت الرجل فأنت لا تعرف إن كان هو الذى يربط المسمار أو هو المسمار الذى يدوخه.. هذا الإنسان لو طرده المصنع فإنه يموت.. لأنه لا يستطيع أن يربط مسمارا فى بيته.. أو فى دكانه.. وإنما فى هذا المصنع فقط.. فهو عبد ذلول ذليل للآلات التى اخترعها.. فهو على المسمار يعيش وبه يموت..!

١. هتلر.. وأساطير

جرمانية أخرى!

لأسباب كثيرة عريقة كان إعجابى بالشعب الألماني، وبكل ما هو ألماني.. ولم أفصح إلا بعد وقت طويل أن أناقش أفكارى وأحكامى المطلقة على الأدب والموسيقى والعلم والسياسة الألمانية. ولكن ظل الإعجاب قويا جداً..

ونحن أطفال كان أهم حادث فى حياتنا هو عندما نسمع الموسيقى الغربية تجيء من سيارة بيضاء لامعة مضيئة.. وكنا نردد وراءها: هاتوا براد شاي.. هاتوا براد شاي.. ولم تكن الأغنية الأجنبية تقول ذلك.. ولكن كلامها وموسيقاها هذا الإيقاع.. عرفنا فيما بعد أن الأغنية تقول: كوكاراتشى.. أى الصرصار.. وكانت السيارة تعلن عن أسبرين باير تختار إحدى الخرابات وتضع شاشة على أحد الجدران وتعرض لنا صوراً لأناس مصابين بالصداع والزكام والرشح وكيف أن أسبرين باير هو الذى يشفيها.. وقبل ذلك موسيقى وأغنيات لا نفهمها.. وكانت السيارة ترتاد القرية كلها والقرى المجاورة.. وكان يبهرننا جداً أن أحدا لا يستطيع أن يلمس السيارة.. فإذا وضع يده عليها ارتعش جسمه كله.. وينزل من السيارة شاب أشقر أزرق العينين لهجته العربية مكسرة.. وبعد عرض الصور عن فوائد الأسبرين فإنه يوزع علينا أقراصا من الأسبرين.. ثم يختفى.. ونظل طوال الأسبوع ننتظر مجيء هذه السيارة التى كأنها تهبط من السماء وتنشق لها الأرض.. فإذا جاءت مرة أخرى كان حماسنا أعمق.. وكانت عندنا رغبة قوية فى أن نتأكد من الذى نراه.. ونتأكد من أنه صحيح أن أحدا لا يقوى على لمس السيارة دون أن يتكهرب..

ولا أعرف كم عدد المرات التى رأيت فيها السيارة ولم أفصح فى جميع المرات أن أتأكد من الذى أرى: كيف تتحرك الصور.. صور كاريكاتورية.. صور حقيقية.. وعندما كبرت كنت لا أجد إلا مجلة واحدة فى بيتنا وبيوت الأصدقاء والذين

يعملون فى الزراعة.. إنها مجلة يصدرها ثابت ثابت.. عنوانها: ألمانيا اليوم.. وهى تتحدث عن الأسمدة الكيماوية التى تستخدم فى تقوية التربة.. والمجلة كبيرة.. وفيها مقالات عن تطور الصناعات الألمانية وعن الحياة فى ألمانيا.. ولا أذكر أننى تركت عددا واحدا دون أن أقرأ الذى أفهمه والذى لا أفهمه.. ولا أذكر أننى وجدت عددا واحدا من هذه المجلة فى أى مكان دون أن تمتد يدي إليه وكان أبى يعمل فى الزراعة عند عدلى باشا يكن وعز الدين بك يكن ونعمت هانم يكن.. وكان يشجعنى على القراءة. وعلى قراءة هذه الصفحات الباهرة عن ألمانيا فى ذلك الوقت.

وفى صفحات المجلة قرأت عن الشعراء الألمان والعلماء والموسيقيين.. ولا أذكر أننى قرأت فى ذلك الوقت مجلة عن أية دولة أوروبية.

وفى سن الطفولة أصبح كل ما هو ألمانى هو معجزة فالعلم ألمانى والأدب والفن والموسيقى والعبقريّة.. أما الشعوب الأخرى فهى تتفرج على ذلك!

وفجأة وجدت من الكتب المعروضة فى ميدان المحطة بالمنصورة رواية مترجمة عن الألمانية للشاعر شيلر. الرواية اسمها «الحب والدسيسة» وهى أول رواية أقرأها فى حياتى.. أحداث غريبة.. كلام عجيب عبارات مألوفة.. والرواية الثانية التى قرأتها كانت لأديب مصرى اسمه حسين عفيف والرواية اسمها «زينات».. كلام غريب عجيب رقيق.. لم أفهم بالضبط ما هو وجه الشبه والخلاف بين الاثنين.. ولكن الأسلوب والمعانى والأحداث ضربتنى فى دماغى.. فامتدت يداى تقلبان فى كل الكتب المعروضة وتبحث عن جديد.. ثم وجدت موجزا لمسرحية «فاوست» للشاعر الألمانى جيته.. ما هذا؟ من هؤلاء؟ كيف يفكرون؟ ماذا يقولون؟ لماذا هم مختلفون؟ كيف أفكر مثلهم؟ كيف أقول قولهم؟ كيف أعيش حياتهم؟.. كيف أقرب؟ كيف أكتب مثلهم؟.. كيف أكون واحدا منهم؟!

وقرأت للأستاذ العقاد دراسات عن الفيلسوف نيتشه وعن الفيلسوف شوبنهاور.. ما هذا؟ أى نوع من خلق الله هؤلاء الناس.. إنها مؤامرة كاملة الشروط قد استولت على عقلى وعلى خيالى.. وبسرعة اتجهت إلى الألمان من جيراننا والألمان من أقاربنا.. هذه زوجة ألمانية.. هذه فتاة.. هذا فتى.. وكان عندنا فى المنصورة بائع ساعات اسمه هرش.. لم أجد وسيلة لدخول محل الساعات رحت أتحايل لكى أتكلم مع أى أحد.. لكى ألمس أى أحد.. لم أجد إلا شقراوات جميلات

يتكلمن الألمانية.. سرت وراءهن مبهورا.. سرت وراء الأب والعم والخال.. عرفت من الساعى أنهم يعلمون أى أحد اللغة الألمانية.. وأحيانا يدفعون له.. تقدمت.. وقلت: إننى أول المدرسة.. وقرأت للشاعر فلان وللشاعر فلان وأحب الألمان.. وألمانيا.. و..

وكان أول درس فى اللغة الألمانية.. والثانى.. والكتب والمجلات.. وفى أقل من سنة استطعت أن أتكلم الألمانية وكان تعطشى للغة هائلا.. وحفظت القصائد الصغيرة والأغنيات.. وذهب بى الخيال بعيدا جدا.. إلى حب واحدة من البنات.. وإلى الزواج منها.. وإلى الحياة فى ألمانيا.. وإلى أن أركب سيارة من سيارات باير.. وأنا الذى أقودها.. وأنا وأنا.. وإلى آخر خيالات الأطفال.

وكان لى صديق اسمه ضياء الدين بدر.. أمه ألمانية.. وشكله ألمانى.. وطريقته فى النطق جذابة.. أما وجهه الأحمر.. والبريق فى عينيه والاندفاع فى مشيته ولا أعرف.. ما هى العلاقة بين حب كل ما هو ألمانى وبين أن ندخل نحن الاثنين الأزهر الشريف.. قررنا ذلك.. ولا أعرف بالضبط ما الذى قلناه ونحن أربعة نمشى فى شارع النيل بالمنصورة: خالد حسونة المحامى الآن وضياء الدين بدر، لا أعرف أين هو، والمرحوم جمال أبورية أديب الأطفال وأنا.. وتخيلنا أن نكون أساتذة فى الأزهر.. وكل واحد منا له ركن وأمامنا وحولنا التلاميذ نحدثهم عن الفلسفة الألمانية والأدب الألمانى.. أما الكتب التى كنت أراها عند ضياء الدين بدر، فلا أقدر على قراءتها.. ولأول مرة اسمع اسم هتلر.. صورته، وجهه، شعره، عيناه.. هذا هو الساحر الألمانى.. وعرفت أن له كتابا اسمه «كفاحى» وكان ضياء الدين بدر ينفرد بى ويقول ما جاء فى هذا الكتاب.. لا أعرف ما الذى قال ولا أذكر.. ولكنه شخص عظيم جدا قوى جدا ساحر جدا.. خرج من الحانات.. يخطب ويدخل السجن ويكتب قصة حياته فى السجن.. ويخرج ويلتف حوله الشعب الألمانى.. إذن هو أعظم واحد فى ألمانيا.. فى هذا الوقت كنت طالبا بالسنة الأولى الثانوية.. وليس كل ذلك واضحا فى رأسى.. وإنما هى معلومات لها أثر السحر والكهرباء فى نفسى وفى جسمى.. ولم أكن فى حاجة إلى مزيد من الانبهار فى ذلك الوقت.

وامتلأت يداى بالكتب الصغيرة والصور عن ألمانيا.. وظهرت فتيات جميلات جنن من ألمانيا.. ولا أعرف لماذا؟ ولا من هؤلاء؟ ووجدت فى يدى النشيد القومى

الألماني: ألمانيا فوق الجميع.. فوق الجميع فى العالم.. نبىذ ألمانيا.. ونساء ألمانيا.. والحق والمساواة والعدل والوحدة.. من أجل الوطن.. ألمانيا فوق الجميع فى العالم.

ثم كانت القنبلة.. وجدت كتابا عن نيتشه للدكتور عبد الرحمن بدوى.. وكتابا عن شوينهور للدكتور عبد الرحمن بدوى.. وكتابا عن اشبنجلر للدكتور عبدالرحمن بدوى.. ثم د. عبد الرحمن بدوى نفسه.. وكنت قد دخلت كلية الآداب قسم الفلسفة.

وكان د. بدوى.. صورة لكل ما أتخيل وأحلم وأتمنى.. أسمر حاد النظرة.. الرأس كبير عال شامخ.. المشية سريعة.. والعلم يتدفق منه.. نوع غريب من البشر.. نوع فذ من الأساتذة.. وكل الذين يتحدث عنهم د. عبد الرحمن بدوى هم من الفلاسفة الألمان والعلماء الألمان والمستشرقين الألمان.. إنه هو الآخر ألماني الثقافة والأسلوب والهدف.. لم أعد فى حاجة إلى مزيد لكى أنحاز نهائيا إلى الفلسفة الألمانية.. انتهى..

وفى ذلك الوقت قرأت ترجمة لرسائل الشاعر الألماني ريلكه.. من هذا أيضا؟! الرسائل ترجمها د. محمد عبد الهادى أبوريدة.. وهذا عالم بالأدب الألماني والفلسفة الألمانية.. قرأت وقرأت.. وحاولت أن أفهم.. وحاولت وعرفت أن اللغة الألمانية التى تقدمت فيها جدا، غامضة صعبة.. شاقة.. وكذلك أفكارهم ومجاهداتهم وتحدياتهم.. وحقد العالم كله على الشعب الألماني..

وفى ذلك الوقت - أى فى السنة الأولى من كلية الآداب - سمعت عن «جمعية الجرافويون».. أى جمعية الفونوغراف. وهى كلمة لم يعد أحد يعرفها الآن.. وهو الجهاز الذى نضع فيه الأسطوانة ونضع فوقها السماعة ذات الإبرة، وتدور الأسطوانة كما يدور شريط الكاسيت وتنطلق الموسيقى.. يرأس هذه الجمعية أستاذ د. لويس عوض. وهو أيضا شخصية باهرة.. وكنا نحدد الشخصيات بمدى قربها وي بعدها من عبد الرحمن بدوى.. هل هو أحسن.. هل هو أعلم.. هل هو ألطف.. وكان لويس عوض ألطف وأرق وكان رجلا ودودا.. وكان يجلس إلى جوارى على الأرض وكان يأكل السندوتش ويشرح لنا السمفونية التى نسمعها.. وتوالت الأسماء: بتهوفن وفاجنر وموتسارت وهندل وهایدن وبياخ وبرامز واشتراوس وكلهم من الألمان!!

وأذكر الأسماء التي كانت تدمن الموسيقى وتفهم وتقول.. وكان كل ذلك جديدا.. من هذه الأسماء من طلبة الفلسفة: مصطفى سويف وبدر الديب وعباس أحمد ومحمد شرف ومحمود أمين العالم وكمال الدسوقي.. ومن قسم اللغة العربية عبد الرحمن الخميسي ولكن كان أكثرنا علما وفهما وممارسة الموسيقى جمال عبد الرحيم أما الذي كان يعزف على البيانو ويبهشنا فهو عبد الحميد توفيق زكى. وكان يدرس لى «علم الجمال» د. منصور باشا فهمى. وأقول يدرس لى، فقد كنت طالب الامتياز الوحيد. وطلبة الامتياز تضاف إليهم علوم أكثر من زملائهم من الطلبة العاديين. فكانت اللغة الألمانية وعلم الجمال وعلم الاجتماع الفرنسى علوما إضافية لى وحدى.

وفى ذلك الوقت كان أستاذ اللغة اللاتينية سويسريا اسمه د. باترى. وكان عازفا على الكمان فى الفرقة السيمفونية للأوبرا.. وفى يوم لا أنساه أبدا ألقى محاضرة موضوعها «ميتافزيقا الموسيقى». وأعلنا عن المحاضرة ونقلنا البيانو الذى يعزف عليه عبد الحميد توفيق زكى من نادى كلية الآداب إلى المدرج ٧٨.. ولم يحضر أحد.. أنا وواحد كان اسمه جليل البندارى الصحفى الشهير بعد ذلك والذى تزوج زميلة لنا اسمها فاطمة.. كما تزوج عبد الرحمن الخميسى زميلة لنا اسمها شفيقة. وأتذكرهما الآن فكلتاها كانت ترتدى فستانا أسود.

وجاء منصور باشا فهمى وجاء د. «باترى» ولم يجدا فى المدرج الذى يتسع لألف طالب إلا أنا وجليل البندارى.. ولم يكذبدا د. باترى يتكلم الفرنسية وأحيانا بالألمانية حتى تسلل جليل البندارى وخرج. فلم يبق إلا أنا فى ناحية إلى أقصى اليمين والباشا إلى أقصى اليسار.. وكانت محاضرة رائعة.. كلاما جديدا غريبا عجيبا عن الموسيقى والفلسفة.. وكانت نقطة تحول فى فهمى وتذوقى للموسيقى ولم أكن أعرف شيئا من كل ذلك. فقط كنت أستمع وأنصت وأتخيل ما يحلو لى.. دون أن أعرف ما الذى تقوله الموسيقى.. فقط أترك لها نفسى وأستسلم لمشاعرى.. ولا أعرف ما الذى أقوله أو أحكيه أو أروييه بعد ذلك.. ولكن بعد هذه المحاضرة أصبحت الموسيقى كلاما وشعرا وتاريخا.. وكل الذين تحدث عنهم د. باترى من الألمان!

ویمنتهى الوضوح انقسمت الدنيا نصفين: نصفها الغربى عبد الرحمن بدوى.. ونصفها الشرقى لويس عوض.

ولا أعرف أين كان العقاد وطه حسين.. ولكن من المؤكد أن العقاد أمامى.. أو على يمينى وعلى رأسى.. أو كان بعيدا تماما عن الموسيقى والفلسفة الألمانية.. ولم أسمع من العقاد مرة واحدة أنه كان يستمع إلى الموسيقى الألمانية أو الغربية.. وإنما عبارات عارضة.. عابرة.. ولم يكن له رأى واضح.. ولا حتى سمعت من طه حسين.. أو لم يكن يعنينى أن أسمع منه.. فقد اكتفيت بما يقوله د. عبد الرحمن بدوى ود. لويس عوض..

وانقسم طلبة قسم الفلسفة نصفين حادين بالسيف أو بالسكين: مثاليين ألمانا متطرفين مؤمنين بالقوة والفردية المطلقة وسيادة الشعوب الآرية يملأون أيديهم من السحاب ويعتصرونها قطرات ويحلمون. وماركسيين واقعيين عمليين ثوريين متمردين يملأون أيديهم من التراب ويصنعون منها تماثيل من الطين..

وبسرعة تحول المثاليون إلى وجوديين.. وكان مصدرنا الوحيد فى العلم والمعرفة هو ما كتبه وما قاله د. عبد الرحمن بدوى.. ومنذ ذلك اليوم المشهود فى تاريخنا ونحن طلبة يوم مناقشة د. بدوى فى رسالة الدكتوراه التى كان موضوعها «الزمان الوجودى».. اللغة عربية والتعبيرات جديدة.. والذى يبينه أمامنا من صروح منطقية ميتافيزيقية عجب فى عجب.. وطريقته فى الحديث واعتزازه وكبريائه.. وعلمه الغزير ونبرة التحدى والتعالى كل ذلك بهرنا، أخذنا، سحرنا. وكانت لجنة الامتحان مكونة من: طه حسين وحسن إبراهيم وعلى عبد الواحد وافى وبارل كراوس..

أما طه حسين فقال عنه: إنه أول فيلسوف مصرى.. وأما المستشرق الألمانى كراوس فقد اعترض على نقط جوهرية بديهية جدا. وكان الحق معه. أما على عبد الواحد وافى أستاذ علم الاجتماع، وهو من أساتذتنا الأجلاء، فقد كان اعتراضه على شخص عبد الرحمن بدوى أكثر من اعتراضه على فلسفته وعلى شطحاته الفكرية..

وبعد نهاية المناقشة حمله الطلبة على الأكتاف.. ولم يكن ذلك عن فهم لما يقول وإنما عن إعجاب بشخصه وفكره وكره فى د. على عبد الواحد وافى الذى كان عنيفا استفزازيا.. وطبيعى أن يحصل د. بدوى - الذى رعاه وشجعه طه حسين وأوفده وهو طالب فى بعثة إلى فرنسا - على مرتبة الشرف الأولى.

وكان عبد الرحمن بدوى صورة إغريقية لنا باهرة فهو عالم باللغة العربية وفنونها.. وكان أديبا وكان شاعرا وهو أكثر علما بالفرنسية والألمانية والإيطالية واليونانية واللاتينية والأسبانية والفارسية.. وقد أضاف بموهبته العظيمة مئات المصطلحات الفلسفية إلى اللغة العربية.. لم تكن معروفة من قبل.. وهو الذى نقل إلينا فلسفات الحضارة.. وكلها ألمانية.. ونقل إلينا نظريات الفلسفة الوجودية وكلها ألمانية أيضا.. وبعد ذلك قدم لنا الوجودية الفرنسية.

وسافرت إلى ألمانيا كثيرا.. ورأيت وسمعت وقرأت وتأملت.. وقابلت العالم الكبير والمؤرخ د. فلهلم هوفر وزوجته وابنته.. وكنا جميعا فى مدينة البندقية.. وكان لقاءنا صدفة. وأنا الذى اقتربت منه وسألته: سمعتك تتحدث عن أثر الفلسفة الألمانية فى العالم كله.. وأنه لم يكن قبلها ولا بعدها فلسفة فى أى مكان فهل تعنى ما تقول؟

وقال كلاما معناه: أنه كان هناك أفكار فلسفية فى كل الحضارات. ولكن لم تتحول إلى مذاهب إلا فى العقلية الألمانية.

اندهشت. فسألت: وما قولك فى الفلاسفة الإغريق: سقراط وأفلاطون وأرسطو. قال: كلام فارغ!

كلام فارغ؟! وسألته مرة أخرى إن كان جادا، فأكد لى أنه لم يكن جادا فى حياته مثل ما هو هذه اللحظة!

فإذا كانت الفلسفة الإغريقية كلاما فارغا فالفلسفة العربية.. والفلسفات المسيحية.. كلها أفرغ من الفراغ. وإذا كان الأدباء هم الألمان والشعراء هم الألمان، فنحن العرب لم نقل شيئا لا فى النثر ولا فى الشعر!!

فسألته: إن كان قد قرأ شيئا مترجما من الأدب العربى القديم أو حتى المعاصر؟! ولكنه لم يقرأ وليس فى نيته. وسألنى إن كنت قد وجدت فارقا كبيرا بين الشعر العربى والألمانى.. وأدهشنى السؤال. ووجدت أنه لا جدوى من الإجابة فليس من الألمان شاعر كالمتنبى وأبى تمام والبحترى وعشرات من شعراء الجاهلية والإسلام ولا من الشعراء المحدثين والمعاصرين هذا مؤكدا.

ولا أقبل فيه النقاش!

وسألته وأنا فى شدة الغيظ: وهل هذا هو رأى بعض الألمان.

فأجاب: بأنهم جميعا من رأيه؟!

جميعا؟ ومن رأيه هو؟ يعنى نحن لا كتبنا ولا نظمنا ولا لنا تاريخ ولن يكون..
مش فاهم ولا قادر على أن أضع عقلى فى دماغى ودماغى على كتفى وأن أظل
جالسا هكذا أنظر إليه فى دهشة بلهاء!

سألته: ألا ترى أننى أفهم مثلك؟

قال: تفهم وتعرف من الفلسفة الألمانية والأدب ما لا أعرف.. ويدهشنى ذلك..
قلت: إذن من العرب، ومن الشعوب الأخرى من يفهم من يدرس ومن يحسن
المقارنة والمفاضلة ومن يستطيع أن يحكم لنا أو عليكم.. فلو قلت لك مثلا أن من
شعرائنا وأدبائنا من هم أعظم كثيرا جدًا من الشعراء الألمان هل تصدقنى؟
ثم سألته: وما رأيك فى نابليون والإسكندر الأكبر ورمسيس الثانى.. وموسى
وعيسى ومحمد؟!

وكان الخلاف بيننا حادا. وكان لابد أن تتدخل زوجته الجميلة وابنته
الأجمل.. فقد قال باختصار شديد: أن هتلر كان على حق عندما رأى كل الشعوب
الأخرى لا تستحق الحياة.. وأنه كان يجب أن يحرق فى أفران الغاز أضعاف
الذى أحرق. وأن العالم كله قد فاتته فرصة أن يكون متشرفا بحكم الشعوب
الجرمانية له!!

لقد كان هذا الرجل أسوأ وأحقر من عرفت من الألمان فى حياتى.. وكان
لقائى به أكبر صدمة فى حياتى.. وكان تعاليه واحتقاره لكل الناس، وللعرب
بصفة خاصة والمسلمين بصفة أخص، أكبر مستنقع من الوحل والعفونة سقطت
فيه.. ولم أفلح إلا بعد وقت طويل أن أتخلص من أدراجه فى ملابسى وفى أنفى
وفى عينى..

حتى لو كان من الألمان من يرون رأيهم فئة شاذة.. أو حتى لو كانوا
أغلبية، فقد أصابهم وباء الغرور والعنصرية والوطنية الضيقة.
ولكن فى التاريخ الألمانى شمس وأقمار ونجوم أضاءت لنا، ولاتزال،
وفتحت لنا أبوابا وسماوات ولاتزال.. ولكن هذا الرجل وكثيرين غيره.. هم رد
فعل جنونى، لما أصاب ألمانيا بعد انهيارها فى الحرب العالمية الثانية، ومعها
كل القيم والمثل العليا.. وانكشف الوجه القبيح للهمجية الجرمانية البشعة.

٢ . هتله: أعظم قوة

خراب في التاريخ!

ونحن شباب ندرس الفلسفة سقطنا في جاذبية فيلسوف القوة: نيتشه.. إنه ذلك الإنسان الهزيل ضعيف البصر الذي تعذب بعبقريته فدخل مستشفى الأمراض العقلية.. والذي حاول طول حياته أن يتخلص من القيود الدينية الأنثوية التي رافقته منذ طفولته.. فهو من أسرة من القساوسة.. وقد تولى تربيته عدد من النساء منذ وفاة أمه.. وكان زملاؤه يصفونه بأنه (القسيس الصغير).. كذلك كان مظهره. أما أعماقه فهي جهنم رجال الدين - أى دين. وهو لم يكن فيلسوفاً فقط بل كان شاعراً.. فيلسوف الشعراء، شاعر الفلاسفة. صاحب أجمل عبارة في تاريخ الفكر الألماني.

كان ينادى بأعلى صوته: لا حل إلا بالقوة.. لا إرادة أعظم من إرادة الإنسان القوى.. أنت قوى إذن أنت عظيم.. أنت عظيم إذن أنت حاكم. أنت حاكم فأنت مطلق.. أنت مطلق إذن تنحنى لك كل الرءوس. فهذه الرءوس لم تخلق إلا لكي تنحنى لمن هو عظيم.

وهذا العظيم يجب أن نفسح له الطريق حتى لا نعترض عظمته. والعظماء هم الصفوة المختارة من الناس. أما الذين ليسوا من الصفوة النبيلة الأرستقراطية العظيمة، فهم العامة. هم الناس العاديون.

ومن الظلم أن نساوى بين العاديين وبين الممتازين.. وكل دعوة إلى المساواة هي دعوة ظالمة تحط من شأن العظماء. ولذلك فالديانة المسيحية هي التي دعت إلى المساواة وإلى التسامح. هي التي أفسدت الفكر الإنساني بالفلسفة.. وهي التي تدعو إلى الذل والهوان: من ضربك على خدك، أدر له الخد الآخر.. منتهى الخنوع. ولذلك يجب مقاومة التسامح والمساواة والديمقراطية التي هي إهدار لعظمة الإنسان من أجل إنسان لا موهبة له ولا ميزة ولا مستقبل!

ويقول فيلسوف القوة نيتشه: أيها الإنسان لا تستسلم لناعم الكلام.. وناعمات الملمس من النساء.. أما الحب فهو مؤامرة على مواهبك.. على نبلك.. إن الحب الذى يستدرجك إلى الجنس، ليس حباً.. إنه مصيدة تنصبها المرأة من أجل الإيقاع بك.. فإذا وقعت جردتك من سلاحك، وجعلتك كلباً ذليلاً.. والغزل ليس إلا نوعاً من القتال.. أو تجريب الأسلحة التى لديك.. والزواج هو الهدف.. وأما الغاية النهائية فهى أن يكون هناك أولاد.. والآن يجب أن نعود إلى محاسبة أنفسنا على هذا الذى حدث ابتداء من أول نظرة إلى آخر عناق بين الرجل والمرأة فهى أولاً انشغلت بالرجل وشفغته بها. وترجم الرجل ذلك على أنه حب، ودفعه غروره إلى أن يتوهم بأنها هى التى بدأت بالحب. فهو إذن إنسان قوى استطاع أن يستولى على قلبها.. وهى لذلك لم تقاومه.. فاستجاب لضعفها.. وأسعده أن يكون قد سيطر عليها.. وأنها سقطت أمام أسلحته الفتاكة.. ثم إنها أثارت غيخته.. أوهمته بأن آخرين يريدون أن يخطفوها منه.. وهنا أحس أنه فى خطر. ومادام فى خطر لابد أن يشهر كل أسلحة القتال والحرب من أجل النصر فى النهاية. هى التى اخترعت المعركة. ولأنه هو مقاتل صياد بطبعه، فإنه أعد أسلحته لكى يطلقها فوراً على الخصم والعدو والخطر الذى كشفت عنه المرأة.. ولا تزال المرأة تدخل الرجل فى معارك وهمية حتى يكون حارسها ليلاً ونهاراً.. ومادام الرجل قد تحول إلى حارس لها، استغرقت هى فى النوم.. فقد جاءها الرجل غازياً فأصبح أسيراً حارساً.. ولذلك كان الزواج هو عقد بيع وشراء.. اشتراها ووافقت. وانتهت المعركة باسم الحب والغيرة إلى الزواج.. وإلى الأولاد!

يقول نيتشه: الرجل مغفل والمرأة خادعة كاذبة شريرة..

أما تصحيح هذا الفهم عند الرجل فهو. أن الزواج هو السيطرة. رجل يسيطر على امرأة. فالمرأة يجب إقناعها دائماً بأنها أم.. فقط أم. ويجب ألا تغيب عن الرجل خطورة هذا الكائن الخبيث. فأعظم ما تقوم به المرأة هى أن تلد. أن الرجل لا يستطيع أن ينافسها فى ذلك.. ثم إن المرأة بها شىء من الرجولة. وهى قادرة على استخدام هذه الرجولة ضد الرجل، وقادرة على التغلب عليه.. فالمرأة فى استطاعتها أن تكون أقوى من كل الرجال، بالإضافة إلى أنها أنثى.. ولذلك يجب أن يتزود الرجل بأسلحة من اليقظة والدهاء لكى يظل مسيطراً على هذا المخلوق الذى خرج من ضلع الرجل، ليحطم بقية الأضلاع!

ويرى الفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه وهو أحد أنبياء النازية: أن الهدف من الحياة الإنسانية كلها ظهور السوبرمان - الإنسان الأعلى..

فالإنسان الأعلى ليس موجودا الآن.. ولكن يجب أن نفسح له الطريق والطريق هو بتحسين السلالات الإنسانية.. فالبقاء للأقوى.. والأقوى هو الأصلح والأصلح هو الأمثل، وأنبل النبلاء هو الإنسان الأعلى..

ولن يظهر الإنسان الأعلى إلا من الخاصة.. خاصة المفكرين والساسة والجنود.. فكل تاريخ الإنسانية ليس إلا تفاعلات كيميائية واحدة بعد أخرى.. حتى تظهر الصفوة.. وتفاعلات كيماوية فى الصفوة حتى تظهر صفوة الصفوة.. فيقفز منها الإنسان الأعلى.. فإذا ظهر، كان من الواجب تاريخيا وبيولوجيا وفلسفيا أن ننحنى له.. فقد بلغت الإنسانية مثلها الأسمى.. وعلى التاريخ أن يركع ويتلقى أوامر الإنسان الأعلى، فالإنسان الأعلى قد ولد فينا وولد بنا، لكى يملى على الأجيال مستقبلها وسعادتها.

ويجب ألا ننسى أن الطبيعة فكرة الإنسان الممتاز.. وتصفه بأنه الشاذ.. أو المجنون العبقرى أو العبقرى المجنون.. ولا يكاد يظهر الإنسان الفريد حتى يقف الناس منه موقف العداء.. يقاومونه.. ويشهرون به.. ويحشدون ضده كل قوى التفاهة والضحالة والسوقية.. أما سبب ذلك فلأن الأغلبية لا تعرف لغته ولا تفهم رموزه وتخاف من رسالته.. لأن رسالته هى أن يغير الناس وأن يثيرهم بعضهم على بعض من أجل أن يستولى عليهم ويدفعهم إلى الأمام الذى لا يعرفونه.. ولكنهم يشعرون به من أول لحظة.. ومن واجبه هو أن يدلهم عليه، أن يدلهم على أنفسهم.. أن يستعين بهم عليهم.. هذا هو الإنسان الأعلى! هكذا قال زرادشت..

فزرادشت ليس هو النبی الفارسی المعروف.. ولكن له نفس الاسم. فعندما كان الفيلسوف جالسا على أحد الجبال يفكر وحده فى صفاء.. أحس أن شيئا ما قد امتلأ به.. إن قوة خفية قد استولت عليه.. وأنه راح يرتجف.. وأن قلمه يتحرك دون إذن منه.. فقد رأى أن زرادشت هذا قد هبط من قمم الجبال يناديه ويلقنه مبادئ الدين الجديد للإنسان الأعلى..

و«هكذا قال زرادشت» هو أروع أنشودة شعرية فلسفية كتبها أحد فى كل العصور. وظلت حياة الفيلسوف نيتشه حتى مات تفسيرا لرموز هذه الأنشودة الشعرية الفلسفية الصوفية الجميلة الساحرة..

وعندما هبط إليه زرادشت أحس أنها الشمس قد أشرقت، فتوارت كل الشموع..
تماما كما سوف يتوارى الناس فى بهائه وروائه وجماله وعظمته.. وهو يدعو كل
الناس بأن يتركوا ما فى أيديهم ويسارعوا بالسجود له.. فذلك شرف ما بعده شرف..
ويقول نيتشه أنه كان يتمنى لو عاش ليزاحم الراكعين الساجدين لقداسة
السوبرمان، القادر على كل ما يعجز عنه الإنسان!

ولا أدعى أننى استوعبت كل هذه المعانى وأنا طالب صغير.. ولكن العبارات
الفخمة والأشواك التى تخرج من تحت الورد، والأنياب والأظافر والنفحة
والحرارة العالية، ونحن ندق الأرض دقا، نخرق الأرض ونطاول الجبال.. كل ذلك
مما يغرى الشباب ويسعدهم.. ويحول حرمانهم إلى فلسفة.. ومخاوفهم إلى جرأة،
وعجزهم عن اتخاذ القرار إلى حكمة.. ورغبتهم فى التسلط إلى رغبتهم فى خلق
من يتسلط عليهم.. وبدلا من الاقتراب من المرأة فإنهم يتعالون عليها ويرقصونها
ويحتقرونها ويحتقرون ضعفهم ورغباتهم.. وفى نفس الوقت إذا أحسوا نحوها
بشيء، أدركوا أنها الغريزة.. ولكن الغريزة أعظم من العقل. فالغريزة تدفعهم
والعقل يوقفهم. ولكن أعظم ما يفعله الإنسان هو أن يستسلم للغريزة. وأن يدرك
بوضوح أنه مقبل على أكذوبة.. على خدعة.. على مصيدة.. وأنه إذا دخل المصيدة
فليكن مرفوع الرأس.. وأن يجرد نفسه بسرعة من كل ضعف وخوف.. فالمرأة
أرادت وهو أراد أيضا.. هى تحبه وتكذب. وهو يكذب ويحبها.. وهى لا تملك إلا أن
تكذب، فالكذب حيلة الضعيف. وهو يعلم - أو يجب أن يعلم - فإذا كان زواج. فهو
يجب أن يعلم أنها خدعة محبوكة ومسبوكة.. نصبها المجتمع للرجل من أجل
زيادة عدد السكان.. لا أكثر ولا أقل!

وقد كان الفيلسوف نيتشه نموذجا للفاشل فى أكثر من حب.. فقد أحب الفتاة
اليهودية الجميلة سالومى.. وأحبها العالم النمساوى فرويد، والشاعر الألمانى
ريلكه.. وعرض عليها نيتشه أن يتزوجها فاعتذرت.. فكانت صدمته الكبرى.. ولم
يشأ أن يحاول مع غيرها. واكتفى بهذا الباب الذى صدم وجهه وأغلق على قلبه
وقلمه.. حتى أخت الفيلسوف نيتشه قد تركته وحيدا وهربت مع زوجها إلى أمريكا
اللاتينية.. وكان يكره زوجها أشد الكراهية.. وحاولت أن تقنعه بالسفر معها،
ولكنه فضل المرض فى ألمانيا، على الصحة فى أمريكا مع شخص لا يحبه..
والدول المثالية فى نظر نيتشه هى الألمانية الروسية: أن تحكم ألمانيا

بعقولها الجبارة الشعوب السلافية بأعدادها الهائلة ومواردها الطبيعية الضخمة، مستخدمة أموال اليهود وبراعتهم فى الإدارة والاستثمار!

وجاء من بعد الفيلسوف الألمانى نيتشه فيلسوف آخر هو ألفرد روزنبرج وهو فيلسوف الحزب النازى وصاحب نظرياته العنصرية التى وجد بذورها فى كتاب «كفاحى» الذى ألفه هتلر فى السجن..

فهتلر يرى أن هناك مؤامرة عالمية يديرها وينفذها اليهود. هذه المؤامرة هى التى هزمت ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى.. وهى على استعداد لهزيمتها فى كل حرب مقبلة.. والديانة المسيحية هى الديانة اليهودية المعدلة.. فالتوراة اسمها «العهد القديم» والأنجيل اسمها «العهد الجديد».. فالمسيح يهودى وديانته هى اليهودية وقد أدخل عليها تعديلات واضحة.. ويرى هتلر أن الشعوب الجرمانية هى سادة الشعوب.. ولا بد أن تسود. ولا بد من القضاء على كل مؤامرة يهودية للقضاء على الشعب الجرمانى!..

وقرأ كتاب «كفاحى» هذا الشاب الصحفى روزنبرج الذى ولد وتعلم فى روسيا. وعمل رئيساً لتحرير جريدة الحزب النازى. ثم أصدر كتاباً بعنوان «أسطورة القرن العشرين».. وفى هذا الكتاب أفصح عن كل آمال وأحلام هتلر فى السيطرة على العالم وفى سحق اليهود فى كل مكان فأحرق منهم أربعة ملايين بلا جريمة إلا أنهم يهود.. وإلا أنهم أقرب الشعوب السامية إلى يديه.. فكل الساميين - الصفر - وكل الحاميين - السود - هم أحط نوعيات البشر. وقد خلقهم الله خدماً وعبداً وضحايا وترباً تحت سنابك الجنس الآرى.. أى الألمان.. ولذلك فروزنبرج ينفخ فى الشعب الألمانى المنهزم المنهار بعد الحرب العالمية الأولى.. بأن الإنسانية قد حطمت نفسها.. حطمت أعظم وأروع أبنائها: الألمان.. وأنه لا بد من الانتقام من كل الناس.. وأن الألمان هم الضحايا وقد جاء دورهم أن يعاقبوا اليهود وكل الساميين والحاميين.. وأن هتلر السويرمان.. رجل العناية الإلهية.

ادخرته ليوم موعود. وجاء اليوم الموعود.. وتحدد الهدف وارتسم الطريق. وليس على الشعوب الجرمانية الآرية إلا أن تمشى وراءه إلى أسمى الغايات.. فهو مصدر الشرف وجوهر الكرامة، وهو نبى الانتقام.. رب الجيوش.. إنه أعظم من الإسكندر الأكبر وفلهم ونابليون.. إنه خلاصة الخلاصة.. سيد الأسياء.. نبيل

النبلاء.. إنه القائد الملهم فكلامه مقدس.. وأفكاره وحى. والموت فى سبيله حياة بعد الحياة! إنه الإنسان الأعلى!

لقد ولد هتلر فى إحدى المدن النمساوية.. وانتقل إلى ألمانيا وقد أجهضت أمه نفسها أربع مرات.. وجاء فى المرة الخامسة.. والتحق فى الجيش الألمانى.. وكان شجاعا ومنحوه وساما ودخلت الغازات السامة صدره، فأصبح صوته أجش وكان خطيبا ساحرا. أعظم خطباء القرن العشرين.. وكل العصور وكان صوته ساحرا لملايين الألمان. ولم يجرؤ أحد على أن ينظر إلى عينيه.. ولا حتى أقرب الناس إليه!.. حاول أن يدخل أكاديمية الفنون فى فيينا.. رفضوه لضعف مستواه. حاول مرة أخرى.. وتكرر الرفض ويقال إن أمه كانت تعمل عند أسرة يهودية غنية فى العاصمة النمساوية.. ويقال إنه من أصل يهودى - وكثير من الذين من أصل يهودى يتطرفون فى عدااء اليهود إخفاء لهذه الحقيقة!

وبسرعة عرف هتلر طريقه السياسى.. فانشغل بالسياسة. واستقر مكانه بين العمال والجنود فى حانات البيرة فى مدينة ميونخ. وفى سنة ١٩٢٣ دخل السجن بتهمة التحريض واتهم بالخيانة. وبعد سنة أفرجوا عنه وكان الكساد يحطم ألمانيا.. والناس فى ضيق. يتطلعون إلى الذى ينقذهم من ويلات الهوان والجوع والتمزق والضلال.. واستطاع بذكائه وبراعته وقدراته الخطابية الفذة أن يتحدى الناس وأن يدخل الانتخابات وأن يفوز على الأحزاب الأخرى وفى سنة ١٩٢٣ حقق أقصى طموحاته السياسية. أصبح مستشارا لألمانيا! وبسرعة سحق المعارضة. وبسرعة حشد الشباب فى معسكرات العمل وفى الجيش والمصانع..

وألغى معاهدة الذل والهوان: معاهدة فرساي. وبسرعة زحفت قواته فضمت النمسا إلى ألمانيا.. وضم منطقة السوديت التشكية ذات الأغلبية الألمانية.. وهدد بالحرب إذا لم تجب مطالبه وكلها فورا.

وفى سنة ١٩٣٩ عقد معاهدة عدم اعتداء مع ستالين.. واتفق الاثنان على اقتسام بولندا..

ثم هاجم بولندا واتجه إلى الزحف على روسيا سنة ١٩٤٠.. واستولى على الدانمارك والنرويج وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج!

واستسلمت فرنسا وقاومت بريطانيا الهجوم الجوى العنيف الذى استخدم فيه الألمان الصواريخ لأول مرة فى التاريخ.. واستخدموا الغواصات والألغام المغناطيسية.. وفشل الغزو الألمانى لبريطانيا التى اخترعت الرادار فكشفت الصواريخ والطائرات والغواصات..

وفى سنة ١٩٤١ استولى على يوغوسلافيا واليونان.
وألغى معاهدة عدم الاعتداء مع روسيا..
وأعلنت أمريكا الحرب على هتلر سنة ١٩٤١ بعد أن سحقت اليابان الأسطول الأمريكى فى ميناء بيرل هاربور..

وفى سنة ١٩٤٢ بلغ هتلر أقصى ما يستطيع.. بل أقصى ما استطاع إنسان فى التاريخ كله.. فلم يحدث أن استولت دولة واحدة على كل أوروبا ومعظم شمال إفريقيا! أما نقطة التحول فى هذه الحرب كلها ففى سنة ١٩٤٢ عندما خسر الألمان معركة العلمين وستالنجراد. ورغم أن الهزيمة كانت مؤكدة فإن هتلر لم يستسلم.. فظلت ألمانيا تحارب أمام ستالنجراد سنتين!
أما النهاية فجاءت فى ربيع سنة ١٩٤٥ عندما انتحر هتلر فى ٣٠ إبريل..

أنها أعظم مذبحه بشرية فى التاريخ.. فقد كان هتلر عبقرىً مجنوناً متطرفاً فى عدائه لليهود.. فقد أعلن أنه سوف يقتل كل يهودى. فأقام لهم معسكرات الإبادة بالنار والغاز فقتل الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال!!
إنه أكبر شرير عرفه التاريخ، وسوف تظل شهرته مئات السنين..
والتاريخ لا يزال يذكر السفاحين: نيرون وكاليجولا.. مع أن ضحاياهما كانت متواضعة جداً إذا ما قورنت بضحايا هتلر.. ولكن التاريخ لن ينسى هذين الرجلين..
ومن العجيب أن أدولف هتلر هذا أجنبى من النمسا ذهب ليحكم ألمانيا.. وأدخلها فى أبشع الحروب التى عرفها الإنسان.. وليست له خلفية سياسية ولا عنده فلسف.. ولكنه استطاع فى أقل من ١٤ سنة أن يكون رئيساً لأقوى دولة فى العالم.. ومن العجيب أيضاً أنه حاول أن يقضى على اليهود.. ولكن بعد وفاته بثلاث سنوات فقط استطاع اليهود أن تكون لهم دولة لأول مرة من عشرين قرناً؟!..
وكما توقع هتلر تماماً: أن هذه الحرب سوف تحدد مصير العالم كله لألف سنة قادمة!
إنه أعظم إرهابى فى القرن العشرين.. لقد هدم ألمانيا على رأسها، وحشد حولها كل الأعداء ينتقمون من أحيائها، ساداً لديون أمواتها وأمواتهم..

٣ . هتلر

الوجود والعدم!

كأننى ذهبت لكى أمشى فى جنازة الشعب الألمانى كله.. جنازة عزيزة على
فى الفلسفة والأدب والموسيقى والعلم.. فقد جاءتنى دعوة لرؤية ألمانيا بعد أربع
سنوات من انتحار هتلر.. وتحيرت العواطف فى قلبى: أرى ألمانيا التى أحببتها
ولم أكن قد رأيتها.. أرى ما تبقى من ألمانيا.. فالصور التى تنشرها الصحف لما
أصاب ألمانيا مروعة.. خرائب ودمار وجياح يخرجون من تحت الأرض..
الطائرات فى السماء.. والخرائب هى الأرض.. والشعب الألمانى ممزق منهار
جائع مشرد.. يلقي عظيم الانتقام من الحلفاء والاحتقار من العالم كله.. شئ
فظيع!!

ولم أعرف كيف أتهياً لهذه الرحلة..

وأحمد الله أننى توقفت طويلاً فى روما قبل سفرى إلى ألمانيا.. ففى إيطاليا
أشعر أننى فى مكان أعرفه تماماً.. أعرف الوجوه واللغة.. وكنت قد رأيت إيطاليا
أكثر من مرة. فلست غريباً على أحد.. الشوارع أعرفها.. والمطاعم والمقاهى
والنافورات وأعرف الفرق الموسيقية على النواصى.. هذه إيزابلا تغنى: المطر..
المطر.. وهذه سيلفانا تغنى: قلبى وجسمى للحب الأول.. وهذه روزيتا ترقص
وتغنى أن تغنى ثم تغنى: العواصف والنجوم والقمر همسات حبيبى.. وهذا
جوردانوا كأنه يريد أن يسمع سكان السماء يقول بقوة وعنف: يا حبيبى لا أريدك
وحدك أن تسمعنى.. إننى مظهرة من أجلك تهتف لك وبك.. أحبك.. قولوا معى:
نحبه.. نحبه..

وتمنيت أن أسافر إلى ألمانيا بالقطار.. فالقطار هو أروع وأبدع ما اخترع
الإنسان.. والسفر بالقطار هو أعمق متعة بين الجبال وفى الأنفاق والوديان..
ولكن جاء السفر بالطائرة.. ومن نافذتها لم أر إلا مساحات بيضاء وسوداء من

السحب.. وإلا البرق يضىء لأفكارى طريقها الحزين إلى أرض الآلهة.. إلى ألمانيا بلد بيتهوفن وجيته ونييتشه وريلكه - الموسيقار والشاعر والفيلسوف والشاعر..

هل نمت فى الطائرة وأسندت رأسى إلى النافذة.. هل هذه قطرات عرق.. أو دموع على خدى.. كم تمنيت وأنا طالب صغير أن يكون لى كوخ عند قمة جبل.. وأن تكون كلابى على بابى.. وأن تكون لى أسرة صغيرة.. وأن تكون عندنا أغنام وأبقار.. وأن أتسلق إحدى الأشجار أغنى لنفسى وأنظم شعرا.. ثم أهبط الوادى وعلى كتفى عصاى أدعو لعبادة القوة.. والعظمة والأبهة والفخامة.. أدعو لعبادة الجمال والجلال.. وفى الليل أدعو إلى كوخى. إلى غرفة دافئة وأجد الأدباء والشعراء والفلاسفة. ونواصل إعادة تشكيل العالم وتصنيف مخلوقات الله.. ونهتف بحياة القلب..

شئ عجيب جدا أن أجدنى أرتدى قميصا أسود.. قميص أسود؟ لا أذكر أننى رأيت قميصا أسود فى حياتى.. ولا رأيت أحدا يرتديه. فمن أين لى هذا.. ثم عدت أنظر إلى قميصى فأجده أبيض.. فكيف رأيت أسود.. هل رأيت أفكارى.. هل كان من الواجب أن أجعله أسود.. شئ عجيب يدور فى داخلى ويدور بى.. ويديرنى شمالا ويمينا ألوانا وأحزانا.. لقد مات أعظم ما فى قلبى وعقلى.. وأنا ذاهب الآن لكى أبكى ما تبقى من أحلامى وآمالى وطموحاتى وخيالاتى.. أبكى أعز الناس.. ماتوا جميعا.. ماتوا تحت النار وتحت الشرار.. ماتوا دون أن يعلموا أنهم ماتوا.. لا عودة.. ولا أستطيع أن أعدل عن هذه الرحلة..

نزلت الطائرة فى مطار تمبلهوف فى برلين.. سألت عن الشارع التاريخى الذى اسمه (تحت أشجار الزيزفون).. قالوا: مع الأسف أنه فى برلين الشرقية! سألت عن دار المستشار.. قالوا فى برلين الشرقية..

هناك شرق وغرب.. لقد قطع الحلفاء ألمانيا بالسكين.. جانب منها لروسيا والباقي مقسم بالعدل بين الحلفاء.. وبرلين نصفان أيضا.. والشعب شعبان.. وإن كان الهم واحدا!

وارتفعت الأيدى ونزلت: هنا وهنا.. وهناك.. والأسماء لا تهم.. فكل الذى حولنا خراب له أسماء وأشكال وأحجام وألوان مختلفة.. فألمانيا هى قاموس الدمار المادى والنفسى.. والهوان التاريخى.. لقد تحولت ألمانيا كلها إلى شوارع للعذاب

وغرف للذل ومدن للجوع.. وقد اتفق الحلفاء على إذلال الشعب الألماني. وعلى عقابه على جريمة ارتكبتها وهى: أنه انهزم..

وظهرت الكتب والأفلام والمسرحيات كلها تعذب الشعب الألماني وتحتقره وتؤكد له أنه وحش.. مصاص للدماء.. وأنهم يستحقون كل أنواع العذاب؛ لأنهم ساروا وراء هتلر إلى خراب الدنيا، وإلى دمار أنفسهم.. فإن الذى أصابهم لا يكفى، لذلك يجب القضاء على ما تبقى من الألمان حتى لا يكون ألمان.. وحتى لا يظهر منهم هتلر آخر.. أو أى إنسان يعرف كيف ينطق بهذه الكلمة!

وأقيمت محاكمة نورنبرج.. وأعدم قادة الوحشية النازية واحداً واحداً.. ثم إن البحث لا يزال جارياً لاصطياد الهاربين من عدالة التاريخ الذين كانوا سبباً فى موت خمسين مليوناً من الأوربيين.. وإحراق ملايين اليهود، لا لشيء إلا لأنهم يهود.. فأحرقوا العالم والفيلسوف والفنان والأديب والطفل والمرأة!!

ذهبت إلى برلين الشرقية.. رأيت شارع الزيزفون بلا شجرة واحدة.. رأيت دار المستشار الذى تقوض كله بعضه على بعض فوق جثة هتلر الذى انتحر وإلى جواره زوجته إيفا براون.. لم يبق من الأبهة والعظمة إلا كتل من الأحجار لم يعد لها اسم ولا رسم.. حتى النسور على الجدران وفى الميادين قد تحطمت رؤوسها أولاً.. وتطاير ريشها فهى ديوك رومية.. أو هى دجاج بلدى أفزعته القنابل فانتحر فوق الصخور..

والناس فى الشوارع كالشوارع نفسها.. الوجوه بلا معالم.. الملابس ممزقة.. التعب.. الجوع.. ولم أكن أقصد أن أتباهى بأننى أملك علبة سجائر.. وإنما أخرجتها من جيبى فوجدت عامل الأسانسير يكاد يخطفها من يدي.. قلت له: سيجارة..

وخطف السيجارة وتركنى لبييعها.. ولا تصورت أننى أملك ثروة ضخمة عندما قدمت للفتاة قطعة من الشيكولاتة.. إنها بسرعة وضعتها فى حقيبتها.. لتبييعها بعد ذلك.. وعندما ذهبت إلى مطعم كبير.. بقايا مطعم.. لاحظت أن الألمان يكومون ما تبقى من خبز ولحم وفاكهة ويحملونها معهم إلى البيت.. وعندما دعوت الفتاة التى كانت ترافقنى فى شوارع المدينة إلى الغداء.. سألتنى بأدب وخجل وحرص وعذاب: هل من الممكن أن أرجوك، وأكون لك شاكراً جداً، فتدعو والدتى..

فقلت: طبعاً والدتك.. وأختك.. وأى أحد من أسرتك.. لا تنس أننى مدعو من

حكومتكم..

وتركتنى لتعود بعد دقيقة ومعها أمها وأختها.. فقد كانتا تقفان أمام باب المطعم. إنها طالبة فى الجامعة وهى لم تدخل الجامعة إلا بعد أن شاركت فى بناء الجامعة ورصف الشوارع المجاورة لها - كل طالب يجب أن يحمل الطوب على كتفيه عددا من الساعات. هذا شرط القبول فى الجامعة!

وهذه مدينة (ميونخ).. تحطم الكثير منها.. وبقيت الكاتدرائية إلا قليلا.. وهذه مدينة (اسن) كبرى مدن حوض نهر الرون عاصمة الحديد والصلب والفحم فى ألمانيا.. وقاعدة الصناعات الكبرى من الصلب والمدافع.. ماذا أصاب المدينة..؟ اختفت المدينة.. اقتسمتها طائرات الحلفاء.. فحولتها إلى رماد.. أما المصانع الكبرى فقد نقلها الإنجليز والفرنسيون إلى بلادهم.. لقد قطعوا أصابع الألمان حتى لا ينهضوا مرة أخرى..

ثم جاءت دعوة بأن نلتقى بآخر أبناء أسرة «كروب» صاحب مصانع الحديد والصلب وأحد ركائز الحرب الألمانية.. قابلته فى قرية اسمها «فيلاهيجل» إنه السيد ألفريد كروب.. واحد من نبلاء ألمانيا النازية.. ولكن لا دخل له بما حدث.. إنه صاحب المصانع الكبرى.. ثم إن الأمر والنهى لسيد ألمانيا: هتلر.. وهذه مدينة اشتتجارت.. تستطيع أن ترى أولها وآخرها من أى موقع.. فالأرض مسطحة تماما.. والأطفال يخرجون من الأنقاض.. لأنهم يسكنون تحت الأرض..

وهذه همبورج وهانوفر.. وهذه هى المدينة الجميلة هيدلبرج التى لم يصبها شىء.. فقد كانت مركزا للقيادة الأمريكية.. إن هيدلبرج هى التى تتردد فى الأغنية الشهيرة: راح منى قلبى فى هيدلبرج.. فى هيدلبرج اضعت قلبى.. قلبى! وهذه فرنكفورت العاصمة المالية لكل ألمانيا.. وفى هذه المدينة انتعشت أسرة روتشيلد أغنى أغنياء اليهود.. وغيرها من المدن الصغيرة.. كل هذا راح.. ضاع..

وكان إصرارى على أن أرى مدينة تبيجن.. هذه المدينة الجامعية التى ليست بها مواصلات من أى نوع، فالناس يمشون على أطراف أقدامهم حتى لا يفسدوا الهدوء الجميل على الأدباء والشعراء والفلاسفة.. ففيها عاش الفيلسوف الألماني هيجل، وعاش أمير الشعراء الألمان هيلدرلين وزعيم الفلسفة الوجودية هيدجر.

ثم عدت إليها مرة أخرى.. وكنا عشرة من رجال الأمن وأساتذة الجامعات:
الدكاترة مراد كامل وعبد العزيز حجازي وعبد المنعم البنا وحسن عثمان وأنا!
وفي تبيجن توجد حديقة على نهر اسمها «حديقة التأوهات».. ووجدتني أجلس
وحدي في هذه الحديقة.. أنظر حولى لكى أعرف من أين جاءت هذه التسمية.. كل
شء جميل.. الأشجار راسخة وأوراقها تتحرك قليلا كأنها تهمس.. أو تهمز أو تلمز
أو أنها تستدرج الفراشات.. أو أن حوارا بينها وبين موجات النهر.. أو النهر
والحديقة يتجاوبان في إحدى أغنيات الشاعر هيلدرلين. ومن حين إلى حين تجيء
طالبة وطالب يجلسان.. كأنهما شجرتان.. وكأن جسميهما أوراق وموجات.. فكل
شء يهمس.. ويلمس.. ويتأوه.. ولكنى كنت أكثر الناس حزنا.. وتمنيت فى أعماقى
لو أن كل شجرة كانت مشنقة يتدلى منها جسم لهتلر الذى ارتفع بألمانيا إلى
السماء وتركها تهوى مليون قطعة.. أما هو فقد هرب بجسمه كاملا وانتحر.. بعد أن
تأكد أن ألمانيا أيضا قد انهارت.. فأحس أن رسالته الشيطانية قد اكتملت.. وأن
الخراب عالمى، والدمار شامل، والهواء طين ووحل ودخان!

سألنى أحد الأدباء الألمان: هل تريد أن ترى ألمانيا؟

قلت: لا أفهم!

قال: هناك ألمانيا أخرى أقوى وأوجع؟!

فأخذنى إلى الحانة الشهيرة فى ميونخ.. تلك الحانة التى كان يلتقى فيها
هتلر ويخطب ويدعو إلى الانتقام من الذين أهدروا الكرامة والشرف الألمانى فى
الحرب العالمية الأولى.. فى تلك الحانة يشرب الألمان البيرة.. ويصرخون
ويرقصون ويكون لهم صيحات وعواء كأنهم ذئاب أو كلاب جريحة.. ولكنهم لا
يذهبون إلى أبعد من إسكات هذه الأصوات بالبيرة.. والوقوف على المناضد
والرقص والهديان فى جنون.. كأنها حفلات الزار.. ويعدّها يعودون إلى بيوتهم..
جثثا خامدة.. ليصحبوا فى اليوم التالى لينهاى عليها بالسياط والبيرة.. كل يوم
وكل ليلة.. فالألمان يعذبون أنفسهم، كأن الذى يفعله الحلفاء ليس كافيا.

ذهبت وجلست وجاءت الفتيات تحملن أقداح البيرة الضخمة. ويلقن بها على
المناضد وتمتد أيدي الألمان ويشربون ويصخبون. ويدفعون المناضد بالأيدي
والأرجل. وتجيء الموسيقى فيركبهم عفريت وينهضون يضحكون ووجوههم
حزينة وعيونهم حمراء دامعة..

وخرجت وطلبت من صديقى تفسيراً فقال لى: إن هناك علامات أسوأ من ذلك.. فالشبان يمضغون اللبان كالأمريكان.. ويرتدون البنطلونات الضيقة.. ثم إن الابن يقف أمام والده ويضع يديه فى جيوبه.. وإذا جلس فإنه يمد رجله فى وجه أبيه وأمه.. تصور! هل تعلم أن المصانع الألمانية أعادت فتح مدارس التدريب وأنهم يضربون الشبان بالعصا.. فألمانيا سوف تنهض؛ ما فى ذلك شك.. الحلفاء أخذوا المصانع.. اقتلعوها.. ولكن لم يقتلعوا العقول الألمانية التى أبدعت وسوف تبدع.. وسوف ترى.. بعد سنوات عشر.. بعد عشرين..

وكنت أذهب إلى ألمانيا كل عام.. كأمنى أريد أن أطمئن على مستقبل ألمانيا.. على نهضتها.. على عظمتها.. على مهبط العبقریات الأدبية والفلسفية والعلمية.. وكنت أتوهم أن العباقرة يمكن أن يظهروا فى ألمانيا فى أى وقت.. وبناء على طلبها.

ذهبت متسللاً إلى بنسيون اعتدت أن أنزل به.. تسالت لأننى أخشى أن يصدمنى شىء غير الذى توقعت.. سألت صاحبة البنسيون السيدة هيلجا: قولى لى من فضلك.. وكيف الحال الآن؟

قالت والصحة والعافية تضح فى وجهها: وأنت كيف ترانا الآن؟ إننا لم نرك من سنتين.. ابنى الأكبر ذهب إلى الشمال وابنتى الصغرى تزوجت وسافرت إلى أمريكا.. وأنا أعيش هنا مع ابنى الأصغر وبنتى الكبرى.. ولنا مطعم كبير فى الناحية الأخرى من المدينة.. وفى نهاية العام سوف نسافر إلى إيطاليا أو أسبانيا لقضاء إجازة قصيرة... إلخ.

يعملون واتسعت تجارتهم.. وعندهم فائض من المال لكى يتفسحوا فى إيطاليا وإسبانيا.. لقد وقفت ألمانيا بسرعة.. وهى لم تكتف بالوقوف.. وإنما تبنى ويعلو البناء وتنتج وتبدع وتتفوق وتنافس الدول التى احتلتها ثم إنها تفوقت عليها جميعاً.. هذه إذن ألمانيا؛ كانت وسوف تبقى!

وأما الأجيال الجديدة فهى ثائرة على الأجيال الأسبق التى ساعدت على خراب ألمانيا.. وأنهم لذلك كارهون لكل أسلحة قوات الاحتلال وصواريخهم النووية. يريدون أن يعيشوا.. وألا يعودوا إلى الورا.. لا نازية ولا هتلر.. ولا اضطهاد لأحد بسبب لونه أو عنصره أو دينه..

وفى نفس الوقت يجب أن يكف الأمريكان عن تعذيب الألمان وتعميق شعورهم

بالذنب.. إنها غلطة أجيال عاشت وماتت.. فما ذنب هذه الأجيال الضحية.. التي لا كان لها رأى ولا موقف ولا حملت سلاحا.. ثم إن أحدا لا يلوم أحدا لأنه حارب أو دافع عن بلاده.. ولكن الغلطة ليست فى الحرب وإنما فى إبادة الأبرياء بلا حرب.. هذه هى الجريمة النازية البشعة.. أما الحرب فكل الدنيا تحارب وتنتصر وتنهزم.. كما أن الحلفاء يحاربون، فالألمان حاربوا أيضا، واليابانيون والإيطاليون والأسبان.. حاربوا وانهزموا.. ولكن يجب استئصال جذور الشر والوحشية.. ولذلك حرروا ألمانيا واليابان من جيوشهما حتى لا يفاجأ العالم كله بهتلر آخر فى أى ثوب وأى لون وأى حجم!

وظهرت فى ألمانيا أحزاب صغيرة نازية.. بل وفى أمريكا وفى بريطانيا.. إنها تجمعات من أجل الانتقام ورد الاعتبار.. ولكنها صغيرة. فلم يعد أحد يريد الحرب أو يريد عدااء العالم كله.. ويكفى أوروبا ما أصابها بسبب هتلر وموسوليني وستالين وفرانكو والميكادو اليابانى.

ولم تكن هذه الأحزاب إلا نوعا من الاحتجاج على البهذلة على الشاشة وفى الكتب للشعب الألمانى واليابانى.. ولكن ألمانيا واليابان تقدمتا فى كل مجالات الصناعة. فليس فيهما جيوش تمتص أموالهما وطاقتهما.. ولذلك أحست أمريكا أنها لابد أن تجعل ألمانيا واليابان تتحملان أعباء الدفاع عن النفس.. ولكن بحساب حتى لا تنهض فيها الشياطين مرة أخرى فتهدم الحضارة الإنسانية!..

ومنذ أيام احتفلت مدينة براوناو النمساوية بالذكرى المئوية الأولى لابنها الجبار: هتلر.. وطوقتها قوات الأمن.. وظهر عدد من الشبان يحملون أعلام الصليب المعقوف ويغنون: ألمانيا فوق الجميع.. فوق الجميع فى العالم.. الوحدة والعدالة والحرية لألمانيا كلها.. نساء ألمانيا ونبذ ألمانيا وأغاني ألمانيا.. ألمانيا فوق الجميع..

وكذلك فى بعض المدن الألمانية..

ففى ١٦ ابريل ١٨٨٩ ولد هتلر وفى ٢٠ إبريل ولد شارل شابلى وفى ٢٦ أبريل ولد فيلسوف «الوضعية المنطقية» فتجنشتين..

ووجدت متعتى الكبرى فى كل الخمسينيات ومن بعدها أن أذهب إلى

سالزبورج بالنمسا أزور بيت الموسيقى العبقري موتسارت.. وأتوقف طويلا أمام البيانو الصغير الذى كان يجلس إليه.. والسرير الصغير الذى تقسمه مخدة إلى نصفين.. وإلى الطشت والإبريق والحل النحاسية التى كان يستخدمها عبقري الموسيقى فى كل العصور.. ثم أذهب إلى دار الأوبرا التى كانت قد انهدمت ثم استأنفت مجدها العظيم فى أوائل الخمسينيات..

ثم أذهب إلى مدينة فرانكفورت على نهر الراين فى ألمانيا الغربية - هناك مدينة فرانكفورت على نهر الأودر - هنا كان يعيش أعظم الشعراء جيته وصديقه الشاعر شيلر.. وهنا كان يعيش أعظم الشعراء جيته وصديقه الشاعر شيلر.. وهنا كان يعيش جوتنبرج مخترع الطباعة.. فلا توجد مدينة ألمانية ليس بها شاعر أو فيلسوف أو موسيقار..

وكأننى استرحت إلى حاضر ومستقبل ألمانيا فلم أعد أتنقل بين مدنها.. وإنما اكتفيت بأن أشارك فى المعرض الدولى للكتاب فى مدينة فرانكفورت.. وأشعر أن هذه هى سوق عكاظ الحديثة.. فكل عظمة ألمانيا تنتقل جميلة منظمة أنيقة عند أطراف أصابعى.. وكلها تدعو للحياة والحرية.. أى أنها تحصن نفسها ضد الدمار والطغيان.. ضد أى هتلر من أى نوع.. إذن لقد استردت ألمانيا عقلها، وأوربا كلها عظمتها وسلامتها وشفيت من وخز الضمير.

وإذا كان أحد يبكى، فالفلاسفة.. ويكأء الفلاسفة له مذاق عميق.. فهم يكون على الذى أصاب الدنيا كلها: طعمها على لسان الشاعر والفنان والموسيقار.. وأنه لا أمل فى أن تخطو إلى المسار الصحيح دون أن تعرف ماذا حدث؟ ماذا جرى لنا؟ حتى لا يقع مرة أخرى..

ولم يكن هذا شعور الألمان وحدهم.. بل كل أبناء الحضارة الغربية فى فرنسا وفى بريطانيا وفى الدانمارك وفى إيطاليا أيضًا.. ولذلك كانت الفلسفة والأدب وعلم النفس قد اختارت اللون الأسود ومشتقات المرارة والحزن رمزًا للوحة اسمها: الوجود والعدم!

٤ . هتلر المنوم

المغناطيسي البهلوان!

لا أنسى أول غرفة نزلت فيها بمدينة ميونخ بعد الحرب مباشرة.. البيت هدمته القنابل نصفه بالطول؛ فالشقة ثلاث غرف ودورة مياه. وغرفة النوم بها سرير كبير يملأ معظم الغرفة وبها مقاعد ودولاب للأطباق والأكواب.

وصورة لصاحب البيت على الحائط.. ودولاب آخر للملابس وفي ركن من الغرفة إبريق وطشت.. ولم أكد أدخل غرفتي حتى جاءت صاحبة الشقة.. وفي منتهى الأدب والرقّة والوقار قالت لى: إنها هى التى سوف تملأ الإبريق وهى التى سوف تساعدنى على غسل يدى وساقى ووجهى فى الصباح بالماء.. وأنظر إلى وجه السيدة فأرى فيه كل الفلاسفة والموسيقيين الألمان، وأرى فى قوامها الطويل كل جنرالات الحرب وفى عينيها وشفتيها وصوتها وأناقتها البسيطة كل مفردات الجمال الجرمانى..

وكل شىء فى البيت هو بقايا بيت.. حتى السيدة هى بقايا أسرة.. فقد مات زوجها وابنها وزوج ابنتها فى الحرب.. أما ابنتها الثانية فقد هاجرت إلى أمريكا.. وأما ابنها فهو يعيش فى مدينة أخرى ويزورها من حين إلى آخر.. أما هى فكنت أقول لها: فقط دعينى أجلس على الأرض أمامك وقولى لى ماذا حدث لبلادك..

وكانت تقول.. وتقول كلاما يوجع القلب، ويحطم الرأس.. ولكن قلبها لا يزال قويا، ورأسها لا يزال شامخا.. وهى على يقين - وكل الألمان - من أنها وأنهم سوف يعيدون بناء كل الذى انهدم، وبصورة أجمل وأروع. فقد بهروا الدنيا فى الحرب، وسوف يبهرونها فى السلام.. صدقت!

وكنّت أشعر بحرج فظيع فى كل مرة تدق بابى وتقول: حان وقت النظافة.. وتصب الماء على يدى وساقى ووجهى..

أخيراً اهتديت إلى الحب فى محطة سكك حديد ميونخ كل ما يتمناه الإنسان..

إنها محطة جميلة ضخمة فخمة.. ففيها المطاعم والمخابز وأهم من ذلك دورات المياه والحمامات الأنيقة النظيفة.. فمن الممكن أن يعيش الإنسان في هذه المحطة. وعشت فيها.. ودعوت السيدة «إلزه» صاحبة البيت إلى إفطار وغداء وعشاء هناك.. ويوم ذهبنا لسماع الموسيقى في أحد المطاعم المحترمة.. لم تكن عندي كرافطة.. ولكنها بسرعة سحبت حزاما أسود من فستانها، والتف حول عنقي وكان كرافطة.. ووضعت يدي في يدها في ذراعها حولها ودخلنا.

أما «وولدا» - ليتها كانت أُمي.. وكل شيء عندها له قصة وله حكاية.. فكل شيء تاريخ.. الشارع والبيوت والمطاعم والكنائس والأشجار وما تبقى من الخيول.. وهذا ابن فلان وهذه بنت فلانة.. ولو كان هتلر عاش طويلا، لكان كذا، ولو مات قبل ذلك، لكان كذا.. ولكن دماء كثيرة أريقت وبيوتا أكثر انهدمت.. وملايين الشبان من حقهم أن يعيشوا ماتوا غرياء في جليد روسيا.. كابوس استولى على ألمانيا.. ذهب أكثره.

والباقي لا يزال على شكل دموع وآهات وأحلام ويقظة وآمال وخوف وقلق وسوء ظن بكل الناس، وعزلة مروعة..

في يوم ضبطتها تدخل غرفتي وتنظر إلى الصورة التي على الحائط وتهمس.. كأنها تصلى لزوجها أو تدعوه.. أو تلومه.. لا أعرف.. لكنها لا تكف عن ذلك.. إنها لا تجد أحدا تحدثه إلا ماضيها المعلق على الجدران أو المنهار في الشوارع! ولم ألاحظ أن أصبعين من يدها اليسرى ليسا هناك.. ولم أسأل وقالت: إنها شظية.. ولم أر من الأحياء في ميونخ أحدا ليس مصابا في يده أو في رجله أو في رأسه أو في قلبه.. إنهم البقايا الحزينة على الذي راح منها.. والسيدة «إلزه» خائفة على الذي تبقى.. قلقة على الذي سوف يكون.. أو يجب أن يكون!

قرأت هذه العبارة للكاتب الألماني المعاصر ادورنو: عندما تكون غريبا في بلد فليس أمامك إلا أن تطالع وجوه الناس فقط وتقارن بين الملامح دون أن يكون لديك هدف.. أو بين العيون أو بين الأنوف أو بين الأحذية.. أو كيف يمضغون. دون أن يكون من أحلامك أن تضع نظرية للسلوك الإنساني.. فقط لاحظ.. راقب.. اضحك.. بدد نفسك بين الوجوه.. احشر نفسك في الزحام.. وفي هذا الزحام تضيع مشاعرك وفي ذلك راحة لك.. إنها المرحلة الأولى من مراحل «الاستيطان» بين الناس - وبعد ذلك تجيء الألفة. وبعد ذلك الصداقة والمودة لقد جربتتها كثيرا واسترحت إلى ذلك. فعلت ذلك. ولم أسترح. فأنا أريد أن أفهم..

ففى مواجهة هذه الكوارث العظمى للدولة؛ هناك نوعان من التعبير:
واحد يصف لك ما حدث..

وواحد يتجاوز ما حدث ويعبر عن الذى يجب أن يحدث..

واحد يتجه إلى الماضى..

وواحد يدير ظهره للماضى.. كفى. ويتجه إلى المستقبل..

واحد استغرقه الذنب والندم.

وواحد استولى عليه التسامح والرحمة والأمل فى الأفضل، وكفى بكاء على

الذى مضى.. ويدعو إلى العمل والعرق للخلاص من الذى راح ولن يعود، وانشغالا

بتعويض ذلك فيما سوف يجىء..

وقد ينجح الأدباء والفنانون والساسة فى تصوير الواقع.. وقد يفشلون بسبب

التكرار والتشابه والكلام عن المعنى الواحد والحزن الواحد. ولكن استعداد الناس

لسماع ما حدث بصورة مختلفة، معناه رغبة الناس فى البكاء والحزن وتعميق

الشعور بالألم وتعذيب النفس أيضا.. وهذا هو المزاج العام فى أعقاب الحروب

والكوارث الطبيعية والنكبات الإنسانية الكبرى. فبدلا من أن يخفف الإنسان عن

نفسه فإنه يعاقبها كأنه مسئول عن الذى حدث.. أو كأنه بسبب غروره، يعز عليه

ألا يكون مسئولا عن كل شىء مهما كان مصدره الأرض أو السماء.

أو بعبارة أخرى هناك نوعان من الأدب والفن.. أو من الثقافة: ثقافة الأزمة..

وأزمة الثقافة..

ثقافة الأزمة: هى أن يعبر الأديب والشاعر والفنان والموسيقيار عن أوجاع

الإنسان وأن يصورها ويعمقوها. فليس أمام الناس بعد الحرب العالمية الثانية

إلا نفس صور الدماء فى الحرب العالمية الأولى..

فكأن الدمار مستمر.. وكل ما فعله الإنسان أنه اعتبر فترة السلام هدنة.. فترة

لتطوير أسلحة الموت تمهيدا لدمار أعنف.. فالإنسان بعقله وعلمه قد قضى على

العقل وعلى العلم.. فالحرب هى القانون.. هى القاعدة ووقف إطلاق النار، والهدنة

والسلام هى الاستثناء فى هذه القاعدة.. والإنسانية قد أمضت معظم تاريخها فى

الحروب والاستراحة منها، والاستعداد لحروب جديدة.. فثقافة الأزمة هى أدب

الموت وفن القلق وموسيقى العزلة.. أما الألوان فهى الأسود والرمادى والأزرق..

لون الفحم ولون الدخان ولون النوافذ مانعة الضوء.. ثم إنه اليأس والمرارة.. يأس

الإنسان الحر العاقل من الإيمان بأية نظرية.. فالنظريات والفلسفات الشاملة هى

التي أفرزت النازية والفاشية والشيوعية.. فكل الدول الشمولية قد وضعت على رأسها الطغاة والسفاحين: موسوليني وهتلر وستالين.. ولذلك فالإنسان لن يعود إليها أبدا. يجب أن يؤكد حريته وفرديته واستقلاله ونفوره من القوى الغاشمة التي «تسلط عليه وتحوله إلى ذئب يحمل مدفعا ويمتص دماء الآخرين.

فما الذي يملأ المدن؟

الموت!

وما الذي ينقذ الإنسان من الإنسان؟

الضمير!

وما الذي يعرفه الإنسان بعد حرب وحرب وقبل حرب؟

لا يعرف شيئا مؤكدا. وهو لا يريد أن يستسلم للعرافين والنصابين والأفاقين من رجال السياسة ورجال الدين. فقد تعب ولا يزال..

وما هذا الذي يربط بين الناس؟

إنه الكلام.. الحوار. ولكن ما مدى صدق الكلمات؟ كلها فارغة وكاذبة. وما جدوى الحوار؟ إنه يزيد الإنسان عزلة. فكل شيء لا معنى له.. ولا ضرورة ولا جدوى. ولا أمل!

هذه هي الثقافة التي تعبر عن أزمة الإنسان.. التي اختارت اللون الأسود؛ لأنه لون الفحم.. واللون الرمادي؛ لأنه لون الدخان.. وأختارت الظلام؛ لأنه ضياء القبر.. واختارت العزلة مثل شواهد القبور..

أما أزمة الثقافة: فهي عندما يشعر الإنسان أن الذي يقرؤه ليس كافيا. وأنه تكرر ممل. وأن الأدباء يسرقون الشعراء. والشعراء ينهبون الرسامين، وأن الساسة يختصمون الجميع.. وأنهم جميعا مفلسون. لا يقدمون شيئا له قيمة.. لا طعاما ولا شرابا ولا أملا.. وأنهم فقط يندسون وسط الناس ويستعيرون دموعهم ويبكون.. وأنهم لا يرون جنازة إلا تقدموها وكأنهم من أهل الفقيد.. ولا يسمعون طبول الفرح.. حتى يسبقوا إلى تلقي التهنئة بالزفاف السعيد، كأنهم من أهل العروسين.. وإذا ذهبوا إلى الكنائس سارعوا فحفروا لأنفسهم عبارة أو عبارتين على لسان القسيس حتى يضمنوا لهم مكانا في الجنة.. ما الذي قالوا؟ لا شيء.. ما الذي وعدوا به؟ لا شيء.. ما الذي تطوعوا به لإنقاذنا؟ لا شيء..

ويشعر المواطن في أعقاب الحروب والنكسات أنه وحده.. وأن أصحاب الرسائل قد تخلوا عنه.. تركوه يجتر العذاب والهوان..

حدث ذلك فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية.. وفى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وروسيا.

وحدث فى بريطانيا بعد العدوان الثلاثى على مصر.. وفى مصر بعد الهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧.

وفى أمريكا بعد ضرب اليابان للأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور.. وبعد هزيمتها فى فيتنام..

ولكن الدولة القوية هى القادرة على أن تجدد نفسها.. وأن تصلح عيوب السفينة وهى لا تزال فى المحيط وأن تمد الطائرات بالوقود وهى فى الجو.. وكما يحدث فى سفن الفضاء فإن الرواد يخرجون من سفنهم ويصلحون ما بها من خلل، وهم يدورون حول الأرض.

ولذلك فإن ألمانيا بسرعة وقفت.. نهضت.. تقدمت كل الدول التى احتلتها وهدمتها وسرقت مصانعها ومسحت بكرامتها الأرض أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا..

وكذلك اليابان التى لا تزال محتلة فقد تقدمت على أمريكا وعلى كل الدول الأوربية.. وآخر نكتة نشرتها الصحف الأمريكية عن الأثر الفظيع الذى تركته الصناعات اليابانية على السوق الأمريكية تقول: إن الرئيس بوش نام ثلاث سنوات. وعندما صحا سأل نائبه: ما الأخبار؟ فقال له النائب: كل شىء على ما يرام.. لا بطالة. ولا تضخم.

فسأله بوش: وكم سعر الرغيف الآن. فأجاب النائب: فقط ثلاثون ينا يابانيا! وعندما أطلق الأمريكان والروس سفن الفضاء، كان العلماء الألمان هم الذين أقاموا صناعة الصواريخ وسفن الفضاء فى الدولتين ولذلك يقال: إن قمرا روسيا التقى بقمر أمريكى. وتكلم القمر الأمريكى بالإنجليزية، فلم يفهم الروسى وتكلم الروسى بالروسية فلم يفهم الأمريكى.. وأخيرا نطق الاثنان فى وقت واحد: فلنتكلم الألمانية!!

وبعد عشرين عاما عدت إلى ميونخ أبحث عن السيدة «إلزه».. حاولت كثيرا جداً.. وساعدنى رئيس تحرير إحدى الصحف. فقد حملت لها معى نماذج لعدد من التماثيل الفرعونية.. وجليابا ريفيا ونموذجا لشادوف وعددا من الجعارين.. وأخيرا وجدتھا فى إحدى ضواحي ميونخ.. إنها تسكن فى بقايا بيت جميل.. وجدتھا جالسة فى الشمس.. ما الذى فعله الزمن؟ فى وجهها وفى ركبتيها.. ولم أكد أقرب منها حتى رفعت المنظار عن أنفها ونادتنى وهى تقول: لسبب غامض كنت أتوقع مجيئك.

وسحبت عصاها وطلبت منى أن أساعدها على الوقوف.. على الدخول فى شقتها بالدور الأرضى.. وقد امتلأ الحائط بصور الأسرة.. الذين ماتوا والذين عاشوا.. والأحفاد.. ومناظر من أمريكا ومن الأرجنتين وصورة لى - ولم أكن أعرف ذلك.. وتسللت السيدة «إلزه» تصنع لى القهوة.. ومددت يدي إلى الكتب.. أكثر الأسماء لا أعرفها. إنهم أدباء وشعراء وألمان جدد.. وبعض الفلاسفة القدامى.. وبسرعة قالت لى لا أحب هؤلاء إنهم مثل: أناس يكتبون أبياتاً من الشعر على روستات الأطباء..

أى أنهم يضعون كلمات موسيقية حول تشخيص الطبيب ولكنهم لا يفعلون أكثر من ذلك.. وقالت: إنهم مثل فرقة موسيقية بارعة الأداء ولكن كل ألحانها جنائزية.. لقد مللنا الحزن.. نريد شيئاً بهيجاً فلماذا يحرص هؤلاء الأدباء على أن يتجاهلوا الشباب؟ الشيوخ أمثالى لا يقرأون والشباب لا يحبون ذلك.. فلمن يكتبون؟! إنهم يكتبون للثنيين، للشيوخ والشباب..

فقد لاحظ أدباء ما بعد الحرب أن الشعب الألمانى يحاول أن ينسى بسرعة.. يحاول أن يقف.. أن يؤكد لنفسه أنه قادر على أن يكون خيراً، بعد أن كان شريراً.. أن يبني نفسه كما هدم نفسه.. ولكن فى نفس الوقت لا يستطيع أن يخلع نفسه من ماضيه.. فالماضى هناك.. وكما كان الفيلسوف الألمانى العظيم «كنت» يحب أن ينظر إلى العمارات المهدمة؛ لكى يبني صرحاً فلسفياً، فالشعب الألمانى هو حفيد هذا الفيلسوف العظيم فلا شئ يحفره إلى البناء إلا هذه البيوت المهدمة.. ولا شئ يدعو به إلى الحياة إلا هذا الموت لعشرات الملايين للشباب الألمان ولأربعين مليوناً آخرين فى كل أوروبا وشمال إفريقيا.

ثم إن الحلفاء يريدون أن ينهض الشعب الألمانى ليحمل عنهم عبء إطعامه وإنعاشه حتى لا تكون بطالة وحتى لا تؤدى البطالة إلى انتشار الشيوعية وسيطرة الروس على ألمانيا الغربية كما استولوا على ألمانيا الشرقية.. وكل أوروبا الشرقية.. ولم تسمح دول الحلفاء للألمان أن يكون لهم جيش.. وبذلك وفروا على الألمان إنفاق ملايين الملايين على صناعة السلاح وتطوير السلاح.. فاتجه الألمان إلى إنشاء قوات بوليسية وأما بقية الملايين من الشباب والرجال فإلى زراعة الأرض والمصانع..

فنهضت ألمانيا بسرعة فائقة.. ولم يعد «تضايقهم كثيراً تلك الأفلام الأمريكية التى تصورهم وحوشاً مصاصين للدماء.. أو قطيعاً من الأغنام تمشى وراء

جزارها العبقري هتلر.. فقد اعتادوا على هذه النكتة السخيفة وأصبحوا يملونها.
وانقلبوا هم أيضا يسخرون من الأمريكيان والإنجليز والفرنسيين والروس..
ولكن الفلاسفة الألمان - هيدجر زعيم الوجودية - مازال يرى أن الحزن
والياس في أعماق كل ألماني.. فأثار الحرب العالمية الأولى لم تختف في ويلات
الحرب العالمية الثانية.. بل إنها أثمرت وأورقت وأزهرت وأظلت اليائسين من أن
يكون في الدنيا سلام.. إن الحزن هناك عميق والياس هناك.. والمرارة.. والضيق
من الهوان الذي لحق بالألمان.. والفلاسفة يخافون أن تعود إلى ألمانيا رغبتها
في الانتقام فتكون حربا ثالثة.. من نوع جديد.. وحتى إذا لم تشعل هذه الحرب
فإن الرغبة فيها قوية.. والاستعداد لها عظيم.. ولذلك ظهرت في ألمانيا أحزاب
سياسية متطرفة.. تشيد بالعظمة الألمانية ورغم كل محاولات تمزيق ألمانيا
وهدمها معنويا فإن الألمان استطاعوا أن يقيموا لأمجادهم التماثيل في الأدب
والفن والموسيقى وأن تظهر دراسات تاريخية تبرئ الألمان من جرائم هتلر.. بل
تبرئ هتلر نفسه.

ويدخل الألمان عالم الأسلحة بحذر منهم، وضوابط شديدة من الأمريكيان..
ولكنهم صنعوا أسلحة جديدة وباعوها وطوروها.. وفعل اليابانيون أيضا..
واستطاع اليهود أن يعاقبوا الألمان عقابا صارما.. فجعلوهم يدفعون التعويضات
الفادحة عن كل قتيل.. ويساهمون بالمال وبالقوة في بناء دولة إسرائيل.. ولا يزال
عدد كبير من اليهود يفرح من مجرد ذكر كلمة ألمانيا ويفرح أكثر إذا ذكرت كلمة:
هتلر.. وكثير من يهود العالم لا يطيق ولا يتخيل أن يسافر إلى ألمانيا لأي سبب..
فهتلر قد أحرق منهم الملايين.. وإذا كان هتلر قد أحرق ثلث الشعب اليهودي، فإنه قد
أهلك ثلث الشعب الألماني وربع الشعوب الأوروبية.. في حرب واحدة..

وإذا كان هتلر وفيلسوف النازية ألفرد روزنبرج قد وضعوا الشعب الألماني
فوق كل الشعوب، فإن الفلاسفة الألمان الآخرين قد وضعوا الشعب الألماني دون
كل الشعوب: حزنا وياسا وعزلة ومرارة وخوفا من أنفسهم..

يقول أستاذنا الفيلسوف الوجودي مارتن هيدجر وهو يتحدث عن هتلر الذي
هدد بطرده من الجامعة: يومها قررت أن أنجو بالقليل الذي معي إلى أي بلد آخر..
ولم أكن أملك في ذلك الوقت إلا حريتي.. وإلا رغبة صادقة في أن أقول للألمان
ما الذي سوف يلقونه على يدي هذا المنوم المغناطيسي البهلوان..

٥ . ده هتلر

إلى الطوفان إلى الوجودية!

(١)

فى زحام الشوارع الناس يدوسون الناس ولا يعتذرون.. لأن الزحام يفرض العنف وقلة الذوق. والناس فى الزحام لا يمشون فى خطوط مستقيمة وإنما هم مثل النمل يتلامسون ويتخبطون.. وإذا نظرت إليهم من النافذة وجدت حشدا متجها إلى كل ناحية ولكن كل واحد له هدف، والهدف فى دماغه هو.. وتجد هذا يمشى بسرعة ويتوقف.. وهذا يتوقف وفجأة ينطلق كأنه اهتدى إلى هدف أو كأن ذاكرته قد عادت إليه فجأة..

والسيارات هى الأخرى يهدد بعضها البعض.. فكل واحدة تريد أن تسبق الأخرى.. وتهدها بالاصطدام إن لم تفسح لها الطريق.. والسيارات تهدد المشاة.. والمشاة.. يعترضون السيارات ويهددونهم أيضا.. إن هى داست واحدا منهم فهى مصيبة له وتعطيل لكل السيارات.. ولا يهم المشاة ماذا يحدث لهم لو أن سيارة داست واحدا منهم المهم أنه يريد أن يقطع الشارع وأن يمضى إلى هدفه.. أو بحثا عن هدف أو يأسا من أن يكون له هدف فى الطريق أو فى الحياة.. والسير فى الشوارع وعلى الأرصفة، كالسير فى الحياة: حظوظ.. فتجد إشارة المرور قد انقفلت لواحد كان بليدا متلكئا.. وسيارة كلما اقتربت من إشارة مرور أصبحت خضراء.. وسيارة كلما اقتربت من إشارة مرور أصبحت حمراء.. وسيارة قديمة لا تصطدم بأية سيارة أو بأى أحد.. وسيارة جديدة اصطدمت عدة مرات فى أول خروج لها.. حظوظ..

والناس يمشون فى الزحام كأنهم نيام.. لا أحد ينظر.. لا أحد يسمع.. وإنما هم يتفادون بعضهم البعض.. أو يتخبطون وكأنهم لم يفعلوا شيئا.. كأنهم قطع من الحجارة.. أو كأنهم إنسان آلى يحركه من بعيد شخص ما.. أو عفريت ما.. ولا

نعرف إن كان الناس قد تركوا بيوتهم أو أعمالهم ليمشوا دون هدف.. أو ليستريحوا من قرف البيوت وقرف المكاتب.. أو كأنهم قرروا أن يموتوا سيرا على الأقدام، بدلا من أن يموتوا نوما على مكاتبهم أو غيظا وكمدا من زوجاتهم وأولادهم..

(٢)

وفجأة يحدث انفجار.. فردة كاوتش.. أو خروج العادم من الماسورة أو سيارة اصطدمت بسيارة أخرى.. إنه صوت كأنه كرياج ضرب آذان كل هؤلاء الناس.. كأنه عصا موسى شقت بحر الزحام نصفين.. كأنه سقوط كويرى تحت أقدام الناس.. كأنه الشارع نفسه قد انهار.. كما تنهار التربة بسبب المياه الجوفية.. أو كأن الشارع فى حالة «ترييح» كالعمارات الجديدة فمال على أحد الجانبين.. وفجأة يتوقف الناس.. وينظرون إلى مصدر الصوت.. كأن الناس كانوا فى حاجة إلى لحظة هدوء.. أو فترة استرخاء.. أو وقوف اضطرارى.. إلى أن يفيقوا من الدوخة.. ويفرك الناس عيونهم ويدلكون آذانهم.. فالصوت أيقظهم.. نبههم.. أضاء لهم.. مسح لهم الزجاج.. أزال القطن من آذانهم.. كأن الصوت هو دقات المسرح المعروفة.

وانفتح الستار فوراً ليرى الناس بعضهم البعض.. ويتذكرون أن لهم هدفاً أو أن لهم طريقاً.. هذا الصوت قد أنعش الناس.. وبعد الصوت ينشط الناس.. ويسرعون فى الحركة.. وبعد الصوت ينحرف الناس جميعاً إلى اليمين.. إلى اليسار.. كأنهم اكتشفوا فجأة أنهم لم يكونوا على الطريق الصحيح.. فالصوت تصحيح مفاجئ لهم جميعاً..

(٣)

وقد لا يشعر أحد بهذا الصوت مع أنه قريب منه.. فقد اعتاد على ذلك.. ووقوفه ونظرته إلى مصدر الصوت لا معنى له.. فقد حدث الصوت.. وليكن ما يكون.. كاوتش انفجر.. سيارة احترقت.. سيارة حطمت سيارة.. أحد مات.. أحد لم يمت.. إن هذا يحدث كل يوم.. وإحساس الناس به لا يُقدّم ولا يؤخر.. والناس يقولون: ألا يكفى أن عنده سيارة.. وأن الواحد منهم لا يملك إلا جزمته.. التى هى سيارته وأنه إذا انكسر فسوف تتحطم قدمه.. أما أصحاب السيارات فيحميهم جسم السيارة.. فهم حتى إذا تصادموا محظوظون.. لا يموتون.. ولا يتعطّلون

وإنما يتوقفون.. ثم يجدون قطع غيار لكل ما تحطم.. أما صاحب الجزمة فليست عنده قطع غيار..

بل مثل هذه الأصوات هي التي تريح أعصاب كل واحد من المشاة.. هي التي تجعله ينام وهو يمشى، ويمشى وهو ينام.. تماما كراكب القطار اعتاد على صوت العجلات فوق القضبان.. إن صوتها الرتيب يساعده على النوم.. والفلاح ينام على صوت الساقية.. والطفل ينام على دقات قلب أمه.. فقد اعتاد عليها منذ كان جنينا.. ولو سكنت الأصوات فجأة لوقع الناس على الأرض.. فأذانهم تتساند على الأصوات.. ولو انسحبت الأصوات لكانت كالعصا التي يتوكأ عليها العجوز.. أو المريض إذا انسحبت وقع.. فالأصوات كالدريزين يتساند عليه الصاعد والهابط.. كالجدران والمقاعد يتساند عليها الطفل الذي يتعلم المشى..

(٤)

وبعض الناس يتجهون إلى مصدر الصوت.. كأنه دقات على باب.. وهم واقفون وراء الباب ينتظرونه.. فلما جاء ذهبوا إليه.. يريدون أن يعرفوا ماذا حدث.. وكيف حدث.. ولماذا؟ لا يهتمون شخصا بما حدث. ولكن الذى حدث قد خلق لهم شيئا يهتمون به.. ويدورون حوله.. لم يكن لهم هدف، فأصبح لهم هدف.. لم يكن لأفكارهم موضوع يدور حوله، أصبح لها موضوع.. أصبح لها قوة جذب تشدها.. وتشدهم.. فهذا الحادث كأنه جزيرة المغناطيس التي وصفتها «ألف ليلة» - تسحب كل السفن.. وتسحب من كل السفن المسامير والأعواد الحديدية.. فإذا هي ألواح خشبية طافية.. لقد جردت السفينة من كل ما يربط ألواحها.. من كل ما يجعلها سفينة وكذلك هؤلاء الناس.. جردهم الحادث من كل ما هو إنسانى.. فأصبحوا ألواحاً عائمة.. لا حس ولا عقل.. ولا قلب.. فقط أجسام طافية على سطح الضوضاء.. وبدلاً من أن يتعاطف الناس مع الحادث وأطراف الحادث والمصابين فإنهم يشعرون لهم بالامتنان. ومن مظاهر الامتنان هذا الوقوف.. هذه الفرجة دون أن يفعلوا شيئاً أو حتى يحاولون ذلك.. فالحادث قد أعطاهم هدفاً.. قد جعل لوقوفهم معنى.. فالحادث حولهم من آلات يسوقها الزحام إلى بشر تخرج على الزحام وتتخذ لها وجهة أخرى.. ثم تذهب إلى مكان الحادث وتقف وتنظر وتتحدث عن الذى جرى.. وكأنهم يشاهدون فيلماً دون أن تكون لهم قدرة على اعتراض مسار الأحداث.. أو الأخذ بيد الضحايا..

والامتنان هو شعور الناس بالإشباع.. بأن جوعا قد ذهب، وأن توترا قد انتهى.. وأن ضبعا قد تلاشى..

أما إذا كان الحادث صغيراً تضايق هؤلاء الناس.. لأنه أراحهم لحظات وكانوا يريدون أن يظلوا هكذا وقتاً طويلاً.. ثم إنهم يتضايقون من ذلك.. فالحادث قد خدعهم.. فقد جرحهم من آخر الشارع يزاحمون ويضاربون ليروا ويتوقفوا وينشلهم من الضياع والضوضاء، فإذا به حادث صغير تافه.. لا يستغرق إلا لحظات ويعدها يجب أن يستأنفوا السير.. وقد يدفعهم الضيق إلى اتخاذ موقف عدائي من سائق السيارة.. وهذا الموقف العدائي يجعلهم ينظرون إليه باحتقار أو بشماتة.. فيقول الواحد للآخر: يستاهل.. هل لأنه لديه سيارة يدوس الناس.. وهو ماذا كان قبل ذلك؟.. إنه من تجار المخدرات إننى أعرف أباه وجده! كانوا بوابين.. فلما الحشيش أعطاهم كل ذلك، أرادوا أن يقتلوا الناس..

ويقول واحد آخر: يا عمى ده تلاقى أبوه وزير ولا حاجة.. والواحد من دول يطلع فى التلفزيون يتكلم عن الأدب وعن الأخلاق وعن المسئولية وعن الحرية والرأى الآخر.. يجى بقى يشوف الرجل الآخر الواقع على الأرض ودمه سايح.. وواحد ثالث يقول: تلاقى الغلبان رايح يدور على رغيف طباقى.. تلاقيه رايح يقدم لابنه فى المدارس اللي بيقلولوا عليها مدارس خاصة.. يا ناس يا هوه.. الحضانة بفلوس والجامعة من غير فلوس.. ومش عاوز الناس ترمى نفسها تحت العربيات، لا.. مش قضاء وقدر.. ده انتحار يا ناس.. ده راجل عاوز يخلص من حياته.. آه والمصحف.. وواحد رابع يقول: يعملوها الأمريكان يموت فيها المصريون.. السيارة دى صناعة أمريكية ثمنها نصف مليون.. زلمكة يعنى.. الصين هى البلد الوحيد اللي الناس فيها تركب البسكليت.. آه لو كانت ضربته بسكلته مش كان قام على رجليه دلوقت.. شعب فقير بيحلم بالرأسمالية الأمريكانى..

وواحد خامس يقول: يا ناس بدل الغلبة دى واحد يمد إيدته للراجل.. يساعده يا ناس.

وواحد سادس: ويعنى هوه كان مد إيدته لمين؟

وصوت يقول: الراجل حيموت يا جدعان..!

وصوت يرد: كلنا حنموت يا ابا.. يمكن ده حيلاقى حد يعمل له جنازة.. واحنا

كلاب اتولدت وكلاب ماتت.. قول يا باسط..

ورجل بلحية يقول: أموال مسروقة.. والله سبحانه وتعالى يمهّل ولا يهمل.. لو كان يعطى الزكاة.. لو كان يعطف على الفقراء.. لو كان يرعى الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. ياللّه بينا.. خرينا فى حالنا.. الوقفة دى عطلتنا.. عطّلونا فى الحياة وفى الموت.. الله يخرّب بيوتهم.. أهو أنا اتخرّب بيتى النهاردة.. واقف هنا من ساعة والشهر العقارى زمانه قفل.. الله يخرّب بيتك ياللى فى بالى.. الله يخرّب بيتك!!

(٥)

وأمام أحد محلات البن يقف اثنان من المثقفين يقول أحدهما للآخر: إنها مغامرة.. كل شىء فى الدنيا مغامرة.. وبقدر المغامرة بقدر العذاب فى هذه الدنيا.. فالذى يمشى على قدميه يدوس الناس ويدوسونه.. والذى يركب سيارة تصدمه السيارات الأخرى.. والذى يركب طائرة لا ينزل إلا فى المطارات وبعد ذلك يركب السيارة إلى البيت.. ثم يمشى على رجليه من الجراج إلى البيت.. والذى يعبر النيل فى زورق.. والذى يعبر البحر فى باخرة.. وكلها مغامرات فى البر والبحر والجو..

وكل مغامرة لها قواعد يجب أن نقبلها منذ البداية.. ومادمنّا قبلناها فلا يصح أن نشكو فإذا مشيت فى الشارع لا يصح أن نتخانق مع الناس الذين يضربونك بأذرعهم أو يدوسون قدميك إنها شروط مغامرة المشى التى اخترتها والتى قبلت متاعبها.. ولاعب الكرة الذى ينزل إلى الملاعب يعلم قبل أن ينزل أنه من الممكن أن تنكسر رجله ورقبته.. ولا يستطيع أن يقاضى لاعبا.. ولا يستطيع الجمهور أن يلومه أو يدينه إنهم جميعا قد قبلوا شروط وقواعد هذه اللعبة، وإذا أحرز هدفا صفقوا له.. وإذا لم يحرز صفقوا له لأنه كان سببا فى فشل الفريق وسببا فى إيدائهم.. وأنه سدّد هدفا وهدفا ثم وقع فى الملعب.. يتلوى.. وظل يتلوى وتعطل اللعب.. فإن الجمهور يطالب الحكم بإخراجه من الملعب لأنه أفسد عليهم متعتهم.. والحادث التاريخى الشهير لمحمد على كلاًى ملك ملوك الملاكمة فقد استطاع أن يهزم خصمه بالضربة القاضية بعد دقيقة من المباراة - أى حقق لعشاقه أعظم انتصار.. ولكن الناس تضايقوا منه.. فقد استعدوا لهذه المباراة أياما وجاءوا لها من بلاد بعيدة.. وحجزوا لهم غرفا فى الفنادق وتحدثوا عن الذى سوف يحدث وتراهنوا.. وذهبوا استعدادا للاستمتاع بالفن والبراعة.. وفجأة انتهت المباراة..

فثاروا على البطل.. لا لأنه لم ينتصر ولكن لأنه حرمهم من متعة الإثارة.. ولكنها قواعد اللعبة.. وشروط المغامرة.. وحادث الممثل الكوميدي الأمريكي الذى مات على المسرح فى المشهد الأول من الفصل الأول.. وجاء مدير المسرح يعلن وفاته.. وحزن الناس ومعظمهم بكى عليه.. ولكن لم يتقدم واحد من المشاهدين يطلب تأجيل العرض المسرحى.. حدادا على البطل المحبوب..

وإنما أظلم المسرح لحظات ثم استأنفت المسرحية أداؤها واستأنف الناس الضحك. فهناك ممثلون آخرون يجب أن يعملوا.. وهناك شركة تنفق على المسرح.. وهناك أناس يجب أن يضحكوا غداً وبعد غد.. إنها قواعد المغامرة المسرحية.. أن تستمر حتى لو مات البطل أو المخرج.. أو المدير أو صاحب الشركة المسرحية.. ويجب ألا يتهم أحد جمهور المسرح بالحيوانية أو القسوة.. إنها قواعد المتعة الفنية والشركة التجارية. والحياة يجب أن تستمر رغم تساقط أى واحد من الناس! ولذلك يجب سحب السيارة من الشارع.. وسحب الناس من تحتها.. لأن بقية السيارات تطلق أصوات التنبيه غضبا وسخطا.. فالسيارات يجب أن تمضى.. والشارع يجب أن يتحرك.. والناس يجب أن ينطلقوا إلى هدفهم.. ولا معنى لأن تتوقف الحياة من أجل أحد أيا كان هذا الأحد..

ويرد عليه زميله دون أن ينظر إليه أو حتى يلاحظ أنه لم يفرغ من كلامه بعد.. كأنهما يتحدثان من نافذة سيارتين متجاورتين.. بعد أن طال الوقوف: أنا لا أعرف بالضبط ماذا كنت تقول ولكنى أرى أن الحياة لم تعد تطاق.. الناس ضاقوا بالحياة، الناس لا يريدون أن يعيشوا وفى نفس الوقت لا يريدون أن يموتوا.. كالأزواج لا يريدون الطلاق ولا يريدون الحياة معا.. إنهم يكذبون على أنفسهم إذا تظاهروا بالتمسك بالحياة.. ويكذبون علينا إذا تظاهروا بأنهم يتعجلون الموت.. كله كذب.. الحب كذب.. والإخلاص كذب.. والإيمان كذب.. والعملات التى فى أيدينا مزورة.. والتى ليست مزورة ليس لها غطاء ذهبى.. والذهب نحاس.. والنحاس خرقة.. كله كذب.. زوجتك تكذب عليك.. لا تصدقها.. وابنتك تكذب عليك إنها تريد فلوسك.. وأنت تكذب على زوجتك.. هذه المقاهى لم تظهر فى الدنيا إلا لأن الناس وجدوها الملجأ الوحيد من غم البيوت.. على المقهى يجلس الناس لا يكلمون بعضهم البعض.. فقط يريدون الصمت.. بعد أن عذبتهم زوجاتهم.. فرينا سبحانه وتعالى عندما جعل مظاهر الأنوثة تبرز عند

المرأة.. جعل شيئاً آخر يبرز ولكننا لا نراه إلا فيما بعد: لسانها.. لسانها كرباج.. لسانها سوط عذاب.. لسانها حبل مشنقة للزوج فقط.. والذين لا يجدون مكاناً على المقهى.. يجلسون فى سياراتهم ويدورون بها.. لا يسمعون ولا يرون ولا يريدون أن يكلموا أحداً.. إن الحادث فى أى شارع ليس إلا نوعاً من التصفيق ينادى به رواد المقهى.. على رجال الأمن أو رجال الإسعاف أو عزرائيل لينقذهم مما هم فيه.. أؤكد لك أن المغفل الذى اصطدم بالسيارة الأخرى وانكسرت ذراعاه كان يبحث عن سبب لإثارة عطف الزوجة والأولاد.. مغفل لأن عطف الزوجة كذب.. لا عطف ولا حب.. وإنما هى فرصة للكلام فى التليفون مع صاحباتها تقول: يا ما نصحته.. ياما قلت له.. أنت مستعجل على إيه.. أقعد معايا نتكلم فى حالنا.. نشوف أولادنا.. أبدأ رأسه وألف سيف أن ينزل فوراً.. مستعجل على إيه مش فاهمة.. إن كان الرجل غنياً فزوجته تحسب له الأيام التى سيعيشها لثرت ما عنده.. وترتدى فستاناً أسود أنيقاً تفكر فيه الآن.. وتفكر بعد أن تأتى بالقماش فى من تكون الخياطة.. ونوع البن الذى كان يحبه.. وأن هذه هى وصيته قبل أن يموت.. رغم أنه مات فى غيبوبة لا رأى ولا سمع ولا أوصى.. مغفل وسوف تتزوج غيره.. لأن هذه وصيته أيضاً!!!

والناس أمام الحوادث شاعر أو فيلسوف.. ويكون حادث سيارة.. ويكون زلزالاً.. أو وياً.. أو حرياً ودماراً وخراباً وانهيئاً للقيم والمثل العليا ويأساً من النجاة.. الشاعر يعايش الحدث.. يمتصه.. يجعله دماً يجرى فى عروقه.. ونورا فى عينيه.. وموسيقى فى أذنيه، وأرقاً وقلقا ومسامير يتمرغ عليها.. أو حريراً يرفل فيه.. أو قلباً يعلو ويهبط أو معدة تهضم الظل!

والفيلسوف يتساءل: لماذا حدث الذى حدث.. ثم ما هذا الذى حدث؟ هل هى إرادة الناس؟ هل هى إرادة السائق؟ هل رغبة الناس فى أن يقع ما وقع، أو أنه السائق فرض على الناس الحديد والنار والدخان والدم.. ثم مات هو بعد ذلك.. ولكنه.. لم يمت إلا بعد أن كاد يميت الناس.. وكيف لا يحدث مرة أخرى ما حدث؟ وهل من الضرورى أن يقع مرة أخرى على فترات منتظمة؟ هل هذا الانتظام هو قانون الأشياء؟ وهل هذا القانون ينطبق على الناس رغم إرادة الناس؟ هل

انتظام الأحداث قضاء وقدر.. ولاراد للقضاء ولا اعتراض على القدر.. هل الأصل أن يعيش الناس فى دوخة.. وسلام؟.. هل القاعدة هى وقوع الأحداث والكوارث والقتل والدم والبكاء أما الهدوء فهذا هو الاستثناء فى قاعدة الكوارث والمصائب؟ هل هو الملل الذى يضيق به الناس يخترعون المصائب هربا من الملل.. هل الملل أفدح من المصائب..؟ هل المصائب هى الأصل، حتى لا يمل الناس.. أو الهدوء هو العمل حتى لا يموت الناس.. هل الناس نيام حتى إذا هددهم الموت صحوا من النوم؟..

هل لابد من عزرائيل يدق الأبواب حتى يصحو الناس خوفا منه.. هل لابد أن يخاف الناس لكى يعيش الناس.. هل الناس الذين لا يعرفون الخوف هم الذين لا يعرفون معنى الحياة.. ومعنى الأمل ومعنى الهدف.. أخيرا..

هذا الذى قلته عن حادث صغير هو بالضبط ما يقال عن حادث كبير.. عن حروب وقعت وعن دمار شمل كل الناس.. عن الحرب العالمية وما أحدثته فى أوربا وآسيا وشمال إفريقيا وروسيا..

إن كل الذى ذكرت هو العناصر الأساسية والمادة الأولية لفلسفة جديدة تصف أمراض الناس وعذابهم.. وتبكيهم على أنفسهم.. ثم لا تعدهم بشيء.. فليس من شأن الفلسفة أن تعد بشيء وإنما هذه هى مهمة رجال الإصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى.

إن كل هذا الذى ذكرت ليس إلا استمارة قبول لدى الفلاسفة الوجوديين فى ألمانيا وفى فرنسا.

وأرجو أن تستحضر هذه المعانى الصغيرة الواضحة وأنا أحدثك عن الفلسفة الوجودية التى كانت الصورة المتألقة لليأس والعار الذى سحق الضمير الأوربى بعد ويلات الحروب العالمية المتلاحقة.. وصدى ذلك فى العالم كله..!!

مارتن هيدجر

أبو الوجودية الحديثة

لم يَكْ داحية للنازية!

ذهب عدد من الطلبة الإغريق يبحثون عن الفيلسوف العظيم هرقليطس.. فأشار الناس إلى نهاية الشارع. ذهبوا إلى النهاية فوجدوا فرنًا.

والدخان يخرج من مكان والنار تحرق ملابس أحد الخبازين. ولكن الخباز ظل يتفرج على النار وكلما اقتربت من جلده نزع الثوب. ووقف عاريًا. ولما حاول واحد من الطلبة أن يطفى النار أشار إليه الخباز بأن يبتعد. ثم عاد الخباز يلقي بالوقود في الفرن ويستأنف صناعة الخبز. فاقترب منه الطلبة وسألوه إن كان في استطاعته أن يدلهم على الفيلسوف العظيم.

فقال وهو يقلب الخبز في الفرن: أما إنه فليسوف فهذا صحيح، أما إنه عظيم فلا أظنه كذلك.

ثم أشار إلى نفسه - أي إنه هو الفيلسوف!

والتفت الطلبة بعضهم إلى بعض.. واقتحمته العيون من الوحل في قدميه، إلى العجين في ملابسه وفي شعره ورموش عينيه. وعادت العيون تكتسحه وتكنس التراب حوله وتكنسه هو أيضًا.. وتكاد تدفعه إلى الفرن. وقالوا أنت؟!

ولما رأى الفيلسوف أن صدمتهم كانت عظيمة سألهم: وهل تظنون أن الفيلسوف لا يأكل؟

قالوا: طبعًا يأكل.

وسألهم: وإذا كان الذي يأكله هو أحسن من يصنعه، فهل يترك صناعة الخبز لغيره؟

قالوا: لا..

سألهم: وإذا كان في استطاعته أن يكسب من وراء ذلك، فهل يخسر؟

قالوا: لا..

- وهل تظنون أن الفيلسوف يظل يفكر فلا يشرب ولا يأكل ولا ينام ولا يجلس إلى زوجته وأولاده ولا يتريخ أو يتحدث.. وإذا تحدث فلا بد أن يقول ذلك لتلامذته.. طبعًا بعد أن يعمل ويعمل.. لأن العمل واجب.. ولأن الإتقان قدوة.. ثم كيف يعمل في الطين ولا يتسخ؟ وكيف يعمل في النار ولا يحترق؟ وكيف يعتمد على نفسه ولا يتعب.. وكيف إذا أشعل نارًا ألا يكون دخان وماء وطين وعرق.. أنتم أمام صورة طبيعية لإنسان عادى إذا أكل وشرب.. وغير عادى إذا فكر.. وأنا الآن لا أفكر قبل أن أسكت معدتى وأريح رأسى وأودى واجبى..

ولكن الصدمة أفقدتهم شهية الحوار. فهربوا من الخباز الذى لم يتصوروا أنه أعظم فلاسفة زمانه. فأين الخطأ؟ إنه خطأ التلاميذ الذين احتفظوا بصورة للفيلسوف تختلف عن حقيقته.. ولما رأى الفيلسوف العظيم أن الصدمة قد أطاحت بصواب التلاميذ، ترك الفرن والخبز يحترق وقال لهم: تفضلوا يا معشر الآلهة إلى بيتنا.. ففى بيتنا إله آخر سوف يعلمكم الحكمة! أى إنهم جميعًا آلهة.. صغار وكبار..

وذهب الفيلسوف إلى الحمام واغتسل ووضع العطور فى شعره وملابسه.. وجاءهم مشرقًا لامعًا.. واختار ركنًا من الغرفة وجلس.. ورفع رأسه يقول: ماذا تريدون أن تعرفوا منى وعنى؟

واختفت صورة الخباز، وظهرت صورة الفيلسوف. مع أن الخباز هو الفيلسوف وهو يعمل، والفيلسوف هو الخباز وهو يفكر!

.. إلا هذا الرجل الألمانى العظيم. إنه متوسط القامة. هادئ الوجه. خفيض الصوت.. إنه أعظم الفلاسفة المعاصرين وأعمقهم وأستاذهم. فمن أفكاره تولدت الفلسفات الوجودية كلها: فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا.. هذا الفيلسوف هو مارتن هيدجر. وهو نموذج للأستاذ الجامعى الصامت البعيد عن الناس. فنحن لا نعرف عنه أى شىء. لا نعرف كيف ظهر. ولا كيف أصبح عظيمًا. ولا كيف كان نازيًا. أو كيف اتهموه.. وكيف برأوه بعد ذلك.. وهل صحيح كان نازيًا؟! وهل إيمانه بالحرية الفردية وعظمة الفرد وعظمة الفيلسوف تجعله يلقي بكل ذلك تحت حذاء هتلر؟ هل معقول؟

طبعًا لا..

إذن كيف اتهموه ولم يعارض.. وأبعدوه عن التدريس فى الجامعة؟ ثم أعادوه ولم يناقش.. إن هذا الرجل الألمانى العظيم عاش على عادة الفلاسفة الألمان، عاش للفكر ومن أجل الفكر. فلا أعظم من الفكر ولا من الإنسان المفكر. ولا يهم المنصب ولا الفلوس ولا السعادة.. فقط أن يفكر وأن يكتب وأن ينتظر بعيدًا.. إن هذا الفيلسوف العظيم لم يكمل عملاً فلسفيًا واحدًا. فأعظم كتبه، وأعظم الكتب التى صدرت فى القرن العشرين عنوانه «الوجود والعدم» صدر فى سنة ١٩٢٧.. ووعد بأن يكمله. ولم يفعل. أما بقية أعماله الفلسفية الأخرى فهى فصول لكتب لم تتم.. وكلها معًا تضع أمامنا صورة لأعمق أعماق الوجود الإنسانى.. ووجود الأشياء.. ووجود الإنسانية.. ما المعنى؟

إن هذا الفيلسوف الألمانى هو أصعب وأعقد وأغمض الفلاسفة المعاصرين على الإطلاق. وليس هنا مجال أو مكان عرض فلسفته الوجودية أو فلسفته الوجودية. ولكن فقط أريد منك أن تستحضر المعانى البسيطة التى تحدثت عنها طويلاً فى الموضوع السابق. وقد أطلت ودرت حولها عامدًا متعمدًا.. وكل الموضوع من أوله لآخره لم يكن إلا تحليلًا فلسفيًا نفسيًا علميًا لمعنى وأثر انفجار عجالات سيارة فى شارع مزدحم. فقط. ما الذى حدث؟ ما أثر ذلك فى الناس؟ فى أشكال وألوان من الناس؟ ولا يختلف كثيرًا انفجار عجالات سيارة عن انفجار قنبلة وسقوط بيت وقتيل.. ومليون بيت ومليون قتيل.. فموقف الناس هو هو.. وموقف الفيلسوف هو هو: ماذا جرى؟ كيف جرى؟ ماذا بعد ذلك؟ ثم كيف تلقينا ما حدث؟

إننا مختلفون جدًا.. ولكن المعنى العميق واحد عند كل الناس.. كيف؟ دعنى أنظر إلى نفس الشارع المزدحم وقد انفجرت عجالات سيارة.. ما الذى أمامنا الآن؟ أناس.. وسيارات وشارع..

أما السيارة فهى من صنع الإنسان.. ولكن السيارة مادة والإنسان مادة.. والفرق بين الاثنين أن الإنسان يعرف أنه ليس سيارة.. ولكن السيارة لا تعرف أنها سيارة وأنها ليست إنسانًا..

الإنسان يعرف أن السيارة من صنعه هو.. وأنه صنعها لتكون فى خدمته.. فالسيارة إحدى أدواته..

والإنسان وهو واقف إلى جوار السيارة.. كالإبرة والخيط إلى جوار الثوب..
كأمواس الحلاقة فى يدك بالقرب من ذقنك..

كلها أدوات صنعها الإنسان ليستخدمها الإنسان.. فالإنسان إذن هو الكائن
الذى يصنع أدواته.. وهذه الأدوات هى دليل على مدى التطور العلمى للإنسان..
فالحضارة الإنسانية هى علوم وفنون تطوير الأدوات التى يستخدمها الإنسان..
فالإنسان صنع لنفسه النعل ثم الحذاء.. ثم السيارة والطيارة والصاروخ.. كلها
أدوات تحت قدميه، ينتقل بها إلى أين يشاء متى يشاء..

فهذه الأدوات لها صفة واحدة: أنها هناك.. أنها هناك فى متناول الإنسان..
هذه كل صفاتها.. يتناولها الإنسان ويتداولها..

ولكن الإنسان نفسه من الممكن أن يكون «أداة» فى متناول واحد آخر..
فالعامل أداة.. والعمال كلهم أدوات للعمل والإنتاج.. تمامًا كآلات التى تنتج..
والإنسان «أداة» تنطبق عليها القوانين واللوائح.. ولها ثواب وعقاب.. ويمكن
استدعاؤها.. ويمكن القضاء عليها..

فكما أن السيارة أداة للإنسان فالإنسان أداة للإنسان أيضًا..
وإذا وقفت تتفرج على الناس وبعيدًا عنهم.. فأنت فى مأمن من الضغط
ال جماهيري.. وبعيد عن ضربهم لك بالأكتاف والأحذية.. ولكن عندما تدخل فى
الزحام، أصبحت مدفوعًا إلى الأمام وإلى الخلف.. مثل السيارات ومثل الأغنام:
أداة تدفعها أدوات..

بينما أنت واقف تتفرج على الناس وبعيد عنهم تجد فى رأسك احتمالات
أو إمكانيات: أن تبقى حيث أنت.. أو تمشى بين الناس.. أو تركب سيارة.. أو تعود
إلى بيتك «تنام» تأكل.. وأنت فى البيت تلاحظ أنك مختلف عن المقاعد والمناضد..
فهذه الأشياء أو هذه الأدوات موجودة هناك.. تحت أمرك رهن إشارتك.. لا حيلة
لها ولا قوة إلا بك.. ولكنك أنت مليان بالاحتمالات والاقتراحات.. والمشروعات..
وكل أفكارك مشروعات.. فالإنسان من أوله لآخره «مشروع» عمل.. مشروع
حركة.. مشروع فكر.. وأنت الذى تختار لنفسك ما تريد من كل الذى يملأ دماغك
من أفكار..

وحياتك كلها «مشروع» صغير أو كبير..

وأنت تعرف أنك سوف تموت.. والموت معناه: نهاية كل مشروعاتك.. مشروعاتك أنت وحدك.. لأننى عندما أموت، فأنا الذى أموت.. لا أموت لأحد.. ولكن أموت لنفسى.. فالموت شخصى..

ولكن الموت عام لكل الناس أيضاً..
أى أننى أعلم أن الناس جميعاً سوف يموتون. ولا أحد يعلم متى ولا كيف.. ولكن لا مفر من موتهم..
وأعلم علم اليقين أننى سوف أموت شخصياً. والموت حقيقة.. تقضى على كل حقيقة أخرى..

أو إن الموت فعل وليس فكرة. فعل يقضى على كل فعل آخر..
وكل إنسان إذا نظر إلى الواقع حوله. فلا نهاية للذى يرى والذى يسمع.. والذى يفكر فيما سوف يفعله وكيف فعله فهو - إذن - يعانى ألماً.. همّاً ثقيلاً.. هل يفعل هذا أو ذاك.. يتقدم.. يتأخر.. يقرر فوراً.. يقرر غداً..
فعالمى كله أمامى نوع من الهم والغم.. ولذلك كان الشعور بالفزع هو الذى يضايقنى..

وهناك فرق بين الفزع والخوف؟

الفزع هو الخوف من هذا الشيء بالذات، والخوف هو الفزع العام.. أو بعبارة أخرى.. فالفزع جزئى، والخوف عام، الفزع من ماذا؟ والخوف من ماذا؟
دعنى أضرب لك أمثلة أخرى بعيداً عن استخدام أى مصطلح فلسفى لهذا الفيلسوف العظيم؛ لأن مارتن هيدجر هو أكبر مصنع للتراكيب الفلسفية الصعبة والمعقدة.. ما علينا.. نفرض أننى أريد أن أذهب إلى الإسكندرية. هناك عدة احتمالات: أن أركب سيارة.. موتوسيكلًا.. طيارة.. أو أركب زورقاً فى ترعة المحمودية إلى الإسكندرية.. أو أذهب إلى بورسعيد ثم بحراً إلى الإسكندرية أو على ظهر حمار.. أو سيراً على الأقدام.. أو إننى غيرت رأيى.. وقررت البقاء.. فما هذا كله؟

إن كل اختيار من هذه الاحتمالات له صعوبات. فإذا قررت السفر بسيارة: فإما أن أذهب بالطريق الزراعى.. وإما بالطريق الصحراوى.. إما سائقاً سيارتى أو فى تاكسى.. فإذا قررت أن أقود سيارتى فلا بد أن أعرف القيادة وأن أحمل رخصة.. وإن كنت أسرح أثناء القيادة فهناك خطورة على حياتى.. ولذلك

يجب أن أحتاط لذلك.. وإن كنت أنام أثناء القيادة.. وإن كنت قد ارتكبت حوادث قبل ذلك.. والسيارة نفسها يجب أن تكون قادرة وأن يكون بها زيت وماء وبنزين وعجلات منفوخة.. فكل اختيار له شروط. وله مشاكل. وله مخاطر أيضاً..

ومن الممكن أن ألقى نفسي فى أتوبيس وأسافر دون تفكير فى شىء.. ومن الممكن أن أركب سيارة صديق وأترك الهموم كلها فوق دماغه، وليكن ما يكون.. فالذى يفكر فى كل شىء يتعب..

والذى لا يفكر لا يتعب..

ولكن أعلى مراتب الوجود أن يكون الإنسان مفكراً حريصاً على استقلال الرأى والإرادة.. حريصاً على كرامته ونبيل الوجود نفسه.. فلا ينساق ولا يتعلق بذيل أحد أو إرادة أحد..

ولا شىء يأكل إرادة الإنسان وإنسانيته أيضاً - بل أن يكون ضحية للناس.. أداة لهم.. يدوسهم فى الزحام ويدوسونه.. فى المصنع وفى المعمل وفى الحقل وفى الجيش.. أداة وسط أدوات.. معدوماً وسط معدومين..

أسوأ ما يصاب به الإنسان أن يكون كالناس.. واحداً منهم.. مثلهم.. لا ميزة له.. ولا صفة.. وإنما واحد من الملايين.. كأنه سيارة فى موقف.. أو كأنه مسمار فى صندوق مسامير.. موجة فى بحر.. ذرة فى صحراء.. فالصنفرة التى يحتك بها الإنسان فتأكله وتمحو أطرافه فلا تكون له أطراف: إنهم الناس.. أن يكون ضحية الناس.. ضمن الناس.. لا خلاف ولا فرق ولا ميزة.. وأن يجعل همه أن يعمل مثلهم.. أن ينساق وراءهم.. أن يلغى عقله ويشجب إرادته، ويعلق إنسانيته.

ولذلك فالإنسان يخاف من الناس..

يخاف أن يكون أداة مثلهم.. أو بينهم.. وهو لذلك يرى أن يبقى بعيد المنال.. بعيد التناول والتداول.. وهى صفة المفكر أو الفيلسوف.. يرى ويفكر ويتأمل ويتعمق..

فإذا كانت هذه فلسفة هيدجر، فكيف يرضى أن يتحول الناس جميعاً إلى أداة حرب فى يد هتلر؟

كيف يرى أن الوجود الفردى أو الوجود الحر للفرد أو حرية الفرد وهى أعظم صفات الإنسان ثم يهدرها عند قدمى هتلر.. ويهدر نفسه؟
هذا هو اللغز فى حياة الفيلسوف العظيم مارتن هيدجر..

لعله لم يقل شيئاً ضد النازية.. لعله أدرك أنه أضعف من أن يكون له رأى، وأن يكون لرأيه أثر.. وأنه اكتفى بالوقوف وظهره للحائط يرى الأمواج العاتية وينتظر انحسارها وهزيمة النازية..

والذين اتهموه بأنه لم يعارض النازية أبعدوه عن التدريس فى الجامعة. وبعد الحرب أعادوه إلى الجامعة.. وعندما عاد إلى الجامعة لم يقل شيئاً. فكل الذى كان عنده قد قاله تحت ضغط أليم من ويلات الحرب العالمية الأولى.. فجاءت الحرب العالمية الثانية ووضعت الحرب الأولى فى الظل لأنها كانت أعنف وأقسى.. وقد رأى فى الحرب العالمية الأولى أبشع عملية تحطيم للإنسان، وأفدح جريمة يتحول فيها الإنسان إلى أشياء مادية.. إلى أدوات يستخدمها الحاكم.. إلى رصاص.. مدافع.. قنابل.. يطلقها على الآخرين.. ويقتل الجميع.. فالحرب هى أعنف عملية كيميائية لكى يفقد الناس عقولهم ويصبحوا وحوشاً.. ثم أنياباً ومخالب.. أى مجرد خناجر وسيوف وقنابل وأدوات.. لا إرادة لها ولا عقل..

وإذا كان هذا هو رأى الفيلسوف العظيم فى الحرب العالمية الأولى، فما الذى يجعله يغير رأيه فى الحرب العالمية الثانية وفى هتلر.. إنه نفس الرأى.. فليس معقولاً أن يكون نازياً أو مؤيداً للنازية.. ولكن الصدمة الهائلة أسكتت الرجل.. فلم يجد ما يقوله.. فكان ذلك السكوت علامة الرضا - هم الذين قالوا - أما هو فلم يقل!

فأسوأ صور السلوك الإنسانى وأحطها وأحقرها: الاستعباد..
أى تحويل الأحرار إلى عبيد.. تحويل الإنسان إلى آلة.. سكين.. قذيفة.. جزمة.. طوية.. يضربها برجله أو بيده.. يلقي بها على الناس، ولا رأى ولا إرادة لها..
وليست هذه فلسفة العظيم جداً مارتن هيدجر.. وإنما هذه لمحة من ضوئها الساطع.. أو سطر واضح فى كتاب ضخيم شاق صعب جداً اسمه «الوجود والعدم»..
ولكن هذا الكتاب هو مستودع البذور الوجودية لكل الفلسفات التى ظهرت فى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

وكما ظهر الفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر فجأة، تزوج فجأة، واختفى فجأة دون أن يحدث ضجة فى حياته أو عند مماته..

ولكن الضجة التى تحولت إلى إعصار فلسفى ظهرت بعيداً عن ألمانيا.. ظهرت فى فرنسا بأقلام الوجوديين الأدباء: سارتر وكامى وسيمون ديوفوار.. فقد تلقوا الدرس الأول من الفيلسوف الألمانى، وكانوا أقدر منه على الشرح والتبسيط وعلى صناعة الأدب والفن.. فكانت فلسفتهم أمتع وأجمل وأوسع انتشاراً.. وأعمق أثراً وأقدر على صبغ الدنيا باللون القاتم، وإشاعة المرارة على كل لسان..

وظهور هذا الفيلسوف العظيم يتمشى مع أعظم التقاليد الألمانية.. فلا توجد نظرية فلسفية أو ثورة فلسفية إلا كانت ألمانية فى البداية.. فالألمان هم رواد الفلسفة والإبداع الفكرى فى كل العصور..

أنت الراعي.. والغنم والذئب

أما هذا الفيلسوف الفرنسي جبريل مارسيل، فهو أوضح وألطف، والحوادث القليلة التي هزت حياته كان لها أثر عميق جداً في تفكيره وفي نظرتة إلى الدنيا، في داخله ومن حوله.

أمه ماتت وهو في الرابعة من عمره. أمه يهودية وتولت تربيته خالته. وخالته لا تؤدى الشعائر الدينية. أبوه مسيحي وليس متديناً. ولم يعرف الطفل في هذه السن الصغيرة إلى أين يتجه.. إلى الكنيسة أو إلى المعبد اليهودي. لم يقل له أحد شيئاً. ولم يعرف حلاً لهذا الإشكال المبكر، فاستولى عليه الشك.. ثم العجز. عن إيجاد طريقة أو حل..

وعلى الرغم من أن أمه ماتت، فإنها كانت حاضرة في وجدانه. وفي خياله. وحضورها أقوى من حضور والده وخالته. إذن من الممكن أن يكون الغائب أقوى من الحاضر، وأن تكون الروح أقوى من المادة. وأن يكون أثرها أعمق من كل الذى حوله من الذين يحبونه ويحبهم. ولكن وجود أمه ليس قائماً على أساس المنفعة أو الصلة المباشرة. أو أن الذى فعلته كان بالغ الأثر.. لا شئ من ذلك. ولكن حضورها الغامض كان أقوى. ولم يفلح فى أن يتخلص منه أو حتى أن يفهمه.. وعندما ذهب إلى الجامعة كان المثل الأعلى هو أن يحصل على الشهادة الكبيرة، ولكن الذين يتحدثون عن الشهادات لا يعرفون الثمن الذى يدفعه الطالب إذا كان متحرر التفكير.. فالدراسة الجامعية تقتل الاستقلال الفكرى.. تقتل الحرية.. تقضى على الإبداع.. وعلى الفردية.. ففي الجامعة يجب أن تفكر وفقاً لقوالب وعلى شكل قوالب.. لا تخرج عنها.. وإلا كان الخروج جهلاً واحتقاراً للأساتذة الراسخين فى العلم المتريعين فى الكتب.. ولذلك - يقول جبريل مارسيل - كان الفلاسفة العظماء هم الذين اتجهوا إلى الواقع.. إلى التجربة اليومية.. إلى

الحياة الإنسانية دون أن يكون همهم الأول والأخير أن يبتكروا تعبيرات جديدة ومصطلحات فريدة تستحق التصفيق في المؤتمرات الدولية. ولا يمكن أن يكون الإنسان مبدعاً إذا كان هدفه أصوات أعضاء الوفود الدولية..

ولذلك كان من أهم أهدافه في حياته الفلسفية أن يخلق هذه القوالب من رأسه ومن قلمه.. وأن يتجرد من الدروع الفلسفية وأن يواجه الوجود كله بملابسه هو.. أو بجلده وعينيّه وأذنيه وأصابعه، لا أعين وآذان وأصابع أساتذة الجامعة! ولم يكن سليم البدن. ولذلك لم يحمل السلاح في الحرب العالمية الأولى.. وإنما عمل في الصليب الأحمر يسعف المرضى والجرحى.. ويبلغ أهالي الجنود بأسماء المواقع أو المستشفيات أو إن كانوا ماتوا ودفنوا معاً.. وكانت الحرب صدمة له هو الآخر كما كانت صدمة لفلاسفة وجوديين من قبل.. ففي هذه الحرب يصبح الإنسان شيئاً يرمونه ويستهلكونه.. ولا بد من البحث عن بديل له يملأ الفراغ الذي تركه، ثم يطلق ناراً في الاتجاه المحدد ويموت ويكون الموت شرفاً له؟! وفي كتابه «سر وجود» كل أفكاره الفلسفية المبتكرة..

ولكن جبريل مارسيل بدأ يكتب المسرحيات، وهو في الثامنة من عمره، وفي هذه المسرحيات كل البذور والجذور.. فقد اتخذت هذه المسرحيات معنيين يلحان عليه طوال حياته: الإنسان غريب في زمانه.. ولذلك فالإنسان حزين بائس..

فما هذا الإنسان في العصر الحديث؟

أنا أقول لك: إنه مجموعة من الوظائف. هذه الوظائف يجب أن يقوم بها حتى الموت.. فهو أب. والأبوة وظيفة. وهو زوج. والزواج وظيفة. وهو - مثلاً - فراش دورة مياه أو سائق مترو تحت الأرض.. وهو عضو في نقابة.. وكل هذه الوظائف يجب أن يفي بالتزاماتها كل يوم.. والقيام بهذه الالتزامات هو قمة الأداء.. والأداء الكامل هو قمة الأخلاق والسعادة هي أن ينضبط مع مقتضيات كل وظيفة.. أو الوظائف معاً.. فالإنسان كتلة وظائف..

ولنفرض أن أحداً يعمل سائقاً للمترو.. عاملاً في المناجم.. فراشاً لدورة مياه.. سوف تكون حياته منظمة.. روتين.. لا بد أن يصحو في موعد محدد.. ولكي يصحو في موعد لا بد أن ينام مبكراً.. ولكي يصحو منتعشاً لا بد أن يأكل مبكراً. ولا بد أن يعرف جيداً ما الذي يضر بصحته فيؤدى إلى تعطيله عن العمل. ولا بد من

الحرص على الإجازة الأسبوعية. وأن يعرف ما هو اللهو المناسب أثناء الإجازة حتى إذا عاد إلى العمل كان لائقاً جسمىً ونفسياً. فالمرض يعطل الوظيفة. والموت يقوم بتفريغ مكانه. ويؤدى إلى خراب بيته وتشرذ زوجته وأولاده.. ولذلك فهو حريص على حسن الأداء.. فإذا أصابه مرض كان لابد أن يذهب إلى المستشفى.. والمستشفى هو «الورشة» التى يصلحون فيها الخلل العضوى أو الوظيفى.. وفى الورشة يجرى الإحلال والإبدال..

إنه - إذن - قطعة غيار.. إذا تآكلت أو «نعمت» فلا بد من أن تجيء قطعة غيار أخرى.. لأن المترو يجب أن يسير والناس يجب أن يذهبوا إلى أعمالهم.. وإذا شعر السائق بتعب أو قرف، فإنه عادة يرى ذلك شيئاً طبيعياً جداً، ولذلك فإنه يضع «همه» فى الشغل. والعامل له صفة واحدة:

إنه يتآكل.. أى انه يسعى إلى نهايته بأصابه وأظافره.. وهو مثل أى مسمار إما أن يظل فى موقعه فى الجهاز الكبير، وإما أن يلفظه الجهاز ويطرده.. لكى يحل مسمار آخر مكانه!

والإنسان فى العصر الحديث ينظر إلى دنياه على أنها مشاكل ومشاكل. وهذه المشاكل تنحل واحدة واحدة.. وهو فى حالة خوف دائم من أن يقع فى مشكلة.. وهذه المشكلة سوف تعرقل مسيرته.. وتعطل وظيفته وتضره مادياً.. ولذلك فهو حريص على أن ينفذ البرنامج الموضوع له.

والإنسان الحديث «مبرمج» - أى ان له خطة عمل قد انغrust فى لحمه ودمه وهو لا يخرج عنها.. ولا يحاول. وإذا حاول فهو يخاطر بمستقبله وأسرته.. فى حياته وبعد مماته.. ولذلك فهو ينظر لكل شىء على أنه مشكلة: ميلاده هو وميلاد أولاده.. وإذا أحب.. وإذا كره وإذا مرض وإذا مات!

ولا يوجد علاج علمى لحالته هذه..

ولذلك يحاول أن «يلم» نفسه.. وأن يكون فى حالة «اكتفاء ذاتى».. يكفى خيره شره.. وأن يبتعد عن الناس.. والستر هو ألا يمد يده للناس.. فعنده ما يكفيه.. أياً كان كم وكيف الذى عنده.. وهذا يعزله عن الناس.. وهو أراد أن يبتعد عن الناس لكى يأمن شرهم.. ولكى يحقق لنفسه نوعاً من الأمان.. ولكن البعد يضاعف عدم الشعور بالأمان.. فهو فى خوف دائم من الناس، وعلى نفسه..

ولذلك فالإنسان المعاصر عنده هذا الشعور بالغربة والاغتراب واليأس من الناس.. ومن الحياة!

فالإنسان: هو موظف.. له خانة.. نقابى.. قطعة غيار.. وهو إنسان معدوم الإنسانية..

فإذا فكر هذا الإنسان أن يشعر بوجوده.. أى أن يكون موجودًا واعيًا حرًا.. فلا بد أن يكسر هذه الإطارات.. أن يفلت من هذا الانضباط.. أن ينزع هذه اللافتات التي انطبعت على جلده وتحت جلده.. فليس كل صفاته أنه سائق.. ولا كل صفاته أنه أب.. أنه زوج.. أنه أخ.. هذه بعض صفاته بعض الوقت.. ولكنه إنسان.. من حقه أن يكون له حق.. من صميم حرية أن يختار بحريته.. أن يخرج من الطابور.. أن يخرج على الصف.. أن يدير ظهره لهذه الآلية البشعة!

والإنسان ليس فى حاجة إلى «نظرية» أو فلسفة لكى يعيش حياته.. إنه يعيشها فوراً دون جدول أعمال.. دون مرشد سياحى.. دون نصائح.. دون منطق! الحب مثلاً.. كيف تنشغل ليلاً ونهاراً بشخص؟ ويكون غيابه عنك فى قوة حضوره أمامك وربما غيابه أقوى.. والفيلسوف مارسيل يذكر أمه التى ماتت لكل الناس.. ولم تمت بالنسبة له.. فهى موجودة هنا وهنا وخصوصاً هنا فى الخيال..

الفتاة التى انشغل بها اسمها «رادا».. ما هذا الذى حدث.. كيف كان اللقاء؟ صدفة! كيف كانت الصدفة أقوى من ألف ميعاد؟ كيف تصادف أنه فى حاجة إليها؟ كيف كان اللقاء: الصوت.. النظرة.. اللمسة.. كيف أن هذه اللمسة كانت نقطة تحول فى حياته العقلية والوجدانية.. كيف تؤدى لمسة مثل ملايين اللمسات إلى كل هذا الذى حدث؟.. ما الذى فى «رادا»؟.. جميلة؟ ملايين مثلها.. مثيرة؟ ملايين مثلها أيضاً.. ما الذى تقول وما الذى لم تقل قبل ذلك؟.. ما الذى يقول هو وما الذى قاله قبل ذلك؟.. عيناها.. شفتاها.. شعرها.. قوامها.. ما الذى فيها؟ ليس فيها إلا الذى يحتاج إليه: هذا القلق.. هذا الخوف.. هذا اليأس.. هذا الضياع.. هذا العقاب الإلهى.. عاقبها بجمالها وعاقبها بإحساسها.. عاقبها بخوفها بقلقها بفرعها.. بهذا أف لوجدانى الذى تنقل هى عدواه إلى كل الناس حولها.. بركان له حمم ودخان؟ نعم.. زلزال يهز الأرض والسماء؟ نعم.. بؤرة سامة تنتقل فى الجسم توجع وتهدد وتخيف؟ نعم.. هل هى أكبر دليل على أنه ليس بالعقل يعيش

الإنسان وليس بالمنطق تكون أجمل لحظات حياة الإنسان؟ إن الحب أكبر دليل على أن الإنسان لا يستطيع أن يكتفى بذاته. لا يستطيع أن يكون وحده سعيداً.. وإنما بالآخرين.. بحب الآخرين.. بأكثر الآخرين قدرة على إشباع احتياجاته الفريدة الشخصية..

وعندما يتحول الحب إلى استعباد للإنسان فإن الإنسان يرفض هذه العبودية.. وهو فى نفس الوقت لا يطيق ألا يكون عابداً عبداً.. فليس محباً من لا يتعبد.. وليس محباً من لا يلف بيديه خيوط الحب حول عنقه وينتظر الموت فيمن يحب!

ثم الموت أيضاً.. أمه ماتت وهو صغير.. والناس أمام الموت مواقف. واحد يرى أن الموت طبيعى. كل إنسان سوف يموت.. فليس غريباً هذا الذى قرأ عن وفاة فلان..

وواحد يرى أن الموت نهاية طبيعية للمرض.. فالميت كان مريضاً فمات. منطقي..

وواحد ينظر إلى الميت على أنه نهاية ذكرى.. وانكسار حلقة فى سلسلة الوجود.. ولن يبقى من الميت إلى ذكراه. وذكراه هى السجل الباقي لأفكاره وأعماله.

وواحد ينظر إلى الميت على أنه اختفاء.. غياب.. ولكنه سوف يبقى فينا.. بصورته.. بأثره.. ولا أحد يموت لمن يحب.. فأموات المحبين، أحياء.. بل إن الحب نفسه نوع من الموت. فالمحب يفنى فى محبوبته.. يموت فيها.. فإذا مات المحبوب. فالمحب ميت رغم أنه غاب عنه.. فهو ميت حاضراً وغائباً..

سؤال: ما الذى يجعل محباً عاشقاً يقول للمحبوبة: كل الذى بيننا انتهى.. أو يجب أن ينتهى الآن. ولن أنتظر قرارك. أنا الذى سوف أقرر. فليس عندك إلا القليل الذى أريد.. جمالك.. شبابك.. حيويته.. طعمك.. عطرك.. ألوانك.. صوتك.. كل ذلك موجود عندي.. فقط أسوأ ما عندك هو الذى أريده وأكره: قلقك.. خوفك.. وفزعك.. عدم شعورك بالأمان.. بالضبط هذا هو الذى عندي وأراه فيك وأسمعه أقوى وأعظم.. فقط عذابي هو الذى يجعلنى أحرص على عذابك لى؟ لا بد أن أبعدك عنى.. أبعدى حتى لا أراك واحدة مثل مليون.. وفى ذلك سقوط لك.. فأنت واحدة مثل أية واحدة.. وهذه هى مشكلة زماننا.. إن الناس «عاديون».. يجب أن يكونوا عاديين..

منضبطين.. فى الصف فى الطابور.. قطع غيار.. لا يتفوق أحد ولا يمتاز ولا يبدع؟
ما الذى يجعل إنساناً يقول ذلك للمحبوبة.. أو التى من الممكن أن تكون المحبوبة
والقيمة الحقيقية للوجود؟!

أنا أقول لك - والكلام للفيلسوف الوجودى جبريل مارسيل بعد استبعاد كل
المصطلحات الفلسفية - أنت جميلة. أعرف ذلك، أنت مثيرة. ألمس ذلك، أنت أمنية
كل رجل.. أحسد نفسى على ذلك. أنت حالة نموذجية لكل طبيب أمراض نفسية
وعقلية. ويحزننى ذلك. ولكنى أرى نفسى فى نفسك. وعقلى فى عقلك. ومرضى
فى مرضك.. وعينى فى عينيك وشفتى المرتجفتين فى شفتيك.. إن الذى أراه فىك
بالضبط هو الذى يدعونى لأن أتركك.. إنك تضاعفين عدم شعورى بالأمان. إنك
تجسدين خوفاً. أنت أجمل صورة لىأسى من الناس ومن الحياة ومن فهمى لكل
الذى بينك وبينى.. وبيننا وكل الناس. غيرى أحسن.. أفضل. أسلم. لقد كنت أنظر
إلى نفسى على أننى «مشكلة».. ولكن بك ومعك وحرصاً عليك وهرباً منك. لقد
أصبحنا معاً: إشكالية.. معضلة.. فزورة فى لغز، فى علامتى استفهام وتعجب!

وفى القصص القديمة يطلب السلطان من أحد رجال حاشيته أن يقتل نفسه
إظهاراً للطاعة والولاء والتضحية من أجل السلطان.. فيأخذ الرجل عدة سيوف..
ويظل يقلبها.. وينتقى أكثرها حداً وأقواها وأقدرها على قطع الرقبة بسرعة..
وبسرعة يمسك السيف وينهال به على رقبتة ويموت دون ألم - إمعاناً فى إظهار
الوفاء والإخلاص حتى الموت!

شئ من ذلك يا سلطنة أو يا قرصانة - هل عرفت كم يكون الحب مجرمًا؟
نعم هو كذلك. وكم يكون المحب سفاحًا؟.. نعم هو كذلك. ولكن ما ضحية هذا
السفاح وهذا المجرم؟ إنه هو الضحية!

وكان الفيلسوف جبريل مارسيل يعرف الموسيقى.. وعن طريق الموسيقى عرف
أن هناك وسائل أخرى للتعبير غير الرسم والنحت.. وأن بعض المعانى النبيلة
يمكن أن يعبر عنها أجمل بالموسيقى.. وأن هذه المعانى تستعصى على الاحتواء
فى نقط أو فى مساحة أو بقع أو عدد من الخطوط أو كتلة من الحجر أو الحديد..
وكما أن الموسيقى لا تستطيع أن تحتوى كل المعانى.. ولا يوجد رمز واحد يحتوى
على كل المعانى.. والرمز هو العلامة الموسيقية أو الكلمة أو الخط أو المساحة
اللونية. فذلك الحياة كلها.. الوجود كله لا يمكن احتواؤه فى صيغة.. فى نظرية..

ولذلك فالفيلسوف من سن مبكرة وهو لا يعرف ماذا يعبد.. وكيف يعبد أى دين.. ولكن عندما تقدمت به السن لم يجد الراحة إلا فى الإيمان.. فأمن.. وفى الإيمان وجد حلولاً كثيرة للمشكلات العملية والوظيفية.. ووجد أن «سر» الوجود.. أو روح الوجود هو الله.. وعليه يجب أن يلقي كل موجود بهمومه ويتوكل عليه.. فالإنسان وحده لا يستطيع أن يجد الحلول.. لأنه هو مشكلة.. فكيف يكون مشكلة وحللاً لكل المشاكل.. ثم إن الإنسان بعد ذلك لم يفهم بعد: من هو! ولماذا هو؟ وكيف هو؟ وإذا كان الحب مشكلة، فالكراهية مصنع مشاكل.. مسكين الإنسان؟ نعم.. معذب الإنسان؟ جداً.. عندك حل لكل ذلك؟ نعم. الحب.. هل هو الحل: هو الحل الذى يلد كل يوم مشكلة تلد مشكلة.. فيقوم الحب بدور الراعى والغنم والذئب!

هل نعيد

قراءة الوجودية؟!

يجب أن أخفف من وقع كلمة «الوجودية» على القراء مرة أخرى.. فالوجودية هي النظرية الفلسفية والأدبية التي تهتم اهتمامًا بالغًا بمعنى وجود الإنسان.. أى بمعنى أن يكون الإنسان موجودًا.. أى يكون واعيًا لوجوده.. وأن يكون إنسانًا.

ولكى يكون إنسانًا يجب أن يكون حرًا.. وأن يكون حرًا معناه أن يكون مسئولاً عن كل قرار ورأى يتخذه لنفسه ولغيره من الناس.. وقد يبدو هذا كلامًا عاديًا..

ولكن عندما يؤكد الإنسان لنفسه أنه إنسان، وأنه لذلك حر.. فلا بد أن يكون هناك سبب قوى يجعله يؤكد هذه المعانى..

أما السبب القوى فهو أن هذه الفلسفة الوجودية قد ظهرت فى أعقاب الانهيارات النفسية والقومية.. بعد الحرب السبعينية وبعد الحرب العالمية الأولى والثانية وبعد الحروب العربية الإسرائيلية.

■ ففى أعقاب هذه الحروب أحس الإنسان أن كرامته أهدرت.. أنه لم يعد حرًا، ولا قادرًا على ذلك.. فقد انهارت كل المثل العليا للحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والأخلاقية.. فعلى أنقاض هذه الانهيارات راح يقيم لنفسه بيوتًا وأكواخًا صغيرة.. وكهوفًا أيضًا مثل البارات والحانات والنوادر الليلية.. أو أنه لم يعد قادرًا على أن يبني ما انهدم.. ولذلك قرر أن يبقى أنقاضًا تعيش على أنقاض..

إن هذه النظرية الوجودية جمعت خيوطها وألوانها وأحجامها وأوزانها من أنقاض كل الأحلام الجميلة التى صنعها الإنسان لنفسه. فى الفلسفة وفى الأدب وفى الفن.

فكانت هذه الفلسفة مثل قوس قزح، الذى يلمع كلما ازداد السحاب سوادًا وقتامة..

فهى أولاً تعبر عن الحاضر الأليم..

وهى ثانياً تحاول أن تتجاوز هذا الحاضر وذلك بوصف الحاضر وتحليله وإعطائه الشرعية الواقعية.. أى تهوينه على الناس.. أو بأن تجمله وتزفه للناس.. كأنه شىء جديد.. لعل الناس يتقبلونه ويتقبلون أنفسهم أيضاً.. فهو نوع من زفاف الحاضر بملابسه وموسيقاه.. ثم دفنه بعد ذلك.. تمامًا كما كان الفراعنة يفعلون فى أعياد «وفاء النيل» يجملون فتاة صغيرة ويزفونها للنيل.. بإلقائها فى أحضانها لعله يفيض سعادة على الناس.. فقد أعطوه بعضهم، ليعطيهم كله.. فهم إذن يجمّلونها بقصد القضاء عليها.. وهذا هو جوهر المسرح.. فالمسرح يعرض للناس حال الناس.. ويضحكهم على أنفسهم أو يبكيهم.. ومن هذا التأثير القوى على الناس يتخلص الناس من عيوب الناس.. وهذا هو الذى يسمى فى المسرح بالتطهير.. أى تطهير الناس من عيوبهم بتصويرها لهم.. والمبالغة فيها.. فيشعر المتفرج بالخجل أمامها.. وفى الوقت نفسه يشعر الناس بأنهم أقوى من الألم.. وبهذا الشعور يتجاوز الناس عيوبهم ويتخطونها.. فكأن الفن يجل العيون أملاً فى القضاء عليها..

وكذلك فعلت الوجودية فى أعقاب الكوارث الإنسانية: عبرت عنها وعبرتها أيضاً. عبرت عن عذاب الإنسان، وعبرت بالإنسان فوق الألم..

وكان ذلك أقوى ما يكون بعد الحرب العالمية الثانية..

فى ألمانيا ظهرت أصول الفلسفات المعاصرة كلها.. المثالية والماركسية والظاهريات والوجودية..

والفلسفة الوجودية ظهرت فى ألمانيا.. التى أشعلت معظم الحروب الأوروبية، فكان عليها أن توضح ماذا حدث.. وماذا أصاب الناس فى ألمانيا وفى فرنسا وفى إيطاليا وأسبانيا وروسيا.. وفى مصر أيضاً..

وانتقلت الوجودية إلينا فى مصر وعندما جاءت كنا طلبة صغاراً. بهرتنا معانيها ومراحيلها.. واختلفنا حولها. فذهب بعضنا إلى أقصى اليسار، وبعضنا إلى أقصى اليمين.. وبعضنا آثر أن يتوقف فى الوسط يعلق الحكم على كل شىء..

فلم تكن معانيها واضحة لدينا تمامًا. وأشياء أخرى كثيرة لم تكن مفهومة ولا كنا قادرين على الإحاطة بها..

والفضل في الدعوة إلى الوجودية يرجع إلى د. عبدالرحمن بدوي أستاذنا في ذلك الوقت.. فهو الذى قدم الفلسفة الوجودية الألمانية وهو الذى ترجم كل مفرداتها الصعبة.. وراح ينحت لها الكلمات، أو يجد لها مرادفات في الفلسفة الإسلامية القديمة..

وهذه الفلسفة الوجودية التى درسناها فى أواخر الأربعينيات ودرسناها فى الجامعة فى الخمسينيات والستينيات، كانت أنسب النظريات المعاصرة فى التعبير عن الحيرة التى غشيتنا واستغرقتنا وأغرقتنا، وقد صورت هذه الحيرة والقلق حيرتى وقلقى وجبلى كله فى بعض كتبى: وداعاً أيها الملل..
طلع البدر علينا..

فى صالون العقاد..
والأ قليلاً..

فكتابى عن العقاد، كان فى الحقيقة عنى وعن جيلى فى مواجهة العقاد وطه حسين والحكيم ولطفى السيد وسلامة موسى وغيرهم.. وأذكر أن الأستاذ الحكيم كان يكتب مذكراته فى مجلة «أكتوبر» التى أنشأتها ورأست تحريرها.. وفى الوقت نفسه بدأت أكتب فى حلقات صالون العقاد - وفوجئت به قد توقف عن نشر مذكراته. ولما سألتته قال: لقد أضحكتنى على نفسى.. فأنا أعبت وأدعب القراء.. وأنت تسجل أعماق العذاب والقلق فى جيلك.. أنت جاد وأنا هازل.. العقاد عملاق وأنا بهلوان!!

ولم أفلح فى إقناعه بأن يعود إلى الكتابة حتى مات!
وعلى الرغم من أن الأستاذ العقاد قد هاجم الفلسفة الوجودية.. وسخر كثيراً منى ومن غيرى من الأدباء الوجوديين.. فلم نغضب منه. فهو أستاذنا وله مدرسة فى النقد والأدب والفلسفة مختلفة.. وليس من الضرورى أن نكون من مدرسة واحدة.. ولم نتفق..

وأصدرت أول كتاب لى عن الفلسفة الوجودية فى سنة ١٩٥٠. وقبل هذا الكتاب أصدرت عددًا كاملاً من مجلة «الرسالة الجديدة» التى كان يرأس تحريرها الأستاذ يوسف السباعى. ونفذ هذا الكتاب فى ساعات.. أكثر من خمسين

ألف نسخة. فقد جاء كتابى هذا، تبسيطاً شديداً للنظرية الوجودية عند الفلاسفة الألمان والفرنسيين والأسبان والإيطاليين والروس..

وفى ذلك الوقت كان المثقفون ينظرون إلى الوجودية على أنها «موضة» أو تقليعة..

ولما جاءت المطربة الفرنسية جوليت جريكو إلى القاهرة، ورأى الناس أنها ترتدى الملابس السوداء وتنكش شعرها وتشرب وترقص وتدخن وصوتها غليظ ظنوا أن هذه هى الوجودية فأصبحت ملابسها وشعرها موضة بنات الذوات.. وساعدهم على ذلك العديد من الشخصيات التى ظهرت فى روايات ومسرحيات الفلاسفة الوجوديين الفرنسيين: جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار والبيركامى وجبريل مارسيل والفيلسوف الأسبانى أونو مونو.. والنماذج الأدبية التى اختارها عميد الفلسفة الوجودية الألمانية: مارتن هيدجر.. والتى ظهرت فى روايات الأديب البرتو مورافيا..

ولكن النماذج ظهرت فى أعقاب الحرب.. فكما أن هناك بيوتاً قد انهدمت فهناك عقول وقلوب أيضاً.. وكما أن اللون الأسود هو الذى يعقب الغارات الجوية والحرائق، فكذلك الظلم والظلام واليأس والرغبة فى الموت والخوف للذين يلازمان كل المحاربين القدماء والمشوهين والأسرى والجرحى واليتامى والأيامى والأرامل.. فهى - إذن - ليست دعوة لأن يكون الناس كذلك.. ولا أن تكون البيوت والقرى والمدن.. وإنما هو تصوير عميق لما حدث، أملاً فى ألا يحدث.. وأملاً فى تعميق الشعور بالذنب والخطيئة، فلا تشتعل حرب.. وحتى لا يموت عشرات الملايين وتتشوه مئات الملايين جسدياً ونفسياً.

فنحن لا نصف طبيباً بأنه انهزامى لأنه لا يلتقى إلا بالمرضى والمتوجعين والباكين.

ولا نقول للقمر والنجوم فى السماء إنها تريد الليل أن يستمر حتى تظل لامعة متألفة.

يقول مصطفى صادق الرافعى:

يا من على البعد ينسانا ونذكره

لسوف تذكرنا يوماً وننساكا

إن الظلام الذى يجلوك يا قمر

له صباح متى تدركه أخفاكا

وفى بريطانيا وأمريكا اتخذ التعبير عن الألم شكلاً آخر - وإن كانت كل هذه الأشكال الأدبية «تسقى من ماء واحد» - هو كرامة الإنسان أو إهدار كرامة الإنسان.. فالإنسان كرامة. وإذا أهدر الإنسان فلا كرامة له.. ولكن لأنه إنسان فهو لن يقبل الظلم. وهو من أجل ذلك يقيد حريته من أجل أن يحصل على مزيد من الحرية، كالذى يحرم نفسه من الطعام ليزداد رشاقة وقدرة على الحركة.. فهو يجوع ليصبح..

فالتاريخ الإنسانى كله ليس إلا مسرحاً للحرية.. أى لنشدان الحرية فالإنسان حريص على أن يضاعف نصيبه من التحرر.. التحرر من الخوف ومن الجوع والظلم والجهل والمرض.. فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى له تاريخ.. لأنه الوحيد الذى له حرية.. والإنسان يجلس على تاريخه كما يجلس الكانجرو على ذيله.. وتاريخه هو حريته.. ومزيد من حريته..

ففى بريطانيا ظهرت مدرسة أدبية هى فرع على شجرة الوجودية اسمها مدرسة «الشبان الساخطين».. وهذه المدرسة ترفع شعاراً: أن الإنسان هو الحيوان الغاضب من نفسه ومن أجلها.. فهو يغضب من ضعفه ومن عزله ومن قهره، حتى يكون أقوى وأكثر مسئولية وأسمى كرامة.. أما الوحوش التى تلتهم الإنسان فهى المؤسسات والهيئات والمنظمات والشركات.. إنها الوحش الذى يبتلع حرية الإنسان.. وفرديته..

وهذه المؤسسات هى «الحوت» الذى ابتلع يونس عليه السلام.. ابتلعه ولم يقتله.. ولم يقض على لحمه وشحمه ودمه.. فإله سبحانه قد أنقذ يونس عليه السلام.. وقد أنقذه لأن يونس قد نادى ربه.. أى اختار القيم والمبادئ الرفيعة.. فهى طوق النجاة الذى أنجاه من الموت ومن الماء إلى الشاطئ وهى المظلة الواقية التى هبطت به إلى الأرض سالمًا.. وفى القرآن الكريم ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولكن الشبان الغاضبين الساخطين طلبوا النجاة. ولكن لا نجاة.. ولا عاصم اليوم من أمر ربى.. فطوفان المشاكل الإنسانية والسياسية والاقتصادية التى اجتاحت العالم كله، من الصعب أن ننجو منها بطوق أو مظلة أو فى بطن الحوت..

وفى أمريكا ظهر شبان آخرون اتخذوا لهم اسمًا آخر هو «الشبان الصاخبون» وكانت ثورة الأدباء الأمريكيان أساسها: أن الفرد ضائع فى الدولة العظمى الغنية فهو ليس إلا مسمارًا صغيرًا فى آلة جبارة.. لابد أن ينضبط وأن يرتبط.. وأن يكون عضوًا له رقم وخانة ودوسيه وملف فى هيئة ما.. وإذا لم يفعل مات جوعًا وهوانًا.. فهو وحده لا شىء.. وهو فى مؤسسة ما شىء ما.. فالمجتمع جهاز قوى والفرد ليس إلا قطعة غيار.. والحياة للجهاز وللشركة والمؤسسة، أما الفرد فهو يجىء ضمناً.. وكل إنسان قطعة غيار، تظل فى موقعها مادامت تؤدى دورًا فإذا عجزت عن هذا الدور أتوا بقطعة غيار أخرى.. ولذلك كانت ثورة الأدباء على هذه الميكانيكية والآلية.. وعلى أن يكون الإنسان لا إنسانًا.. وأن يقبل ذلك وإلا مات جوعًا.. فلكى يعيش لابد أن ينكر ذاته.. وألا يكون إنسانًا..

وعرفت أوروبا وآسيا وأمريكا أشكالاً وألواناً من الاحتجاج على القديم المستمر فكانت الخنافس وغيرها من الأسماء الأخرى.. التى احتجت على السلوك والزى التقليدى.. وأنا أول من أطلق كلمة الخنافس هذه فى الستينيات.. وهى ترجمة خاطئة وقعت فيها.. ولكن حاولت أن أصلحها بعد ذلك فلم أفلح.. وظهرت موسيقى وأغانى الخنافس التى كانت احتجاجاً على سيطرة الموسيقى الأمريكية على أوروبا وظهرت الفساتين فوق الركبة وانتشرت من بريطانيا إلى العالم كله، وكان ذلك احتجاجاً على سيطرة فرنسا على الأناقة فى العالم.. وكانت لى جلسات طويلة مع الأديب السويسرى ديرنمات.. والأديب الإيطالى مورافيا..

والفيلسوف الألمانى هيدجر.. فما وجدت أنا أيضاً تفسيراً مريحاً، ولا حلاً عاجلاً لما كنا فيه فى مصر.. أننى أتحدث عن شباب المفكرين والأدباء.. وكانت الردود كأنها تقول: احمدوا ربنا على ما أنتم فيه.. يكفى أنكم تشعرون وتقلقون وتعبرون.. وعندكم أمل فى الحل..

وتحيرنا بين المذاهب فى الفلسفة وفى الأدب وفى الدين.. وتحيرنا بحثاً عن وجهة.. وعن طريق.. وطال البحث وتعددت الطرق، وسرنا كل واحد فى طريق.. وتعذبنا عذاب الملك الأسطورى تنتالوس.. ذلك الملك الغنى العظيم الذى أحبته آلهة الإغريق.. غير أنه ضاق بالآلهة فقد وجدها سعيدة.. بتعذيبها للإنسان.. وهو إنسان. فراح يفشى أسرار الآلهة إلى الإنسان، لعل الإنسان أن يقف فى وجهها،

وأن يكون كريماً على نفسه.. وأن يكون قادراً على أن يتحرر من ربة القيود
الجامدة لآلهة الإغريق أو من ضعفه وعجزه وعمره المحدود.. فانتقم من الآلهة..
وكان انتقام الآلهة أشنع وأبشع فقد وضعوه فى نهر من أنهار جهنم.. وكلما
ارتفع الماء إلى شفتيه وحاول أن يبل ريقه، انحسر الماء إلى قدميه.. فإذا رفع
رأسه تدلى غصن شجرة تفاح، ولامست التفاحة شفتيه فإذا حاول أن يأكلها
ارتفعت التفاحة بعيداً.. فإذا أغمض عينيه جاء حجر كبير يهدر من قمه الجبل
وينحط بسرعة هائلة وسط دوى عظيم ويقف فجأة ملامساً لشعر رأسه.. ويعود
الماء والتفاح والأحجار.. وإلى الأبد.. وكذلك حاول الإنسان أن يعرف سر ضعفه
وسر قوته.. حاول.. وظهرت عشرات الاجتهادات.. ومد يده ولم يجد شيئاً يريح
العين والأذن والعقل والقلب.. فكل شئ عنده، وكأن شيئاً ليس عنده.. وسط الماء
ولا يشرب، تحت الثمار ولا يأكل، فى مهب الصخور ولا يهدأ..
ووقف الإنسان حائراً عاجزاً..

يقول الفيلسوف الوجودى هيدجر وهو يصف حيرته وصبره الطويل أمام الحقيقة:
لقد وقفت حانى الرأس أمام سيدتى، وانتظرت أن تجود على بشىء فلم تفعل!
فالناس أمام الحقيقة ثلاثة:

واحد ينتمى إليها..

وواحد لا ينتمى..

وواحد يدور حول نفسه.. حتى لا يرى ولا يسمع ولا يفكر.. أو يهرب منها
أو يغيب عنها..

أو بعبارة أخرى: إن الإنسان فى مواجهة أية مشكلة:

إما أن يدخل فيها.

وإما أن يخرج منها

وإما أن يتسلل إليها

والناس إما مع الحديد.. وإما ضد الحديد وإما يتسللون لصوحاً إليه.. أو إما
يتقدمون الحقيقة.. وإما يسIRON إلى جوارها.. وإما يمشون وراءها..

المهم أن تظل الحقيقة على مرأى ومسمع منهم، لا يتجاهلون، وإنما
يحاولون أن يروها من زوايا مختلفة. لعلهم أن يفهموا ويحللوا. فإذا عرفوا قالوا..
وإذا قالوا عرفناهم..

وكان الفيلسوف العظيم سقراط إذا وجد واحدًا من تلاميذه لا يسأل ولا يتكلم
قال له: تكلم حتى أراك!
فالذى له رأى له رؤية!
فالرأى والرؤية والنظرة والنظرية بمعنى واحد..

ويضيع من قدمى الطريق - قالها الشاعر كامل الشناوى..
والشعراء أسبقنا إلى الحس العميق والمعنى الجميل..
وقد ضاعت من أقدامنا الطريق.. وضاعت أقدامنا أيضًا..
وسادنا شعور بأنه لا معنى لشيء ولا قيمة ولا هدف ولا أمل فى أحد أو شيء
وهذه جميعًا مفردات لمعنى كلمة فلسفية واحدة هي: العبث.. فالعبث ليس هو اللعب..
لأن اللعب له قواعد.. فكرة القدم لعب.. لها قواعد وأصول واجتهادات ولها
قضاة، والجمهور هم المحلفون.. ومباريات كرة القدم هي محاكمات علنية وهي
لعب.. ولكنه له قواعد ونظريات وتاريخ ككل الفنون الجادة..
أما العبث فمعناه الفلسفى: ألا يكون هناك معنى لشيء.. ألا تكون قاعدة.. وألا
تكون جدوى لشيء أو من شيء..

وانتقل إلينا العبث من المسارح الفرنسية بصفة خاصة..
فالمسرح الفرنسى عندما عرض عشرات من مسرحيات العبث.. كان يقصد أنهم
فى فرنسا قد فقدوا الأمل فى أى شيء.. فالناس ينتظرون فى المحطات ولكن
قطارًا لا يجىء.. ينتظرون الرحمة، ولكن أحدًا لا يرحم.. والألفاظ فى القواميس
تنتظر المعانى، والمعانى قد رحلت.. ومادامت الألفاظ بلا معنى فلا لغة.. ولا
تعبير.. لأن التعبير معناه أن أجعل المعنى يعبر منى إليك، فالتعبير والعبور بمعنى
واحد.. ومادامنا لم نتفق على معنى كلمة واحدة، فإننى لا أستطيع أن أنقلها إليك..
فلا لغة.. ولا حوار.. ولذلك جاءت مسرحيات العبث تضم أناسًا يتكلمون ويسمعون
بعضهم البعض.. ولكنهم يكلمون أنفسهم على مسمع من الآخرين..

وظهرت مسرحية «يا طالع الشجرة» لتوفيق الحكيم.
وكلما سخر الأستاذ العقاد من الوجودية. سخر طه حسين من مسرح العبث..
فقال لى طه حسين: إن توفيق الحكيم لم يأت بجديد.. فالأدب الفرنسى عرف
شعراء مثل فيرلين ولوتريامون ورامبو.. وهم جميعًا كانوا يهزون بكلام له وزن
وقافية وهو هذيان موسيقى.. وكذلك توفيق الحكيم:

وبقى العقاد وطه حسين فى أبراجهما العالية التقليدية.. أما توفيق الحكيم فكان معاصراً، وكان أسرعهم تعبيراً عن الواقع المصرى بعد الهزيمة العسكرية التى عصفت بآمال وأحلام الناس.. وكأنها سحبت الغطاء الذهبى لكل عملاتهم ومعاملاتهم.. ففلوسهم ورق.. وثراؤهم إفلاس.. مادية وروحى!

وكان العبث المسرحى فى الستينيات حزيناً مؤلماً قاتماً.. فالأشخاص على المسرح غاية الحزن والهم والغم.. يحدثون أنفسهم ولا أحد يرد ولا أحد يسمع. فالذى يقولون لا معنى له..

والذين يسمعون لا يفعلون شيئاً. فقط يرون حالهم ويزدادون حزناً على ما أصابهم.. مرة خارج المسرح.. ومرة أخرى فى المسرح..

ويشعرون كأنهم على باب جهنم التى وصفها لنا الشاعر الإيطالى دانتي.. فكتب على بابها هذه العبارة: أيها الداخلون اتركوا وراءكم أى أمل فى النجاة..

وكان هذه العبارة كانت منقوشة على باب كل مسرح وكل بيت وكل ضمير! ولكن انتقلنا فى السبعينيات والثمانينيات إلى نوع آخر من «العبث».. إنه

العبث الضاحك فكل المسارح تضحك على المتفرجين.. وهى فى الوقت نفسه تضحك على نفسها.. عندما تفضح عيوبنا محكومين وحاكمين.. وتتسابق

المسارح فى المبالغة فى عيوب المتفرجين.. والمتفرجون راضون عن كل ذلك.. فهم يسمعون ويضحكون. ولكنهم لا يذهبون إلى أبعد من ذلك.. أى أن الذى

يسمعونه لا جدوى منه.. لا فائدة.. وكأنه كلام بلا معنى.. وكأنه ليس مطلوباً من أحد أن يعمل شيئاً، فكأنه لا سمع ولا رأى.. أو كأنه عندما سمع ورأى لم يفهم..

فكأننا فى العشرين عاماً الماضية اتفقنا على أن نذهب إلى المسارح فى حالة إغماء شديد.. فالذى يبكيها كالذى يضحكنا.. كلاهما عاجز عن أى جعلنا نفعل

ما هو أكثر من ذلك فى إصلاح حالنا..

وفى العبث الحزين والعبث الضاحك يتعذب المتفرج بالبكاء على نفسه وبالسخرية منها.. فهو فى الحالتين قد بالغ فى إهانة الإنسان.. وكرامة الإنسان

وإغراق المشاهد فى دموعه، باكياً أو ضاحكاً..

وقد طال بكاء الإنسان على نفسه، وطال أيضاً احتقاره لها..

ولا بد من أن يتوقف وأن يلتفت إلى نفسه وإلى الذين حوله.. وأن يتدارك نفسه..

وأن ينتشل نفسه من أساه ومن هوانه ومن بهلوانيته..

والا طال هذا الحال.. وتجمدنا.. وتقدمتنا الدنيا كلها..
وعند الجرمان أسطورة تانهويسر الذى عاش فى أحضان الآلهة فينوس طويلاً
وانشغل عن أداء ما طلبته الآلهة منه.. وطال سهره وسكره ولهوه. وضاق بنفسه
واستشرى فيه الملل.. فخرج إلى سطح الأرض يطلب العفو من البابا.. ولكن البابا
قال له: لن أغفر لك إلا إذا أزهرت هذه العصا التى فى يدي!
ونظر تانهويسر إلى عصا البابا الذهبية المرصعة بالماس ورأى أن هذا هو
المستحيل.. ولكن بعد يومين ظهرت الزهور فى عصا البابا.. معجزة.. فجعل البابا
يبحث عنه.. ولكن اليأس كان قد أعاد تانهويسر إلى حيث كان.. إلى مبادلته فى
أحضان فينوس تحت الأرض!
فلا بد أن نصدر عفواً عن أنفسنا وأن نتسامح وبسرعة حتى لا نعود إلى ما كنا
فيه.. أو نبقى على ما نحن عليه..
وهذا العفو هو رد اعتبار الإنسان لنفسه وبيده وبقلمه وبأغانيه ومسارحه
وكان توفيق الحكيم ينظر وراءه فى غضب وأمامه فى يأس..
أما الغضب فنعم. وأما اليأس فلا..
فى سنة ١٨١٨ ظهر فى ألمانيا كتاب للفيلسوف الألمانى شوبنهاور. الكتاب
اسمه «العالم كإرادة وفكرة».. والفيلسوف فى هذا الكتاب يحتقر إيمان الإنسان
بالتقدم.. فهو يرى أن الإنسان حيوان يحاول أن ينسى أنه حيوان.. وأن غريزة
الحياة قد سخرته من أجل أن تمتد الحياة.. فلا حب ولا كرامة.. وإنما جنس يدفع
الذكور لأن تخدم الإناث من أجل أن يجيء الأطفال باسم الحب وتمتد الحياة. هذا
كل ما هناك!
وعندما أعطى الفيلسوف كتابه هذا لأمير شعراء الألمان جيته، وأعاده فى
اليوم التالى قائلاً له: إذا أردت أن تجعل للدنيا قيمة، فاجعل لنفسك قيمة!
والشاعر يقول:
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم.
فإن لم نسترد كرامتنا بأيدينا وبأحلامنا وأقلامنا وأفلامنا، سوف نظل هكذا..
موتى بلا قبور..
وقد كان المزاج العام فى أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر حزيناً كئيباً
فانتحر أدباء وشعراء، أو ماتوا وهم يحلمون بذلك:

شلى وبىرون وكىتس ونوفلايس وتيك ولرمنتوف وليوبردى وبوشكين.. ولكن الحضارة الغربية بما فيها من حيوية وقوة إبداعية، انتشلت نفسها بنفسها، بأصابع العباقرة من أبنائها: هيجو وهينة وابسن ودكنز وتولستوى ودستوفسكى وداروين وغيرهم..

فلم يطل عذاب الضمير الأوربى.. ولكن بسرعة شخصوا الداء ووجدوا الدواء استعدادًا لمغامرات فكرية وسياسية وعسكرية وعلمية جديدة..

ولكن داءنا نحن طال واستشرى واستقر.. والذى يبكىنا بالأمس هو نفسه الذى يضحكنا اليوم..

وإذا كانت الوجودية قد أسرفت فى الكلام عن الفردية والحرية والقلق والموت فلأن هذه المبالغة دليل على عمق هذه المعانى.. ودليل على إحساسنا بخطورتها على مسيرتنا.. وعلى افتقادنا لكل ما يضىء ويريح.. افتقادنا إلى الحرية والفردية وإلى الحل وإلى الطريق.. وإلى أن نجد أنفسنا وإلى أقدامنا وأن نجد الطريق تحتها والهدف فى النهاية..

فكلما أكثرنا من الحديث عن الحرية والفردية، كان ذلك دليلاً على حاجتنا إليها وخوفنا على القليل منها ألا يكون، وأملًا فى الكثير منها أن يحقق لنا وبنا وجودنا الإنسانى..

وعندما قيل للأديب الإنجليزى برنارد شو: إنك تتحدث كثيراً عن المال بينما يتحدث صديقك هـ ج ويلز عن الأخلاق، أجاب كل واحد منا يتحدث عن الذى ينقصه!.. فنحن نتحدث كثيراً وطويلاً وعميقاً عن الذى ينقصنا..

وفى الأساطير الإغريقية أن الفتاة أريان قد أنقذت حبيبها من المتاهة بأن أمسكت خيطاً وتبعها إلى خارج ألوف الحجرات.. إلى الحرية..

ولم يعد ينقصنا إلا أن نجد هذا الخيط.. وأن يصح العزم وتصديق الرغبة فى النجاة من اليأس ومن فقدان الأمل فى الخروج.

إننا فى مصر نحاول أن نملاً أيدي الشباب بتراب مصر.. بواقع مصر فنعطى كل أسرة شابة مساحة من الأرض.. موقعاً على خريطة الوطن.. قطعة من الواقع.. قطعة من الملكية.. قطعة من الكرامة.. قطعة من الوجود.. ولكن قبل هذه المساحة من الواقع يجب أن نؤكد لكل شاب أن الأصابع التى يمسك بها أرضه، هى أصابعه هو.. وأن ذراعه هى ذراعه هو.. وأن الذى يملكه حق له.. فليست الأرض هى التى

تملكه.. ولكنه هو الذى يملك الأرض.. فهى أرضه وهى عرضه أيضًا.. ونحن بذلك نعالج مشكلة جوهريّة فى مصر.. فقد جاء علينا حين من الدهر كان فيه الذين لا يملكون هم الذين يدافعون ويحاربون ويموتون عن الذين يملكون.. فنحن الآن نريد لكل أن يملك، ولكل أن يدافع عن الذى يملكه من أرضه ومن وطنه ومن شرفه الذى هو رأسماله.. وفى الوقت نفسه مبرر هذا الوجود..

فلننظر وراءنا فى غضب.. فليكن.. فقد كان فى ماضينا ما يستوجب الغضب عليه وعلينا.. ولكن بعد أن عرفنا ماذا حدث وكيف.. يجب أن نرفع الجلسة التاريخية.. ونغلق الملفات القديمة.. وأن نوقف الماضى عند حده.. حتى لا يزحف على حاضرنا كما تزحف الصحراء على الأرض المزروعة.. وأن ننظر إلى الأمام فى أمل..

ففى أيدينا وفى عيوننا ما يستحق أن نسعد به.. وأن نحرص عليه.. وفى هذه الدنيا دول أدمنت المستقبل: أمريكا وروسيا واليابان ولذلك تقدمت كثيرًا وتفوقت.. ولا نعرف حدودًا فى انطلاقها الصاروخى إلى الغد.. وإلى الكواكب الأخرى..

واتخذ الماضى صورًا فنية واستقر فى المتاحف.. أما المستقبل فله قلاع أخرى هى المصانع والمعامل والحقول.. وهى البيوت الشابة وهى الأسواق والمنافسة المتجددة..

وكما ننظر إلى طفولتنا ونبتسم فكذلك يجب أن ننظر إلى ماضينا.. لقد انتهى وتحولت ألوانه الصارخة إلى ألوان باهتة، أو لا بد أن تكون.

ويجب أن نتواصى بأن نتفرق بأنفسنا وأن نحترمها وأن نقيّل أنفسنا من عثرائنا.. وألا ننظر وراءنا طويلًا فيصيبنا ما أصاب زوجة لوط عليه السلام.. حذروها ألا تنظر وراءها ولكنها نظرت فتحولت إلى تمثال من الملح.. كما تحدثنا التوراة..

أو ما حدث للبطل الأسطورى أورفيوس.. فقد ماتت زوجته بلدغة ثعبان فراح يتوسل إلى الآلهة أن يراها.. فوعده وكان لهم شرط ألا ينظر وراءه حتى يخرجها من تحت الأرض.. ولكنه لم يستطع فنظر وراءه فاخفتت الزوجة..

إنها دعوة للأدب والفلسفة والدين أن نقدم العون لننقذ جيلًا من جيل، ونستخرج الحياة من هذا الموت.. والمستقبل من براثن الماضى.. ولنتوقف عن التهام شبابنا وقودًا لماضيها.. وقد آن الأوان.. اليوم وليس غدًا..

يا أستاذ: أعطها آخر خيط حريه!

عندما استوقفوا الأديب أوسكار وايلد فى جمارك نيويورك سألوه: هل معك
شئ ممنوع؟
قال: نعم. عبقريتى!

إن الشعوب تغفر للإنسان أى شئ إلا أن يكون عبقرىاً!

أكبر دليل على وجود عبقرى، أن ترى الناس جميعاً تقف ضده!

قال الفيلسوف أرسطو: عبقرى؟ إذن لابد أن يكون به شئ من الجنون!

تصور رأس إنسان وضع على كتفى فأر، كيف يتوازن؟!

من الذى يحاكم العبقرى؟ من هو؟ وبأى قانون.. وما اسم هذه المحكمة وفى
أى عصر.. وما تهمته؟

إذا كنت أمام حيوان يمشى على ساقين، ويطير بجناحين، ويغوص فى الماء..
ويبتلع الشمس فى الصباح، والقمر فى المساء، ثم يجلس ليعبر عن كل ذلك - فما
اسم هذا الكائن!

تريدون أن تحبى عبقرىاً؟ إنها غلطتك.. كيف تمسكين الأشعة بأظافرك، وكيف
تحسين العواصف فى قلبك.. وكيف تضعين المحيطات فى معدتك ثم لا تقولين:
آه.. ليست غلطتك.. وإنما هو قدرك!

على باب أحد الأديرة وقف الفيلسوف النمساوى فتجنشتين يستمع إلى إحدى الراهبات..

قالت: أحبك يا أستاذ!

قال: أنت لا تعرفين ما تقولين يا آنسة.. يكفي أن تحبى إنساناً لتغلطى فى فهمه!

قالت: فهمتك أولاً ثم أحببتك يا أستاذ!

قال: الذى يفهم لا يحب. والذى يحب لا يفهم يا آنسة!

قالت: أنت الذى تقول ذلك؟ ولكنى أرى غير ما ترى يا أستاذ.. أنت ترى أنك شخص لا يطاق ولا يحبه أحد.. أنت الذى تقول.. وأنا أرى غير ذلك.. أنت لا ترى وجهك.. وجهك.. أعماق المحيط. عيناك.. أشعة النجوم.. شعرك.. حدائق الكرز. شفتاك.. أنت الكمال يا أستاذ..

قال: الكمال هو كل شىء خلقه الله يا آنسة.. الذبابة كمال الله.. والبرغوث كمال الله.. والجبال كمال الله.. وأنت كمال الله أما أنا فليست لى ميزة يا آنسة.. قالت: أنت الذى تقول ذلك؟!.. أستطيع أن أعيش من غيرك يا أستاذ..

قال: وأنا مثلك يا آنسة لا أستطيع أن أعيش من غيرى!

قال: ما الذى يغرى راهبة؟

قالت: كل ما حرم الله!

قال: الله حرم عليك إنسانيتى.. وحرم ملائكتك أيضاً.

قالت: لا تخف يا أستاذ.

قال: بل أخاف عليك.

قالت: منك؟

قال: أخاف عليك منك!

قالت: إن هذا الخوف هو الذى يغرينى.. يغرينى أن أظل فى حالة من الخوف.. خوف القمم والسقوط منها.. خوف الأعماق والموت تحتها.. خوف النار والاحتراق بها.. إننى وقود العبقرية يا أستاذ.. والنساء أشكال وألوان من الوقود.. هذه خشب وهذه بنزين.. وهذه أشعة.. وكلها فى النار.. أنا الفضيلة.. أنا أعظم: لا.. وأنت العبقرية.. أنت أعظم: نعم.. ماذا تقول يا أستاذ؟

قال: أنا لا أقول بمثل هذه السرعة وبهذا الجمال.. أنا أحتاج إلى بعض الوقت..

فطواحين الفكر عندى بطيئة.. وهى تطحنى أن لم تجد ما تطحنه.. فأفكارى مثل الدقيق.. مطحونة.. مثل نشارة الخشب مسحوقة.. أما أنت فأفكارك مثل زهور الغابة.. مثل أسماك البحر.. مثل نجوم السماء.. أنا أحسدك على هذه النعمة.. على نعمة الحياة.. أنت فى غاية الحيوية وكل ما حولك يفيض بالحياة.. أنا ميت.. وكل ما حولى قطع من الحجارة والزجاج والجليد.. أنت تلدين الأفكار وأنا أحنطها تمهيداً لدفنها.. هناك شىء واحد يجمع بيننا..

قالت: ما هو؟ أرجوك قل لى بسرعة يا أستاذ..

قال: أنت مختلفة عن كل النساء.. وأنا مختلف عن كل الرجال.. نحن نموذجان للعاجزين عن الحياة وحدهم.. وعن الحياة معاً.. أغلقى الباب.

قالت: لا يوجد باب.. نحن نقف على الشاطئ عند أطراف غابة.. لا باب ولا شباك لهذا العذاب..

قال: سعادتى فى هذا العذاب!

قالت: وعذابى فى هذه السعادة!

هذا هو الفيلسوف النمساوى لودفيج فتجنشتين؛ ليس له نظير بين الفلاسفة، أفكاره جديدة. فهو قد ألف نظريتين فى الفلسفة والمنطق.. إحداهما ترفض الأخرى.. وكان على الفلاسفة بعد ذلك أن يعقدوا صلحاً بين النظريتين.. أبوه رجل غنى جداً. ورث منه الكثير. ثم تخلص من هذا الكثير حتى يصادقه الناس لشخصه وليس لماله.. وتعدر عليه بعد ذلك أن يجد الصديق أو يجد المال.. وكان يترك القصور ويأوى إلى الشاطئ بين الصخور.. يريد أن يعيش فى عزلة وأن يفكر وحده.. حتى مرض.. ثم عاد يهرب من الحياة فى بريطانيا التى عاش فيها معظم حياته إلى النرويج.. ليعيش وحيداً.. ثم يعود إلى لندن.. أبوه موسيقار إلى جانب أنه صاحب مصانع للحديد والصلب، وأمه أيضاً. وهو كان يستخدم الكلارينيت فى التأليف والأداء. وكان بارعاً لدرجة أن بعض السمفونيات كان يؤديها عن طريق النفخ فى الكلارينيت..

وكان يعيش فى أحد الأديرة عندما تلقى خطاباً من إحدى أخواته تطلب إليه أن يبنى لها قصرًا فى فيينا.. فأقام لها قصرًا تحفة فى الجمال.. قال أحد المؤرخين: إن هذا القصر يشبه نظرياته الفلسفية فى الوضوح والقوة والجمال والبساطة..

لم يذهب إلى المدرسة إلا فى الرابعة عشرة من عمره.. تعلم فى البيت وكان يريد أن يتعلم الهندسة الميكانيكية.. أكمل تعليمه فى برلين.. ثم سافر إلى بريطانيا ليكون مهندسًا ميكانيكيًا. ولكنه انشغل طوال الوقت بالتفكير الفلسفى.. ودلالة هذه الألفاظ التى تستخدمها. وكيف نستخدمها. ومن أين تجيء المعانى. وكيف عن طريق ألفاظ تجيء بعضها وراء بعض يمكننا أن نفهم ما يقال.. وكيف أن جملة جديدة من أولها لآخرها تسمعها لأول مرة، ثم نفهمها.. ما الذى يجعلنا نفهم.. وما شروط الفهم؟

وعندما التحق بالجيش فى الحرب العالمية الأولى كان فى سلاح المدفعية.. وأدخل تعديلات على المدافع التى استخدمها.. ثم نقل إلى الجبال الإيطالية.. وبعد ذلك إلى الجبهة الروسية.. وكان طوال الوقت يكتب مذكراته.. وبعد نهاية الحرب أرسل هذه المذكرات إلى الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل.. قال رسل: لم أصادف فى حياتى أو حتى فىمن قرأت لهم أو عنهم مثل هذه العقلية الفريدة.. المتوهجة بالأفكار الجديدة..

ولما التقى به الفيلسوف رسل لكى يوضح له نظريته هو قال رسل: كل الذى كان فى نيتى أن أعلمه له قد فهمه بسهولة. ولم أجد عندى ما أقوله.. بل هو الذى لديه الجديد الذى سوف يقوله.

أما المذكرات التى كتبها فتجنشتين فكانت فى ٧٥ صفحة وباللغة الألمانية ولم يتمكن من نشرها إلا فى سنة ١٩٢١..

وطلبت إليه الجامعات البريطانية أن يدرس بها الفلسفة.. وعينوه أستاذًا للفلسفة فى جامعة كمبريدج..

وضاق بالتدريس فى الجامعة.. وقال: من الصعب أن يكون الإنسان أستاذًا جامعيًا، وأمينًا فى الوقت نفسه!

وذهب إلى القرى يعلم الأطفال فى المدارس الابتدائية.. ثم اتجه إلى رياض الأطفال. واختلف مع المدرسين. وترك التدريس.. وعاد إلى الجامعة يحاضر فى الفلسفة والمنطق..

واتجه إلى الهندسة الميكانيكية وفكر فى صنع محرك نفاث للطائرات.. وكان أول من صمم مصل هذا المحرك. وراح يطلق بالونات وراء السحاب.. يحاول أن يدرس اتجاه الرياح.. وأدى به الاهتمام بالطيران إلى ضرورة دراسة الرياضيات.

وفى وقت قصير جداً فهم فلسفة رسل الرياضية وأدخل عليها كثيراً من التعديلات..

ونصح تلامذته ألا يشتغلوا بالتدريس. وخاصة بالفلسفة. يقول: من المستحيل أن يكون الإنسان حرًا ومدرسًا فى الوقت نفسه.. إذ كيف يكون حرًا ويفرض على تلامذته أن يفكروا على نحو معين.. كيف يغضب أن يخالفوه.. كيف يتضايق إذا دخل القاعة فلم يجد طالبًا واحدًا.. إن الأستاذ الذى لا يجد طالبًا يجب أن يسعده ذلك.. فقد رفضه تلامذته لا كإنسان، وإنما كدجاجة لا تبيض إلا قطعًا منتظمة الشكل من الحجارة.. مربعة.. مستديرة.. مستطيلة.. المهم عند الأساتذة أن يكون للكلام شكل.. أن تكون للمعاني مسميات.. لا يهم أن تكون دقيقة.. فكل معنى هو طفل عريان يجب أن يتغطى بالملابس.. ضيقة أو واسعة.. المهم أن تكون هناك ملابس.. والمدرسون «ترزية» المعانى.. وهم يفضلون أن يكون إنتاجهم بالجملة.. وأن تكون الملابس من مقاس واحد.. أما أن تكون الملابس «مكسمة» على كل طفل، فهذا ليس شأنهم.. كل واحد يأخذ بدلته.. ويضيّقها أو يوسعها هذا شأنه.. وأن يكون ذلك بعيدًا عن الجامعة.. فالجامعة لا تعرف إلا اليونيفورم - أى الزى الموحد المقاسات والألوان والنسيج!

تساءل الفيلسوف فتجنشتين: لماذا تكون الفلسفة صعبة.. معادة.. تجعل التفكير مرتبكًا.. وتوجع الدماغ؟

وكان جوابه: الفلسفة ليست صعبة.. ولكن العقل الإنسانى ملئ بالأفكار المشوشة.. والمعانى المضطربة.. هذه الأفكار هى التى تجعل تناول الفلسفة صعبًا..

تمامًا كما يمتلئ فمك بالطعام ثم تريد أن تضيف إليه طعامًا آخر أفضل وألذ.. وأنت فى الوقت نفسه لا تريد أن تتخلص من الذى فى فمك..

أو بعبارة أخرى إذا أنت رأيت السيارات فى الشارع لا تتحرك إلا بصعوبة ويتصاعد منها الدخان ويكون لموتوراتها صوت عال ويطلق السائقون أجهزة التنبيه.. فليس ذلك لعب فى السيارة أو الموتورات أو فى السائقين.. ولكنه الزحام الشديد فى الشارع هو الذى يجعل الحركة أبطأ.. فليست السيارة ولا السائقون ولا الموتور، ولكنه الزحام والفوضى والهواء الملوّث فى الشارع.. وكذلك عندما يتخبط الناس والسيارات فى الشارع فليس سبب ذلك أن السائق

أعمى أو أن السيارة بلا فرامل.. ولكنه الضباب الكثيف فى كل مكان.. فليست الفلسفة وإنما الزحام والتشويش والضباب فى عقول الناس!

وأثناء الحرب العالمية الثانية طلب أن يؤدى أى عمل.. فعرضوا عليه الأعمال التى تناسب مركزه وسنه.. فاختار أن يكون بوابًا لأحد مستشفيات لندن.. وكان الناس يتضايقون عندما يرونه ينهض يفتح الباب لسيارات الإسعاف.. ثم يجلس أمام الباب والجليد ينزل فوقه.. حاولوا منعه ولكنه رفض!

وكانوا يلجأون إلى حيل مختلفة حتى لا يرهقوه.. وذلك بأن فتحوا بابًا للمستشفى من الخلف حتى لا يرهقوا الفيلسوف.. فاتجه هو إلى الباب الجديد.. وفى اللحظات القليلة للراحة كان يكتب مذكراته الفلسفية العميقة البديعة..

وفى هذه الأثناء اكتشف أنه مصاب بالسرطان.. ولم يتضايق لذلك.. فهو أراد أن يموت فعلاً.. فعنده إرادة الموت.. ولكنه لم يعرف كيف يجىء الموت.. ورفض أن يعالجه أحد.. فهو الذى اختار أن يموت.. ووجد أن هذا الموت هو تصفية حسابه مع هذه الحياة.. فالحياة لم تعطه شيئاً مريحاً.. لا عقلاً ولا زماناً ولا نظرية ولا أهلاً ولا صديقاً.. وحتى البنت الوحيدة التى اقتربت منه وهزت أعماقه، لا هو عرف لماذا اختارته.. ولا هى عرفت ما الذى جذبها فيه.. إنها اتجهت إليه.. وهو استراح إلى ذلك..

ما الذى تستطيع أن تعطيه؟ ما الذى يقدر أن يعطيه؟ إنها هى الأخرى فى غير مكانها من الجميلات.. كما أنه فى العظمة.. عظمة الاختلاف عن الناس، أراد الله لها ذلك، وله أيضاً..

والتقى الاثنان.. وكان سعيداً بأن يجد له شبيهاً.. جمالها كله فى خارجها، وجمالها كله فى داخله.. بل إن فى هذه الراهبة نوعين من الجمال.. خارجها جميل، وداخلها رائع.. كيف؟

فى مرة أخرى التقى بهذه الراهبة.. أو بواحدة شبيهة بها فقال لها: لا أعرف إن كنت المقصودة بالذى سوف أقول.. أو أنها كانت واحدة مثلك.. فلتكن واحدة مثلك شغلتنى من عشرين عاماً.. أنت أجمل مخلوقات الله.. وأكثر من عذب أيضاً.. أنت نموذج لجمال الجسم وجمال الوجدان.. أنت صورة للعذاب.. النار تخرج منك.. تحرقك جلدًا وقلبًا.. يجب أن نرفعك فوق.. فوق.. فيكون لك جهنم الجمال وجليد العزلة.. جليد القمم.. فكيف تتفجر النار من الجليد!.. إننى شاهد على عصرك.. كما

أنت شاهدة على عصرى.. ما الذى يمنعك أن تقتلينى وما الذى يمنعنى أن أقتلك..
مدى يدك.. المسينى.. فالنار لا تحرق النار.. والجليد لا يذيب الجليد.. منتهى
القسوة من السماء أن تخلقنا فى عصر واحد.. ولذلك فموتك حياة، وحياتى موت..
هل فهمت؟

ولم يقل لنا الفيلسوف فتجنشتين ماذا قالت إن كانت قد قالت!!
وفى إحدى الجامعات بعد أن استقال من «أستاذية الفلسفة» فى كمبريدج
التقى بالطلبة، وقال لهم: اسألونى: أريد أن أعرف إن كان عقلى لا يزال فى موقعه
من رأسى وإن كان رأسى لا يزال على كتفى.. وإن كنت لا أزال واحداً منكم..
اسألونى!

قال طالب: لم يعد عندك أمل يا أستاذ؟!
فأجاب: لم يكن عندى أمل فى أى وقت.. لقد أردت أن أضع نظرية لتوضيح هذه
الألفاظ التى تستخدمها.. لم أنجح، أنا طالب فاشل يا ولدى.. كل حياتى هى
مراحل متنوعة من الفشل.. فلا أنا أخ ولا أب ولا زوج ولا صديق، ولا شىء من
الذى تعلمته نفعتنى.. ولا أنقذنى.. إننى لا أعرف كيف أجرى حواراً مع أحد.. كل
الناس يتكلمون أحسن وأبرع.. كل الناس عندهم حجج قوية.. فلو صفعتنى أحد
على وجهى فإن عقلى لا يسعفنى كيف أتصرف فى هذا الموقف.. إن أى طفل يرد
بسرعة.. ويكون الرد هو أعظم إجابة وأقوى حل.. وأنا أندesh حقاً كيف يستطيع
الطفل ما أعجز أنا عنه.. فالتعليم إذن.. هو الذى يفسد الطفل، ويبلبل الشاب، ويشل
الشيخ.. إن العصفور ينقر الدودة.. والدودة تقاوم وينقرها وهى تقاوم.. إننى لا
أملك قدرة دودة ولا إصرار عصفور ولا سرعة طفل.. فى سن مبكرة طلبت منى
إحدى أخواتى أن أتزوج.. وقدمت لى فتاة جميلة الوجه ساحرة العينين.. ممشوقة
القوام.. جلست أتفرج عليها.. يا أستاذ.. وكل زملائى يعرفون ذلك.. أنت وحدك
الذى لا تعرف.. فنحن تعلمنا ومضى وقت دون أن أتكلم.. ولكنها اقتربت منى
أكثر.. واحتضنتنى وقبلتنى وهى تقول: إنما أردت ذلك فهل تريد أيضاً؟ لقد
أضعت هذه اللحظة الجميلة التى تلتقى فيها الإرادة والرغبة والعقل والكرامة..
انتظرت ما الذى يقوله عقلى.. لطعننى عقلى ولم يرد.. وسألتنى هى: ما بك؟.. فلم
أعرف ما الذى أقوله لها.. كيف جمعت هى مشاعرها وفكرها ورغبتها فى قرار
واحد مختصر.. ولم أفصح فى أن أحقق هذا القرار.. أليس هذا فشلاً؟ قمة الفشل!

ولذلك أرى أن الله أعطاني فرصة أن أعيش، فأضعت الفرصة.. ولا أظن الله سوف يعطيني فرصة أخرى.. ولذلك فأنا أضعت الوقت والفرصة.. فقررت ألا حياة لى.. وأنا الآن أموت يومًا بعد يوم كما يعرفون..

فسألته طالبة: نحن تعلمنا أن كلمة الفلسفة معناها: محبة الحكمة.. أى الحق والبحث عنه.. وحب العدل وتحقيقه.. وحب الجمال وتذوقه.. أى حب كل هذه المعانى. وفى الوقت نفسه كراهية الإنسان.. فالفيلسوف هو الذى يحب الفكر.. وأن يكون فى حالة تفكير، وينشغل بذلك عن الحياة والأحياء.. فلا يحب أحدًا من الناس.. لا رجالاً ولا نساء.. إذن فالفلسفة هى إفساد لأجمل ما فى الحياة.. وأكثر المعانى ضرورة لاستمرار الحياة.. إن الفيلسوف - إذن - شخص يتعلم كيف ينتحر يومًا بعد يوم.. ولكن قل لى يا أستاذ كيف تفسر حياة فلاسفة آخرين أحبوا وتزوجوا مرة ومرتين وكان لهم أطفال؟.. وكيف تفسر سلوك المرأة التى تحب وتعشق وسعيدة أو تعيسة وهى لم تسمع فى حياتها عن فيلسوف واحد؟! ولا وجدت من الضروري أن تعرفه أو تناقشه.. أو توقف حياتها حتى تراه وتفهمه؟

قال لودفيج فتنجشتين: والله يا ابنتى كنت أتمنى ألا أراك وألا أسمعك.. وألا ترينى أو تسمعينى.. ولكن لا حيلة لى فأنت تدرسين الفلسفة.. ولا راد للقضاء والقدر.. قضاء أن نكون معًا.. وقدرى أن تقولى وأن أرد عليك.. من أجل هذا أقول لك يا ابنتى إننى إنسان فاشل.. أنا وحدى.. إننى لا أدعوكم إلى أن تمشوا فى جنازتى.. إننى ميت وأنا اخترت الموت.. وأنا اخترته لأننى أستحقه.. لأننى أصنع سلعة يجب ألا أبيعها وألا يشتريها أحد.. وإذا اشتراها فمن الواجب أن ينظر فيها ثم يلقى بها على الأرض.. وأن يصدر قرارًا واحدًا يمنع التعامل معى.. وقبل صدور هذا القرار فقد أوقفت أنا التعامل.. أعرف لماذا رفضتنى السماء.. كل الذى كنت أحتاج إليه طوال عمري هو: المعجزة.. المعجزة.. المعجزة التى تنقذنى من نفسى.. وكنت أعتقد أن المعجزة امرأة زكية.. امرأة تقترب منى وتقبل كل هذا الغريب العجيب فى سلوكى. وترى أن من واجبها المقدس أن تعايش هذا الحيوان الذى له أنياب وأظافر.. لا أنا أطلقت أظافرى.. ولا أنا صنعت أنيابى، ولا أطلت ريشى.. ولا سويت حوافرى.. المرأة فقط هى هذا المخلوق الفريد، فلديها القدرة الفذة على أن تنفذ بإحساسها إلى أعماق أعماق الفيلسوف.. فإذا هى فى لحظة واحدة تفك الألغاز فى أعماقه.. وتعرف من هو؟ ويسرعة تقول لنفسها: هذا هو الإنسان.. هذا

هو الهدف.. هذا هو الذى أردت وأراد الله.. كيف تستطيع المرأة المعجزة أن تصل إلى كل ذلك.. أية قوة لديها؟ أى ذكاء؟.. أية غريزة؟ إن الله أراد أن يخلق المرأة لكي يسخر من جبروت الرجل.. إن الرجل يستغرق سنوات حتى يعرف حقيقة واحدة.. أما المرأة المعجزة ففي لحظة واحدة تعرف ألوف الحقائق. ويكون إحساسها صادقاً. كيف؟ هذه هي المعجزة، عندما تقول المرأة لنفسها.. ليس أسهل من أن أكون واحدة مثل بقية النساء.. ولكن ليس سهلاً أن أكون لهذا الرجل بالذات.. أما أن أكون واحدة مثل بقية النساء، فهذه إهانة لذكائى.. أما أن أكون لهذا الرجل ويكون لى، فهذه أعظم انحناءة من السماء للأرض.. قليلات يا ابنتى فى التاريخ من يظن ذلك.. وقد انتظرت واحدة من القليلات.. وأنت ترين أنها لم تأت.. وطبعاً لن تأتى..

قالت الطالبة: بل إنها قد جاءت يا أستاذ.. جاءت ووقفت بعيداً.. وراحت تفتش فى نفسها عن اللغة التى تتحدث بها إليك.. إن اللغة التى تعلمتها منك تمنعنى من استخدام كل الكلمات.. فلو قلت: إننى أحبك يا أستاذ.. أو إننى أحبيتك يا أستاذ.. أو قلت إننى كنت أتخيل الرجل الذى أحبه هو مثلك تماماً.. أو هو أنت بالضبط.. مع أننى لم أكن قد رأيتك.. أو عرفتك أنها مجرد صورة فى دماغى.. لا أعرف من أين جاءت.. ولكنها صورة.. رأيتها قبل ذلك.. فلما وجدتك.. كنت أنت مطابقاً للصورة.. شىء عجيب أن تكون الصورة هى الأصل، وأنت صورة الصورة.. إن هذا التطابق هو الذى أطلق شرارة الحب.. كما يحدث عندما تلتقى سحابتان فى السماء..

واحدة سالبة والثانية موجبة.. فيكون البرق والرعد.. الحب هو البرق والرعد شىء يبرق فى العين ويهز القلب.. هذا ما حدث يا أستاذ.. فقد أحبيتك فلم أعد أقول شيئاً.. وأنا اشتغلت بالتدريس عدة مرات.. وهربت إلى الشواطئ وإلى الحرب.. وكان أملى أن أتعرض للقنابل لعلى أموت.. ولا يمكن أن كل هذه الألفاظ لا معنى لها «كل هذه الكلمات» أنا.. إننى.. أحب.. وكذلك حرف الكاف الذى يجيء فى نهاية كلمة أحبك.. فكيف أتحدث إليك.. كيف أصارحك.. وأنت ترفض الحديث وتستنكر الحوار.. وتحثقر الإصرار على هذه الكلمات الغامضة.. أما أنا فعلى يقين من مشاعرى.. وأنت لست على يقين من شىء أو من أحد.. أنا أخذت ما أستحق.. وأنت أخذت ما تستحق.. أخذت السعادة بما أشعر به وأنت التعاسة.. أنت دودة القز

التي تنسج لنفسها كفنًا ونعشًا من خيوط الحرير ثم حرصت على أن تسد الكفن بإحكام حتى تموت دون أن يتدخل أحد لإنقاذها.. إننى أتحدث إليك الآن قبل أن تسد بآخر خيط هذا النعش على عبقريتك المعذبة.. وعذابك العبقري.. كل ما أطلبه منك أن تعطينى الخيط الباقي.. اتركه لى وأنا وحدى سوف أسحب وراءه كل الخيوط.. سوف أجعل للنعش طاقة وللكن نافذة.. دعنى أقم بتسريب الحياة التى رفضتها.. دعنى أقم بتهريب الأمل الذى يئست منه.. دعنى حياة فى موتك.. دعنى أنسا فى وحشتك.. دعنى باسم الأرض أعتذر للسماء.. دعنى أرفع رأسى إليك.. دعنى أسجد فوق.. أسجد على جبهتى على شفتى على ذقنى.. على صدر.. هل جئت متأخرة يا أستاذ؟.. المهم أننى جئت.. أننى أتشبث بكل خيط حرير.. بكل لحظة.. بكل كلمة تقولها.. أنت تريد الموت.. وأنا أريد الحياة لى ولك.. ممكن والله ممكن يا أستاذ.. إن فلاسفة الإغريق هم أعظم الفلاسفة.. كانوا يتزوجون ويعملون فى التجارة.. وآلهة الإغريق أعظم صورة لزواج العبقرية من الإنسان.. لقد كان الآلهة جميعًا يعشقون.. يحبون.. ويحقدون على الإنسان.. ينافسونه.. فكانوا يجعلون أنفسهم بشرًا وحيوانات.. فهم فى صراع وسباق مع الإنسان والحيوان.. إنهم يرون أن الحياة أعظم من الفكر.. وأن المرأة أعظم من الرجل.. وأن إحساس المرأة أصدق من فكر الرجل.. إننى جئت لأنقذ بقاياك منك.. فأنا أحبك يا أستاذ.. ولذلك سوف أطيل عمرك.. وفى ذلك أعظم دور لى وقيمة لحياتى.. وأروع تحية أقدمها من نفسى لنفسى على مرأى منك ومسمع من زملائى.. هذه لحظة تاريخية.. إنها أعظم اللحظات وأروع التحديات.. لا تقل شيئًا يا أستاذ.. أنا قلت من زمان.. وسوف أقول اليوم وغدا..

ولم يقل لنا الفيلسوف فتجنشتين بماذا أجاب على هذا الحكم التاريخى لفتاة جميلة ذكية قررت أن تقوم وحدها بتصحيح أوراق امتحان هذا الفيلسوف العظيم.. فهى وحدها وضعت الأسئلة وكانت اللجنة ورئيس اللجنة.. ثم سحبت من فمه آخر خيط حريرى ينسجه لقبره.. لكى يعيش.. إنها وحدها التى قررت له أن يعيش بعد أن أقام لنفسه النعش والكفن والقبر الزجاجى ورسم عليه العبارة التى كتبها الموسيقار الألمانى باخ عندما أهدى إحدى سيمفونياته للإمبراطور: (لله ولأى جار طيب!).

وكانت هذه الفتاة هى الجار الطيب، وأجمل وأذكى مخلوقات الله!

١ - فشل: غزو مصر

نجاح: وصف مصر

نابليون وصل ميناء الإسكندرية يوم أول يوليو سنة ١٧٩٨. وتأجل زحفه إلى القاهرة ثلاثة أسابيع بسبب الإسهال الذي أصيب به الفرنسيون. فقد أسرفوا في أكل البطيخ.. وقد اضطر نابليون إلى ضرب البطيخ بالمدافع حتى لا تمتد إليه أيدي الجنود.. واستولى على القاهرة وهربت قوات المماليك إلى الصعيد.. ورأى نابليون الأهرامات لأول مرة فبهره هذا الذي رأى. وقال لجنوده عبارته الشهيرة: إن أربعين قرناً تنظر إليكم من فوق هذه الأهرامات. وليس صحيحاً أنه أطلق المدافع على رأس أبي الهول - فنابليون هو ابن الحضارة وواحد من عباقرتها. وهو الذي أدرك من أول لحظة أن العلم أبقى من الحرب. وأن قواته لن تبقى طويلاً في هذه البلاد.. ولكن العلم والفن أبقى.. ولم يكد نابليون يلتفت إلى مصر.. حتى بهرته الآثار والثروات ولم يبهره الشعب!

وفكر بسرعة في إصلاح إدارة هذه البلاد: الحكم والزراعة والصناعة والري.. وفي عيد ميلاده التاسع والعشرين يوم ١٦ أغسطس سنة ١٧٩٨ وفي ضوء القمر وفي ظلال الأهرام اتخذ قراره التاريخي بإنشاء «معهد القاهرة» لجمع المعلومات التاريخية والاجتماعية والأثرية عن هذه البلاد وتنظيمها وتوثيقها وكانت هذه مهمة «اللجنة» التي جاءت معه مكونة من ١٦٥ من العلماء والفنانين الشبان مهندسين ورسامين وحفارين ومصورين ومترجمين..

ومن أول لحظة أعلن نابليون في منشورات باللغة العربية أنه مسلم وأن الشعب الفرنسي كله مسلم مثل المصريين تماماً.. وقد طلب من جنوده احترام الإسلام وشعائره وأن يجعلوا القضايا الدينية بعيدة عن مناقشاتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. وفي الطريق إلى مصر انشغل نابليون في مناقشات طويلة مرهقة مع كل العلماء عن الشرق وعن الديانات وعن الإسلام وعن مصر. وفي كثير من

الأحيان كان العلماء يقولون له: لا نعرف بالضبط.. ولكن فى مصر سوف نتحقق من هذه المعلومات..

وفى مصر لم يجدوا لها خرائط ولا نظاماً لضبط الرى والصرف ولا قواعد للزراعة. ولا بيانات عن آثارها وعن الحيوانات والنباتات والطيور والبذور.. ولا معنى هذه الأحجار المتناثرة فى كل مكان.

فقبل الحملة الفرنسية على مصر كان العالم كله ينظر إلى الأهرامات ولا يعرف ما هى.. وإلى النقوش على المعابد ولا يدري معنى هذه الزخارف. حتى الفرنسيون أنفسهم عندما نقلوا النقوش الموجودة على جدران المعابد والتماثيل، لم يكونوا يفهمون معناها.. حتى جاء العالم الفرنسى شامبليون بعد نابليون بثلاثين عاماً وفك رموز هذه الكتابة الهيروغليفية.. هنا فقط انفتحت علينا أبواب التاريخ.. مصر القديمة تكلمت ومصر الحديثة أخذت تجنى ثمار ذلك.. لقد استطاع نابليون بعبقريته الفذة أن يسلط الأضواء الباهرة على الماضى، وأن يدفع مصر دفعا إلى المستقبل فى وقت واحد.. وبنفس القوة..

وعندما جاء نابليون إلى مصر وحوله حشد من العلماء الشبان، كان مثله الأعلى الإسكندر الأكبر.. عبقرى الحضارة القديمة.. كان ينتقل بقواته فى أوربا وفى آسيا ومعه عدد من المؤرخين والفلاسفة والعلماء..

وقد عرفنا فيما بعد أن تحتبس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة كان أسبق الجميع فقد ترك فى معبد الكرنك سجلاً دقيقاً للنبات والحيوان بعد حملته الثالثة على سوريا وفلسطين!

وبعد شهر واحد من نزول القوات الفرنسية جاء الأميرال البريطانى نلسون وأحرق الأسطول الفرنسى!

ومنذ تلك الهزيمة أحس نابليون أن المغامرة المصرية قد انتهت.. وأنه لابد أن يفكر بسرعة فى الخطوة التالية.. فى مصر وفى أوربا. فى مصر انتهى كل شىء.. انتهت الحملة عسكرياً ولم يبق إلا هذه الحملة العلمية التى هى من مفاخر نابليون وفرنسا. وفى نفس الوقت حاول نابليون أن يواجه المصريين بشدة وعنف.. فالأسطول الفرنسى هو الذى تحطم، لا فرنسا ولا نابليون.. ولا علاقة لما حدث فى الإسكندرية بما يجمعه العلماء الشبان فى كل مكان من أحجار وعينات لكل ما ينمو ويزحف على سطح مصر.. وكل ما يضعه المصريون على أجسادهم

وفى أفواههم وعيونهم.. وكل ما يعملونه عند ولادة طفل أو موت رجل.. ولا ما تقوله الراقصات والمطربون فى الحفلات والأدوات الموسيقية التى يستخدمونها.. أو كانوا يستخدمونها.. والمذاهب الدينية الإسلامية والمسيحية وأجناس سكان مصر.. ولا يعرفون كيف يتزايدون وما هى القاعدة..

وقد تبين نابليون أن أول ما اهتمت به «اللجنة» هو الهندسة المدنية والمعمارية ورسم الخرائط.. فإذا به يطلب إليهم الاهتمام بالإنسان بعلاقاته وحياته وآماله ومخاوفه وتفسير هذه الظاهرة التى أدهشته: هذا الهدوء والقناعة.. وكيف أن الثروة كثيرة والأيدى قصيرة!

وتساءل نابليون: كيف ينظر المصرى إلى النيل ولا يتدخل فى مجراه.. وكيف ينظر إلى الصحراء ويقف عندها.. كيف يرى الأحجار ويبنى بيته من الطين.. كيف يفضل أكل اللحوم على الأسماك.. وكيف لا يزرع الفاكهة.. وهل المصريون يأكلون البطيخ لأنه نبات شيطاني؟!

ولما قيل لنابليون: إن المصرى يتزوج بغير اختياره.. أمه وأبوه وإخوته يختارون له العروس!

وكان تعليقه: إذن عند الطلاق يذهب الأولاد للدولة؛ لأن الأم لم تختار الزوج والزوج لم يختار الزوجة!!

فقيل له: هذه حكاية معقدة!

فقال: لماذا لا ننظمها؟

فقيل له: إنه الدين. وأنت أمرت بأنه لا شأن لنا بالدين!

ولم يتوقف العلماء الشبان عن جمع المعلومات من كل مكان واختاروا لهم بيتًا لأحد البكوات قد تركه وهرب مع قوات الزعيم المملوكى مراد بك إلى الصعيد.. وهذه المواد والملاحظات من كل لون وحجم هى التى كانت المادة العلمية لكتاب «وصف مصر» وقد استغرق جمع هذه المواد ثلاث سنوات، ليلاً ونهاراً.

وكان نابليون قد طلب إلى العلماء أن ينشغلوا تماماً بالبحث وألا يتابعوا أحداث المعارك فى مصر أو خارجها.. ولذلك فبعد ثلاثة أيام من إنشاء المعهد زحفت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ديزيه إلى الصعيد تطارد المماليك.. ولكن المماليك ظلوا يتراجعون إلى الأماكن النائية من الصعيد.. حتى أرهقوا الفرنسيين الذين لا يتحملون حرارة الصيف ولا يعرفون هذه البلاد، فعادوا إلى القاهرة.

ومما يروى عن القوات الفرنسية: ضباطها وجنودها؛ أنهم عندما رأوا روعة التماثيل الفرعونية ألقوا السلاح احتراماً للعظمة واستسلاماً أمام روعة التاريخ! ومع القوات الفرنسية ذهب مهندسون وفنانون. ومن بينهم المهندس دتريت الذى أصبح بعد ذلك مديراً لمتحف اللوفر.. وكان أول فرنسى يرى روعة التاريخ الفرعونى وعظمة الآثار القديمة.. واستطاع أن يرسم لوحات نادرة.. كان يرسم وقد وضع اللوحة على ركبتيه، أو هو على ظهر حصانه..

وفى عيد ميلاده الثلاثين أحس نابليون أن المجد ينتظره فى أوروبا وليس فى مصر. لذلك عاد سراً إلى فرنسا يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ يرافقه بعض أتباعه من الضباط والعلماء.. وآخر قرار اتخذه نابليون هو أن «لجنة الفنون والعلوم» يجب أن توسع نشاطها فتنقل إلى جنوب مصر، حيث عظمة مصر.

كان نابليون قد أعد كل شىء «لغزو» مصر.. وهو الآن قد ترك كل شىء «لوصف» مصر..

ويسرعة هائلة اجتمع العلماء الشبان.. واتفقوا على خطة العمل.. أى كيف يكتبون وينشرون كتاب «وصف مصر».. وهو أعظم إنجازات الحملة الفرنسية من الخرائط وتسجيل كل الفنون والصناعات والأزياء والجيولوجيا والنبات والحيوان. وقد رسموا ٩٠٠ لوحة.. هذه اللوحات، فى عصر ما قبل الكاميرا، هى إنجاز تاريخى فريد. وكان أكثر الرسامين والحفارين موهبة ذلك الرسام العظيم دتريت وهو الذى كان مسئولاً عن تصوير مراد بك نفسه، وهو صاحب اللوحة المشهورة عن القساوسة الأحباش ولوحة معبد فيلة والكرنك وأسيوط والمنيا وميدان الأزليكية.

وهو الذى طالب «معهد القاهرة» بإنشاء مدرسة للفنون يتعلم فيها المصريون ترميم الآثار ورسمها وهو صاحب فكرة ترميم معبد كوم أمبو ودندرة. أما المهندسون الفرنسيون الذين ذهبوا إلى الصعيد فقد وضعوا نظاماً للرى وتحسين الصرف..

أما المهندس كونت فهو الذى رسم اللوحات الفنية كلها. وهو العقل المحرك وراء «لجنة الفنون والعلوم».. وهو الذى اقترح على نابليون فيما بعد إذا أراد غزو بريطانيا أن يستخدم البالونات لنقل الجنود عبر المانش! وهو الذى صمم الميكروسكوب والعدسات لعلماء الحملة الفرنسية.. وهو الذى صنع لهم الأقلام

التي استخدموها فى الرسم.. وهو أيضاً الذى صمم أنواعاً وأحجاماً من الورق لم يستخدمها أحد من قبل كتاب «وصف مصر».. وهو الذى أبدع أنواعاً من المكابس فى المطابع، لم تكن معروفة قبل كتاب «وصف مصر».

وعندما استأذن نابليون فى أن يتزوج مصرية قال له نابليون: ليس قبل أن يكون وجودنا مشروعاً فى مصر.. أما زواجك من مصرية الآن فهو نوع من الاغتصاب.. ولكن بعد ذلك يشعر المصريون بالامتنان لك.. لا تتزوج!

وبعض العلماء تركوا مصر فى سبتمبر سنة ١٨٠١ بعد هزيمة الإنجليز لهم وقد ظل هؤلاء العلماء يعملون ليلاً ونهاراً، حتى أخذهم الإنجليز أسرى.. وقرروا أن يحملوا أبحاثهم واكتشافاتهم معهم.. وقالوا: نفضل أن نعطيها للعدو على أن نتركها فى مصر..

وقد أعادت بريطانيا معظم هذه الأبحاث إلى فرنسا.. وإن كانت قد ملأت متاحفها بكثير من الذى استولت عليه.. ثم إن الإنجليز استولوا بعد ذلك على حجر رشيد الذى اكتشفه العالم الفرنسى شامبليون.. ولا يزال حجر رشيد فى المتحف البريطانى حتى الآن.. وإن كانوا قد أعطوا الفرنسيين نسخة منه!

وقد تولى العالم الكيميائى الفرنسى برتوليه رئاسة لجنة نشر كتاب «وصف مصر».. ولكنه عاد مع نابليون..

ولم يشعر العلماء الفرنسيون بمرارة الهزيمة فى مصر.. ولكنهم شعروا بالكبرياء لأنهم فتحوا سدوداً تفيض بالمعلومات من التاريخ القديم.. فنابليون لم يفتح مصر الحديثة وإنما فتح مصر القديمة.. وأقبل العالم كله بعد ذلك يتفرج بعيون واعية ترى الأمجاد الفرعونية التى كانت ينظر إليها ولا يراها..

ومثال واحد يمكن أن نتخذه دليلاً على عبقرية نابليون ابن التاسعة والعشرين: اختياره شباباً فى العشرين.. وفى السابعة عشرة أيضاً.. كلهم جاءوا مع القائد العظيم وبحرارته وحماسه وذكائه وخياله يعيدون إلى مصر ذاكرتها التاريخية وحسها ومجدها.. مثلاً: العالم الشاب جومار وكان فى التاسعة عشرة وهو الذى رسم لوحات بنى حسن والفيوم وهو الذى نسخ كل النقوش ابتداء من الشلال الأول حتى القاهرة!!

وعند طبع كتاب «وصف مصر» كان عدد الذين يعملون فى الرسم والنسخ والحفر والإعداد له أكثر من ألفى عامل ومهندس. وجاءت الطبعة الأولى على

نوعية من الورق لم يعرفها أحد من قبل - لا طولاً ولا عرضاً ولا مادة ولا حبراً ولا طباعة..

وذاعت سمعة هذا الكتاب، وإن لم يكن فى متناول كل الناس.. وإنما تنافس الملوك والنبلاء وكبار المثقفين على اقتنائه.

وبدأ طبع كتاب وصف مصر سنة ١٨٠٩ فى تسعة مجلدات:

مجلدين: فى التاريخ الطبيعى: حيوانات ونباتات وأسماك وحشرات وطيور.. وأربعة مجلدات: عن مصر القديمة.

وثلاثة مجلدات: عن تاريخ الدولة الحديثة من الفتح الإسلامى حتى الحملة الفرنسية.

وقد ظهر على غلاف المجلد الأول: إنه طبع بأمر الإمبراطور العظيم نابليون.. أما المجلدات الثمانية فقد ظهرت بعد اختفاء نابليون.. ولذلك جاءت هذه العبارة عليها: طبعت بأمر من الحكومة.

وعلى الرغم من روعة هذه الطبعة الأولى، فقد اكتشف العلماء أن بها أخطاء كثيرة.. فقرر الملك لويس الثامن عشر إعادة طبعها فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٢٩. فظهر المجلد الأول عندما اكتشف شامبليون حجر رشيد.. الذى أدى إلى تدفق التاريخ المصرى القديم.. وكان حجر رشيد هو قمة الاكتشافات التى قامت بها الحملة الفرنسية.. وبعد اكتشاف هذا الحجر بمائة عام تماماً اكتشف الإنجليزيون: كارتر واللورد كارنر فون مقبرة توت عنخ آمون..

وجاءت الطبعة الثانية فى ٢٦ مجلداً.. أحد عشر مجلداً للوحات والصور والنقوش والأطلال الجغرافى لكل قرية فى مصر.. كما أن اللوحات كانت لكل بيت وحارة فى القاهرة.

وكانت الطبعة من ورق صغير، ولذلك زاد عدد مجلداتها..

وقد ظهرت عيوب الطبعة الأولى بعد اكتشاف حجر رشيد.. فالفرنسيون عندما نقلوا النقوش.. نقلوها بأمانة ودقة وهم لا يفهمون معناها..

ومجئ شامبليون إلى مصر سنة ١٨٢٨ كان نقطة تحول كبرى فى التاريخ القديم.. وشامبليون عبقرية أخرى للذكاء والصبر والإصرار والخيال والموهبة العظيمة.

وأهم ما يمتاز به كتاب «وصف مصر» هو الدقة فى الرسم والحفر والتسجيل..

ثم إن الفرنسيين كانوا متعاطفين مع المصريين.. ولم نجد عبارة واحدة فيها سخيرية بأحد أو بعادة أو تقليد.. وإنما كان مثلهم الأعلى هو: ما جاء فى الموسوعات الفرنسية التى صدرت قبل ذلك: التسجيل الدقيق الأمين.. أما التحليل والتفسير فهذا من اختصاص آخرين..

وقد سجل الفرنسيون أيضاً كيف أن المواطن المصرى كان مرهقاً بأعباء الحياة والضرائب.. وأنه كان صابراً ينتظر.. ولم يتحسن حال المصريين حتى أيام محمد على الذى كان عليه أيام مراد بك وإبراهيم بك.

وكان الفرنسيون يعتقدون أن المصريين إذا عرفوا عيوبهم فليس أسهل من إصلاحها. وكان ذلك وهماً عظيماً!! فقد عرف المصريون.. ولكن المسافة كبيرة جداً بين الذى يعرفونه ويألفونه وبين الذى يجب أن يثورا عليه..

وفى كتاب «وصف مصر» أخطاء بسبب السرعة وضيق الوقت وضرورة تنفيذ خطة الكتاب فى الوقت المحدد له بالضبط.. ولم يكن الخطأ عن سوء نية، أو كان عمداً فى أى موقع من مواقع الكتاب.. بل إن الفرنسيين كانوا حذرين وفى غاية الدقة العلمية.. فقد حذرهم نابليون كثيراً وطالبهم أن يكون الصدق والدقة والأمانة هى منطقهم ولا شأن لهم بما يجرى فى ساحة الحرب - هزيمة أو نصراً.. وله عبارة مشهورة.. وهى أن أبا الهول لن يدير ظهره للمصريين لأنهم لم ينتصروا!

مثلاً ما جاء فى كتاب «وصف مصر» عن «سحرة الثعابين» أكبر دليل على النظرة العلمية الموضوعية الآمنة فى تناول كل ما رأى علماء الحملة الفرنسية فى حياة المصريين.. فقد وقفوا أمام «الحاوى» الذى يدخل أى بيت ليستخرج الثعابين والعقارب منه.. الحاوى يمسك عصا وسله.. ويقف عند أحد أركان البيت.. ثم يتمم بكلمات غريبة ويمطها.. ويمد عصاه فيخرج الثعبان من أحد الأركان ملتفاً على العصا.. ومن المؤكد أن هذا الثعبان لم يكن قد أحضره ثم أطلقه فى البيت!.. لقد تأكد الباحث الفرنسى من ذلك تماماً..

ويحاول الباحث الفرنسى أن يفسر هذه الظاهرة الغريبة فيقول: إن هذا الحاوى لكثرة ممارسته الطويلة قد عرف بالضبط ما هى الأصوات التى يطلقها فتخرج لها الثعابين.. ويقول إننا فى حياتنا العادية نطلق أصواتاً مختلفة للكلاب والقطط وبقية الحيوانات.. فلماذا لا تكون هذه الأصوات التى يطلقها هى التى عرف بتجربته الطويلة أنها التى تستدعى هذه الزواحف من أوكارها؟!!

ويقول الباحث الفرنسي أيضًا إن علماء الحملة الفرنسية قد اكتشفوا أن الثعابين لها رائحة.. وهذه الرائحة تنبعث من سائل تفرزه.. فلماذا لا يكون الحاوي قد عرف هذه الرائحة.. فاتجه إلى مكان الثعبان من البيت.

أما أن الحاوي قد نزع أسنان الثعابين التي حملها معه ويلفها حول رقبتة، فقد تأكد الباحث الفرنسي من ذلك فوجد الثعابين بأسنانها.. ثم العقارب التي يلتقطها ويخفيها في طربوش العمامة، ثم يضع الطربوش فوق رأسه، هذه العقارب لم ينزع فكيها.. وإنما تنشط هذه العقارب وهذه الثعابين فوراً إذا أطلقها على أى إنسان آخر.. لا خدعة مطلقاً فى كل هذا الذى يفعله الحاوي فى قرى ومدن مصر.. ويقول: إنه لشئ مخجل حقاً أن يستعين الجيش الفرنسي بهؤلاء الحواة - أى إنهم لجئوا إلى هؤلاء الناس دون أن يفهموا بشكل علمى واضح ما هذا الذى يفعلونه..

ويقول الباحث الفرنسي أيضاً: إن الحاوي يستطيع أن يجعل أناساً آخرين لديهم «مناعة» ضد الثعابين والعقارب.. وذلك بأن يجعلهم يشربون سائلاً من إعدادة هو: ماء وعليه نقطة زيت وسكر ثم يبصق هو بعد ذلك فى هذا السائل ويتمتم بكلمات طويلة.. ثم يعطيه لأى إنسان.. فيشربه.. وبعد ذلك يعلق من أذنيه ثعبانين لمدة ربع ساعة.. وهذا هو ما يسمونه فى الريف المصرى «بالعهد» أى إن هناك عهداً واتفاقاً بين الحاوي وبين أى إنسان آخر ألا يقتله الثعبان أو العقرب..

ويفسر الباحث الفرنسي هذا الذى يحدث بقوله: إن هذا السائل ربما جعل الذى يشربه أكثر شجاعة وأقل خوفاً.. والثعابين تشعر بالإنسان الخائف أو الذى يريد إيذاءها.. فإن كان لا يريد، فهي لا تؤذيه..

(ومن أيام رأيت فى القناة الثالثة فى التليفزيون مروض الوحوش إبراهيم الطور يروى كيف أنه لا يخاف من الأسد فقال: إن الإنسان عندما يخاف فإن الغدة فوق الكليتين تفرز مادة الأدرنالين.. والأسد يشم رائحة هذا الإفراز فيعرف إن كان الذى أمامه خائفاً أو غاضباً!).

فالباحث الفرنسي لم يستنكر أى شئ مما رأى.. وإنما حاول أن يراها بنفسه وأن يتأكد من أنه لا خداع.. وفى نفس الوقت حاول أن يجد لها تفسيراً مؤقتاً.. واعترف بأنه لا يستطيع أن يفسر كل العادات الشاذة فى مصر، فذلك يحتاج إلى وقت طويل.. ولكنه يكتفى بالتسجيل الدقيق وبمحاولة الفهم، حتى تتاح فرصة أوسع لمن يجىء بعده - غاية الصدق والأمانة!

٢. الأحجار التي وجدوها:

الأهرامات والوجوه المصرية

ثم حجر رشيد!

قرار جرىء جدًا أن يفكر أى إنسان فى ترجمة بعض فصول كتاب «وصف مصر».. فالكتاب إذا وجد فى مكتبة عامة، فإنهم لا يسمحون بخروجه لأنه ممزق.. أو خوفًا من أن يزداد تمزقًا.. فعلى الذى يترجمه أن يذهب إليه وأن ينكفى على حروفه الصغيرة وأن ينفخ فى الصفحات ليتم تقليب الصفحات بالهواء خوفًا من استخدام أصابعه.. ثم إن لغة الكتاب قديمة وحاجة المترجم مستمرة إلى قواميس لغوية وعلمية واقتصادية.. أما الصبر والمثابرة والإصرار فلا بد من أن تكون مواردها لا تنفذ لا ليلاً ولا نهارًا..

ولا أعرف كيف اتخذ المرحوم زهير الشايب قرار ترجمة كتاب «وصف مصر».. لابد أن زهير الشايب حديدى الإرادة. أو أنه إنسان انتحارى. أما أن إرادته من حديد فلا شك فى ذلك، أما أنه انتحارى فلم يكن كذلك.. وإنما عاجله الموت فى سن صغيرة وهو لم ينشر من هذه الموسوعة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية إلا تسعة أجزاء - وهى تعادل مجلدًا واحدًا من مجلدات الموسوعة التسعة.. وإن كان الأستاذ زهير الشايب قد نقل بعض فصولها من مواضعها وأثبتها فى مكانها الأنسب من ترجمته..

وكان الأستاذ زهير الشايب، زميلى فى مجلة «أكتوير» شابًا متواضعًا. فلا أذكر أنه تحدث مرة واحدة عن ترجمته لهذه الوثيقة التاريخية، إلا بكثير من الخجل. ولما أهدانى المجلدات التى ترجمها أدهشنى ذلك.. فالكتاب صعب. وليس جذابًا. ولا هو يستهوى القارئ، ولم يكن يتوقع هو - ولا أنا - أية شعبية لمثل هذه

الكتب التاريخية.. ولابد أن الناشرين قد جاملوه كثيراً جداً حين رأوا صبره وتواضعه وجديته وقناعته بأى مبلغ من المال يقدمونه له..

وذهب الرجل دون أن يلقى ما يستحقه من تقدير علمى وأدبى.. فهو أيضاً أديب - ما فى ذلك شك. وكانت له قصص قصيرة ورواية وترجمة لمسرحية «موتى بلا قبور» للفيلسوف الوجودى سارتر وكتب أخرى فى التاريخ ومجموعتان قصصيتان هما: «المطاردون» و«المصيدة» ورواية عن الوحدة والانفصال عن سوريا اسمها «السماء تمطر ماء جافاً».. وترجم كتاب «تطور مصر» (١٩٢٤-١٩٥٠) لمارسيل كولومب وكتاب «فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية» لأندريه ريمون..

أما لغة المرحوم زهير الشايب فمتينة التركيب قوية البناء فصيحة، وعباراته طويلة، فنفسه طويل أيضاً. ثم إنه يتذوق جميل الكلام وهذا واضح فى اختياره لألفاظه. وقد فشلت كل محاولة لأن يكون صحفياً بحثاً. أى يضع «الخبر» تاجاً فوق رأسه وبعد ذلك يفعل له ما يشاء: يغنى يرقص يتشقلب. فالخبر هو صاحب الجلالة الصحفية. أبداً! لقد ظل زهير الشايب مفكراً ومحللاً سياسياً فهو جمهورى التفكير لا يكتب إلا بعد استفتاء شعبى حر.. وليس ملكى الأداء، يكتب بالأمر وعلى السمع والطاعة - عاش فنانياً ومات مفكراً!

وقد قابلت السيدة زوجته أكثر من مرة ونسيت أن أسألها عن كيف ترجم هذه الفصول الصعبة خارج البيت.. فأنا شخصياً لا أعرف كيف أكتب سطراً واحداً خارج البيت.. كيف استطاع هو أن يظل تلميذاً يقرأ ويكتب ويترجم فى المكتبة العامة.. لعل أسألها يوماً!

وعندما يتحدث عامة المثقفين فى الوطن العربى كله عن «وصف مصر» سوف يذكرون المفكر الوحيد الذى استطاع أن يفعل شيئاً عظيم الاحترام سوف يذكرون زهير الشايب كما يذكرون الأستاذ محمد بدران الذى ترجم مع آخرين «قصة الحضارة» - ٤٢ جزءاً - للكاتب الأمريكى العظيم وول ديورانت ويذكرون إبراهيم خورشيد الذى ترجم مع آخرين «دائرة المعارف الإسلامية» والتى لم تكمل مع الأسف.

ويقول الأستاذ زهير الشايب إنه فكر فى ترجمة موسوعة «وصف مصر» بعد الهزيمة العسكرية ١٩٦٧ عندما أحس الناس بالصدمة.. وبدأ الناس يتشككون

فى تاريخهم وأمجادهم وبعد أن تزعزعت ثقتهم بأنفسهم.. فاستداروا يبحثون عن مصر وما هى ومن هى.. وكيف كانت وكيف ينبغى أن تكون.. وراح الناس يبحثون عن الذات.. ذواتهم وذات مصر وحاضرها وماضيها الحزين ومستقبلها المجهول.. فهذا الاهتمام بمصر هو الذى دفعه إلى أن يقدم صورة لما كانت عليه مصر فى القرن الثامن عشر وبأقلام عدد من الشبان المخلصين.. جاءوا مع جيوشهم. انهزمت جيوشهم وانحسرت أمجادهم، ولكنهم ظلوا يكملون بالصبر والوعى والثقة بالنفس المهمة التى كلفهم بها القائد العبقري نابليون..

وقد اختار زهير الشايب ما كتبه العلماء الشبان الفرنسيون عن مصر المعاصرة لهم. وجاءت ترجمة زهير الشايب فى تسعة أجزاء:

- ١ - المصريون المحدثون.
 - ٢ - العرب فى ريف مصر وصحراواتها.
 - ٣ - دراسات فى المدن والأقاليم المصرية.
 - ٤ - الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر.
 - ٥ - الحياة الاقتصادية فى مصر - النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية.
 - ٦ - الحياة الاقتصادية فى مصر - الموازين والنقود.
 - ٧ - الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين.
 - ٨ - الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين.
 - ٩ - الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين.
- ولم يشأ زهير الشايب أن يغير معنى أو عبارة. فإذا قرر أن يضيف أو يحذف ذكر ذلك. مثلاً يقول:

- ١ - حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة - فقد وجدتها لا تليق!
- ٢ - حذفت هامشاً كاملاً أثار عند نشره فى مجلة «الثقافة» ردود فعل لم أكن أتوقعها. الهامش أربعة سطور.
- ٣ - حذفت آخر عبارة فى الكتاب - سطرًا ونصفًا - حتى لا يفسد مذاق الكتاب على لسان القارئ، فالمؤلف كان دقيقًا منصفًا..

لقد كان سكان مصر على أيام الحملة الفرنسية مليونين و٤٢٢ ألفاً - هذه

الأرقام أخذوها عن سجلات الضرائب العقارية المسوكة بأيدي الإداريين الأقباط.

وعدد القرى ٣٦٠٠ ومتوسط سكان القرية ٥٣٤ نسمة.

أما عدد سكان القاهرة وحدها فكان ٢٦٠ ألفاً من المماليك والتجار والأجانب.. المماليك: ١٢ ألفاً.. وأصحاب الأملاك: ٦ آلاف.. والتجار: ٤٠٠. والحرفيون: ٢٥ ألفاً.. والخدم: ٣٠ ألفاً.. والشغالون: ١٥ ألفاً.. عدد الذكور ٩٩ ألفاً وعدد الإناث: ١٢٦ ألفاً و ٧٥ ألفاً.. من الأطفال و ٢٦ ألفاً من غير المتزوجين..

أما عدد الحمير التى تنقل المواطنين فعددها ٣٢ ألف حمار.. فالمصريون لم يكونوا يعرفون العربات.. ولذلك ينتقلون على ظهور الحمير وكذلك بضائعهم..

وكانت التقاليد فى ذلك الوقت إذا كان أى مصرى على ظهر حمار، ورأى مملوكاً أيًا كانت قيمة هذا المملوك فلا بد أن ينزل فوراً احتراماً له..

وكذلك يفعل اليهود والأروام.. أما مصر القديمة فعدد سكانها ١١ ألفاً وعدد المسيحيين فيها ٦٠٠ نسمة..

وأكثر المصريين عرب؛ استقروا فى هذه البلاد وارتبطوا بالأرض.

أما العريان فقبائل تنتقل بخيامها فى الصحراء. وهؤلاء العريان لا يخضعون لأى قانون، إلا قانونهم ومشايخهم. بل يتجاهلون سلطة الباشا والبك.. وعددهم أربعون ألفاً..

وقبائل العريان فى المنصورة اسمها: درنه والبوارشة وحسن طوبار.

وفى البحيرة: الهنادى وأولاد على وهى أقوى قبائل مصر.

وفى الشرقية: نلى ورفاعات وسموانى وأولاد على والحيوان وجميلة وجماليات.

وفى قليوب: الصوالحة وجهينة والحويطات والعبابدة وطرايق.

وعلى الرغم من أن علماء الحملة الفرنسية كانوا من الشبان الصغار، وأنهم قد رأوا مصر والشرق كله لأول مرة، فإن ملاحظاتهم دقيقة نافذة وتبعث على الدهشة والإعجاب.. ومن أجمل الدراسات ما كتبوه عن المصريين: تكوينهم النفسى والعقلى وعاداتهم وأسباب تخلفهم وكيف يمكن دفعهم إلى الأمام.

ففى مصر شعوب كثيرة وعادات متضاربة ومختلفة.. ولذلك «ساحت» هذه العادات بعضها على بعض.. فاتخذت ملامح المصريين هذه الصورة «المحايدة»

أى عدم التأثر بشيء حولهم.. فالمصرى لا يظهر عليه الضيق أو الفرح.. فأنت لا تعرف إن كان مهموماً أو سعيداً.. صبوراً أو متحفزاً.. لا شيء من ذلك يبدو على وجهه.. فملامحه عموماً جامدة..

ويحاول الباحث الفرنسى أن يجد تفسيراً لذلك.. فيقول: لعله الطقس المعتدل على الدوام. الثابت. الهادئ.. الذى لا يتغير ولا يخفى أية مفاجآت من أى نوع. أو لعله إيمان المصرى بالقضاء والقدر. والرضا بما قسمه الله له. فكل شيء يبعث به ربنا خير. وليس فى الإمكان أبدع مما كان ومما هو كائن ومما سيكون.. أو لعله قد تعرض كثيراً لنزوات الطغاة والظالمين.. يحاسبون على أقل إشارة أو كلمة.. ولذلك فهو لا يبدى شيئاً بالإشارة أو الكلام. فهو قد أطبق شفتيه، وأطفأ نور عينيه خوفاً من الظالمين.. ولذلك يتفادى أن يبدى شعوره.. وقد اعتاد على الظلم، واعتاد على أن يواجه ذلك بالصمت أو بهذا «التلسين المستعذب» - كما يقول الباحث الفرنسى.. أى بالاستسلام مع الرضا، كأنه يجد متعة فى هذا العذاب.. تعذيب نفسه بالسكوت، وتعذيب ظالمه بعدم التآلم أمامه.. فلا فائدة من البكاء والصراخ أمام إرادة الطغاة.

فالمصرى يتعذب كثيراً ولا يقول: آه - لأنها إرادة الله. والله أكبر.. ثم إن الله يمهّل ولا يهمل.. ثم هو غفور رحيم.. وهذه هى الكلمات التى يقولها المصرى عندما يخلو إلى نفسه يجترهوانه وعذابه ويأسه من فرج الله.

والمصرى إنسان خجول.. ولكنه يجب ألا يتصور الأجانب أن هذا المصرى أبله أو معتوه لأنه يفعل كل شيء بغير اكتراث.. فالمصريون تجدهم طوال النهار مقرفصين أمام بيوتهم.. أو جالسين على الأرائك فى خمول وبلادة لا يشغلون أنفسهم إلا بالتدخين. كل الناس تدخن النارجيلة.. فهم فى حالة من الخدر والدوخة، فلو صدر على الواحد منهم حكم بالإعدام، فلن يندهش!

ولكن الصمت والهدوء يجعلهم فى غاية النشاط والحيوية والجرأة إذا أرادوا. وقد أكسبهم الصمت الطويل قدرة فريدة على الانتباه والمتابعة وكذلك ذاكرة قوية. حتى لتندهش كيف أن هؤلاء الناس النائمين على روحهم قد لاحظوا وفهموا كل شيء رغم أنهم فى حالة من هذا السبات العميق..

ونصف ملذات المصريين يقضونها فى الحمامات الشعبية التى فيها الماء الساخن والبخار والدخان ومن يدلك القدمين والظهر والبطن مستخدماً الأحجار

الملساء أو الفوط الخشنة الساخنة - وهذا يتناقض تمامًا مع المجتمع الأوروبي الذى لا يطبق إضاءة كل هذا الوقت فى بلادة وكسل.

ويضاف إلى كل ذلك: غياب القانون.. لا قانون.. ولذلك فكثير من النشاط الإنسانى معطل.. وكذلك الصناعة والتجارة..

ثم تجيء حرارة الجو فتضيف إلى كل ذلك مزيدًا من التراخى والكسل واللامبالاة!

وإذا نظرت إلى الفلاح فى الريف فستجده أتعس مخلوقات الله على هذه الأرض، ولكنه فى صحة جيدة. نحيف وملامحه ألطف من ملامح أبناء المدينة. شديد العناية بلحيته وتنسيقها. ولكن كيف ينشط هذا الفلاح وهو يزرع ويقلع ويجنى، وكل خيرات الأرض لغيره.. فكل جهوده القليلة لا تعود عليه بشيء.. فخيرات الأرض للسادة وللدولة.. أما هو فعليه أن يجمع الفتات - إن استطاع - من أى مكان..

ثم إن هذا الفلاح: خائف دائمًا.. متواكل راض بالقليل.. وهكذا فإن هذا الإنسان التعيس يروى بقطرات عرقه أرضًا لا تعطيه إلا القليل جدًا.. أما الباقي فهو يحمله على ظهره مثل الحمار تمامًا إلى السادة فى المدن.. فلماذا يعمل؟ ويقول الباحث الفرنسى إن كل الصناعات فى مصر فريسة الاستبداد.. أما التجارة فهى النشاط الإنسانى الوحيد المزدهر فى مصر.. لا بتشجيع الدولة، وإنما لأن مصر لها موقع جغرافى فريد.. ولذلك فليس أمام المصريين إلا أن يتاجروا.. أما السبل الأخرى فقد انسدت فى وجوههم: لا مراكز ولا مناصب ولا مجد..

وسوف تتعاضد المصائب والكوارث فى هذا البلد مادام الشعب مقهورًا ساكنًا على الظلم سلبياً خاملاً. وربما كانت «نعمة» من عند الله ألا يتعذب هذا الشعب بالألم والمحن التى تتناوبه يومًا بعد يوم.

ومما يبعث على الدهشة حقًا أن الفلاح لا يتعب من العمل. وكذلك العامل.. وأنت لترى السائس يجرى ساعات وراء وأمام حصان السيد المملوك. ولا يظهر عليه التعب.. أما القاهريون فهم أعداء الحركة. فالواحد منهم لى ينتقل من بيته إلى دكانه فإنه يركب حماره.. وتكون المسافة قصيرة ولكنه يفضل أن يظل جالسًا: أمام البيت.. أمام الدكان.. على ظهر الحمار..

وكل شيء مجهول فى مصر: إلا الحقائق! والحدائق ملحقة بكثير من البيوت.

مساحات صغيرة غير منسقة. فالمصري لا يزرع الحديقة ليتأمل جمالها. أبدًا.. وإنما لكي يزرع فيها الخضراوات ليأكلها على مدار السنة. ولذلك فهي «هوجة» من الأشجار والأعشاب بلا ذوق!

والفلاح رغم كل ذلك بشوش وشديد التناقض.. فبرغم الذل والجوع والهوان الذى يعيش فيه تجده باسم الثغر قويم العود.. ينام تحت الأشجار فى جو شديد الحرارة وعلى أرض ساخنة ساعات طويلة.. إن دقائق فى هذا الجو تكفى لقتل أكثر الأوربيين صلابة وصبرًا!

ومن أوجاع المصريين: آلام الأسنان. وليس سببها إفراط المصريين فى الأكل. ورغم أنهم يغسلون أفواههم بالماء والصابون بعد كل طعام، فإن أسنانهم شديدة التسوس.. وقد لاحظ المؤرخ هيرودوت ذلك عندما جاء إلى مصر. فتحدث عن الأطباء، وقال إن من بينهم أطباء تفوقوا فى علاج الفم.. ولا بد أن يكون السبب هو بعض أنواع الطعام (طبعًا لم تكن الحملة الفرنسية تعرف أن تسوس الأسنان من الممكن أن يكون لسبب نقص الفيتامينات والكالسيوم، أو من حالة العصبية أو الدخان الرديء جدًا الذى يتعاطاه معظم المصريين).

ومن عادات المصريين الغريبة أنهم إذا قصوا شعورهم، فإنهم لا يلقون بالشعر فى الزبالة. وإنما يلفونه بورقة ويضعونه بعناية فائقة فى شقوق الجدران! والحلاق المصرى هو أنشط صناعى فى مصر وأبرع حلاق فى العالم كله. وخصوصًا إذا حلق لك رأسك بالموس!

ومن عادات المصريين الزعيق فى الشوارع فى كل أوقات الليل والنهار.. وتجده أناسًا ممزقى الملابس يتلاحمون بالأيدى ويهدد الواحد الآخر بالعصا أو السكين.. ثم لا يذهب أحد إلى أبعد من ذلك.. وتنفض الخناقة كأن شيئًا لم يحدث!

أما «السقاء» فهو رسول الغرام بين المحبين.. وهو الذى يحمل الرسائل الغرامية والأسرار ويتقاضى أجرًا على ذلك!

ومن عادات المصريين أن الرجل لا ينام إلى جوار زوجته.. هو فى غرفة وهى فى غرفة أخرى.. أما الفقراء فينام الرجل عند ركن وتنام الزوجة عند الركن المقابل له!

أما التقاليد والعادات فى مصر فهى «غليظة» خشنة.. وسبب ذلك أن المرأة ليس لها دور فى الحياة الاجتماعية.. ولذلك فسلوك المصرى: عنيف متهور خليع خشن.. ولن تتغير هذه العادات إلا إذا دخلت المرأة فى الحياة الاجتماعية، وكان لها رأى فى البيت أيضًا.

المصرى يتفادى الخطر بأى شكل. ولكن عندما يكون مضطراً فإنه يصبح قوياً. شجاعاً.

ولذلك يقول الباحث الفرنسى إن إصلاح أداة الحكم فى مصر سوف تغير من عادات المصريين.. وسوف ترد إليهم كل الفضائل التى فقدوها وكل القوى الكامنة فيهم ولا يعرفون أنها موجودة جاهزة للعمل فى أى وقت.. وسوف يتمرد المصرى على كل هذه الأنظمة الشيطانية التى نكست رأسه وأذلت كرامته.. سوف توقظ فيها كل مشاعر النبل والهمة وعظمة الروح التى يستمتع بها.. إن أنظمة البكوات والباشوات قد أفسدت معنويات المصريين..

فالمصرى ذليل منكسر لأنه مرغم على أن يجارى الأقوياء وهو يحتقرهم. أما إذا أصبح المصرى غنياً فإنه ينقلب هو الآخر شيطاناً لعيناً ينتقم من الفقراء ويصفى حسابه معهم!

والفلاح أو العامل لا يستحى أن يتسول.. ليظهر ضعيفاً مسكيناً أمام الأغنياء والأقوياء.. فإذا أعطيته عشرة تسول منك واحداً.. لماذا؟ لا تفهم.. وقد حدث أن طلب أحد الأغنياء من ضابط فرنسى خمسين جندياً بسلاحهم.. فوافق الضابط.. فإذا بالمصرى يقول له: طيب خليهم واحداً وخمسين علشان خاطرى.. يعنى إيه واحد كمان.. مش حاجة! وضحك الفرنسيون لهذا السلوك الغريب.. ولكن التسول عادة مصرية على كل المستويات!

ومن النادر أن نسمع عن سرقة بيت.. أى بيت.. بل إن التجار يضعون بضائعهم الغالية على الأرصفة فلا يتقدم لنهبها أحد.. ويتركون دكاكينهم مفتوحة فلا يسرقها أحد.. شئ عجيب!

وربما كان السبب هو قسوة العقوبات التى يوقعونها على اللصوص!

وآخر ما أنقله عن الجزء الأول من كتاب «وصف مصر» الذى ألفه ج دى شابرول (٢٩ سنة) وترجمه زهير الشايب: عن خوف المصريين والنوبيين من رسم الصور الإنسانية.. يقول السيد شابرول إن المصريين يجهلون كل ما يتصل بالفنون الجميلة.. وهذه حادثة تدل إلى أية درجة هم جاهلون بذلك. يقول شابرول إن فنانا جلس فرسم أحد النوبيين.. وكان النوبى سعيداً برؤية الخطوط.. ولكن عندما بدأ الرسام يضع الألوان انزعج النوبى وهرب وهو يصرخ: لقد قطع رقبتى ووضعها على الورق!

وكان هذا النوبى يطلب إلى زملائه أن يتفرجوا من بعيد على مجموعة اللوحات التى رسمت عليها رءوس وسيقان.. وكانوا يرون فى ذلك شيئاً مرعباً.. ثم جاء الرسام الفرنسى وأجلس أمامه سيدة ورسمها أيضاً.. فقالت له: ولماذا قطعت رأسى وذراعى؟!

ويقول شابرول إن المسيحيين فى مصر يعتقدون أن كل الصور هى للقديسين فقط.. ولذلك فهم يركعون أمامها فى كل مرة يدخلون مرسم هذا الفنان.. وكانوا يقبلونها فى خشوع شديد!

عندما جاء الفرنسيون إلى مصر وجدوا ما لا نهاية له من الأحجار: الأهرامات والوجوه المصرية.. وحجر رشيد.. وحاولوا قراءتها جميعاً.. ونجحوا فى ذلك!

٣ . الأرض الزراعية هي

أعظم مصانع مصر!

أروع الدراسات التي كتبها علماء الحملة الفرنسية كانت عن الأرض الزراعية في مصر: عن الأرض طولها وعرضها وعمقها ومساحتها ومدى احتياجها للماء وعن الترع والمصارف - أو نقص الترع والمصارف وعن جميع الحاصلات الزراعية وسبب ضعفها..

فقد درس علماء الحملة الفرنسية كل ورقة خضراء على أرض مصر وكل الحيوانات وماذا يأكل ويشرب المصريون وماذا يستوردون ويصدرون وثمان كل ذلك.. ودرسوا الموازين والمكاييل.. لقد أدخل الفرنسيون كل شيء في معادلات حسابية اقتصادية.

وبمنتهى الذكاء والصدق انتهى علماء الحملة الفرنسية إلى أنه لن تتطور الأرض الزراعية إلا إذا قام المصريون بثورة في نظام الري والزراعة. وهذا لن يتحقق إلا إذا قامت في مصر حكومة عاقلة مستنيرة. هذه الحكومة تفتح عيون المصريين على أرضهم فيعرفون ما فيها من خامات وخيرات وفتح عيونهم على أنفسهم فيعرفون أن من حقهم أن يزرعوا وأن يحصدوا وأن يتحرروا..

ويؤكد علماء الحملة الفرنسية من معاشتهم للمصريين أن هذا التطور قادم لا محالة. فقد لاحظوا أن اختلاطهم بالمصريين قد جعلهم يتعلمون بسرعة. وهذا التعلم يعيد إليهم احترامهم لأنفسهم. ولكن مادام الفلاح المصري لا يحتاج إلى مجهود كبير في الزراعة أو الصناعة، أي مادام لا يجد مشقة في الذي يتعلمه، فلن يفكر في البحث عن أساليب تخفف عنه هذه الأعباء. وهو لن يبحث عن أساليب تخفف عذابه، إلا إذا كان هو المستفيد الأول من الأرض والزراعة والصناعة.. وترى الحملة الفرنسية أن أهم نقطة تحول في حياة الفلاح المصري أن يملك هذه الأرض!

هذا باختصار ما اهتدى إليه هؤلاء العلماء الشبان بذكاء وصدق وموضوعية. ولم يذهبوا بعيداً عن الحقيقة التاريخية التي عرفها الفلاح وتعذب بها، ثم تخلص أو حاول ذلك، حتى تحققت له السيادة على أرضه وعلى يده وعلى عقله وعلى ماله..

لقد كان نابليون (٢٩ سنة) عبقرية فريدة في التاريخ عندما أدرك بعد أيام من إقامته في مصر أن الأرض الزراعية هي أعظم مصانع مصر! بدأ علماء الحملة الفرنسية دراساتهم الدقيقة بأن ركبوا الزوارق في النيل وساروا على أقدامهم في عز الصيف. وتساقطوا من الإعياء. ولكنهم لم يتوقفوا ولم يتراجعوا.

أما معلوماتهم فكانوا يجمعونها من مشايخ القرى ومن الفلاحين أنفسهم ومن كل واحد يستضيفونه ليركب معهم الزوارق.. وإذا حصل الباحث الفرنسي على معلومتين متناقضتين كتب المعلومتين ثم أبدى رأيه. ولكنه كان حريصاً على تسجيل كل ما يقال له من حكايات.. أما الذي يدرسه بنفسه ويحلله فإنه يؤكد لنا أنه وحده المسئول عن ذلك!

وعندما أصبح الجنرال كليبر قائداً للحملة الفرنسية أصدر أوامره لكل رجال الجمارك في الموانئ المصرية بكتابة كل شيء وتسجيله.. كميات وأسماء ومستحقات كل ما يرد إلى مصر وكل ما يصدر عن مصر.. حتى جمارك روض الفرج كانت تسجل بالضبط عدد القلل والبلايص الواردة من الصعيد وعدد قفف الملوخية التي تدخل مصر وأوزان «زبل الحمام» أيضاً! وعدد البرادع التي يصنعونها في الصعيد ويبيعونها في مصر كل شيء مكتوب ومسجل بمنتهى الدقة. وقد اعتمد علماء الحملة الفرنسية على هذه البيانات الدقيقة في تسجيل الميزان التجارى لمصر. وكانت أوامر الجنرال كليبر واضحة: لا تسجلوا إلا ما سجله المصريون. ولا تنقلوا إلا ما كان مكتوباً. دون تدخل من أى أحد!

ومن تعليمات الجنرال كليبر أيضاً: نحن هنا في مهمة على درجة عالية من الاحترام. ولذلك يجب أن نكون محترمين لأنفسنا وغيرنا لتحترمنا الأجيال من بعدنا!

ونحن اليوم نكن لهم عظيم الاحترام.. فقد درسوا وتعبوا وسجلوا وقدموا وحلّلوا وعلّلوا. أما توقعاتهم فقد حققتها الأيام!

وعلماء الحملة الفرنسية الشبان الصغار لم يرفعوا عيونهم عن الفلاح المصرى.. عن الذى يعمل فى الحقل. وكم يبذل من الجهد يومياً.

وكم يرفع من الماء. وما هى احتياجات مصر كلها من الماء. فقد درسوا الشادوف دراسة علمية دقيقة وكذلك الساقية ذات القواديس وذات الثقوب والقوة الإنسانية والقوة الحيوانية لرفع المياه.. فحسبوا بالدقيقة كمية المياه التى يرفعها الإنسان إذا استخدم جردلاً واحداً أو اثنين أو ثلاثة.. فلاحظوا أن الفلاح يجذب الماء من التربة إلى ارتفاع ٢٨٨ سم فى ٢٧ من مائة من الدقيقة. وفى كل مرة يرفع ٤٩ لتراً فى الدقيقة. وحسبوا كم يرفع فى اليوم.. وما هى ساعات العمل وساعات النوم.. وقارنوا ذلك بالعامل الفرنسى..

ثم وصفوا النورج.. وانشغلوا كثيراً جداً بكيفية تطوير هذه الآلات البسيطة.. وماذا لو استخدم الفلاح المصرى طواحين الهواء لرفع الماء ولطحن الغلال وتبييض الأرز..

وقالوا: إن الفلاح المصرى إذا لم يجد مصدراً آخر للطاقة فإن الزراعة والصناعة لن تتطور أبداً، كما تطورت فى أوروبا!

والفلاح المصرى ليس لديه أى استعداد للتطور. ولذلك احتفظ بهذه الأدوات البسيطة: المحراث والنورج والشادوف والساقية.. والمحراث لا يشق التربة وإنما يخربشها فقط.. وفى ذلك توفير لطاقة الفلاح وطاقة الحيوان أيضاً. ومادام يزرع ويقلع على وجه التربة فقط فإنه يرهق هذه التربة.. والأصح هو أن يتعمق التربة.. أى يخرج طبقات منها لتتعرض للهواء والشمس ثم إن الفلاح المصرى إذا أراد أن يسوى التربة فإنه يأتى بجذع نخلة ويجلس فوقه وتجره البهائم..

وإذا أراد أن يفصل حبات القمح عن السنابل، فإنه يأتى بالبهائم لتمشى ذهاباً وإياباً فوق سيقان القمح.. أو إنه يستخدم النورج ليحول سيقان القمح إلى تبن، ثم ليفصل حبات القمح عن السنابل أيضاً..

والفلاح المصرى مسكين حقاً وليس لعذابه نظير فى الدنيا. فهو يزرع ويحصد لغيره من أصحاب الأراضى ومن البكوات والباشوات أما هو فمثل الحمار وسيلة نقل من القرية إلى القاهرة حيث يعيش السادة فى النعيم المقيم.. ولذلك فهو يرى الأرض مصدراً لعذابه وتعاسته..

ولم يكن البكوات والحكام فقط الذين ينهبون الخيرات وإنما هناك نوع من

«الجراد» يأكل كل شىء.. هذا الجراد هم «العربان» الذين يعتدون على الفلاح المصرى من الشرق والغرب.. يخطفون ويسرقون ويقتلون ويستولون على أرضه بالقوة.. وهؤلاء العربان الذين يعيشون فى الصحارى الشرقية جاءوا من اليمن.. والذين يعيشون فى الصحراء الغربية جاءوا من تونس من حوالى ٢٥٠ عامًا، واستقروا فى مصر. وهم يتعالون على الفلاح المصرى الذى انكسر ظهره على الأرض يعمل بيديه.. أما هم فلا يعملون إنما يركبون الخيول ويستخدمون السيف والنار.. وهؤلاء العربان يقاومون سلطة الدولة.. وهم دولة داخل الدولة.. حتى أن واحدًا من قبائل الهوارة اسمه الشيخ همام حكم صعيد مصر كله وأقام حكومة عاصمتها فرشوط، وكان يجمع الإتاوة من الفلاحين: مائة وخمسين أردب قمح سنويًا يقدمها للبكوات والباشوات فى العاصمة.

وكان الشيخ همام رجلًا عادلاً معتدلاً.. ولذلك أحس الفلاح المصرى معه بالأمان والاستقرار.

.. وقد أرسل المماليك جيشًا من ٣٠ ألف جندى بقيادة محمد أبو الذهب لمحاربة الشيخ همام. وأعد الشيخ همام جيشًا من ٢٥ ألفًا وقاوم ولكنهم انتصروا عليه. وهرب الشيخ همام إلى مدينة إسنا وتوفى فيها سنة ١٧٦٩. ولكن الفلاحين الصعايدة يحتفظون للشيخ همام بالسيرة الخرافية لقوته وعدالته. وعندهم قصص عن الشيخ همام مثل قصص أولياء الله الصالحين.. ولا توجد قصة واحدة تدل على أن الشيخ همام قتل أو سجن.. أو اغتصب.. أو سكت عن ظلم وقع على أى فلاح.. حتى البكوات الذين كانوا يختلفون مع زعماء المماليك كانوا يهربون إلى الصعيد كانوا يلوذون بالشيخ همام شيخ مشايخ هوارة..

ولم يترك علماء الحملة الفرنسية نشاطًا لأى فلاح لم يسجلوه بدقة علمية.. فتحدثوا بتفصيل تام عن «المكامير» أى الغرف التى يكمرن فيها البيض حتى يفقس كتاكيت.. وهى عبارة عن بيوت من الطين من طابقين وبها من ١٢ إلى ١٦ غرفة. وفى هذه الغرف يضعون البيض..

البيض فى الطابق العلوى. ثم هم يقلبون البيض حتى يفقس.. وهذه المكامير يملكها الحكام.. وهى تنتج فى السنة ٢٠٠ ألف كتكوت.. والقاعدة هى أن كل فلاح يقدم ١٦ بيضة يسترد أربعة كتاكيت.. وثمان الكتكوت يعادل عشرة أمثال ثمن البيضة.. ومن كل ١٢ بيضة يفقس ٩ بيضات..

وهذه المكامير قد توارثها الفلاح المصري عن أجداده من الفراعنة. وهم لم يغيروا فيها شيئاً على الإطلاق..

ومن حين إلى حين يتلقى موظفو الجمارك فى الموانئ المصرية على البحرين الأبيض والأحمر وعلى النيل تعليمات من قائد الحملة الفرنسية بمراعاة الدقة والحيدة التامة وتسجيل كل شيء حتى يمكن الرجوع إليه فى عمل الميزان التجارى والدخل القومى للبلاد!!

وكانت مصر تستورد من الموانئ الفرنسية والإيطالية كل احتياجاتها من فرنسا وبقية الدول الأوروبية.. تستورد: الجوخ والمنسوجات والذهب والفضة.. وكذلك ورق التغليف والصابون والعطور والخلوى والمجوهرات والماس غير المصنع.. والأسلحة الألمانية ونصال السيوف والرصاص والحديد والصلب من السويد ومن موسكو.. ومن إنجلترا تستورد القصدير والزنك والجلود والقرفة والفلفل والمستكة والزنجبيل وكل أنواع المشغولات الذهبية والفضية.

وقد أقام الفرنسيون مصانع للطرابيش فى مرسيليا لكى تصدر أجود منتجاتها إلى مصر. ولكنها كانت أقل جودة من الطرابيش التونسية. وكذلك السكاكين والشمعدانات والأقفال والأمشاط والدبابيس. أما المجوهرات فكانت الساعات السويسرية والأقراط والأساور من باريس.

وكان الفرنسيون يسيطرون تماماً على صادراتهم لمصر فلا تدخلها إلا السلع الجيدة. فقد أقاموا فى مرسيليا مكاتب لمراقبة جودة البضائع. ويقومون بتفتيش دقيق وفى غاية القسوة على كل صادرات فرنسا. ولا بد أن تحصل كل الصادرات على «شهادة جودة».

ومن غير هذه الشهادة لا تتحرك إلى الإسكندرية. لأنهم فى ميناء الإسكندرية أقاموا مكاتب لمراقبة هذه السلع أيضاً. ويشرف على هذه المكاتب القنصل الفرنسى نفسه.. ويقوم مرة أخرى بفحص جميع السلع بمنتهى الدقة. ومن حقه إذا وجد غشاً فى هذه السلعة فإنه يعيدها إلى فرنسا على نفقة التاجر الذى صدرها إلى مصر. ولم يحدث مرة واحدة أن دخلت سلعة من أى نوع بغير شهادة جودة، وبغير كشف دقيق عليها!

وعندما كانت البضائع تضيع فى مصر بسبب السطو عليها، أو النهب.. فكانت الحكومة الفرنسية تدفع تعويضاً للتجار. أما التجار أنفسهم فكانوا يدفعون الكثير لكى تدخل السلع إلى الأسواق.. فيعطون قروضاً لا ترد، ويتركون أدوات دون ثمن.

أما الصادرات من مصر إلى فرنسا فكانت الأرز والقمح والزعفران وملح
النوشادر والصودا والقطن المغزول. والأقمشة وجلود الجاموس والأبقار
والجمال.. وتصدر مصر الكثير من السلع الواردة إليها من أواسط إفريقيا مثل
الصمغ العربى والعاج وريش النعام الوارد إليها من السودان والحبشة.. وكذلك
الصبر والكرم. وهذه الصادرات إلى فرنسا لم تكن ذات صفة منتظمة فهي تتغير
فى الكم والكيف حسب الظروف..

واليك مثالاً واحداً على دقة الجمارك المصرية، تنفيذاً للتعليمات الصارمة
للجنرال كليبر:

فى ثلاث سنوات تلقى جمرك روض الفرج:

٣١٩ مركباً محملة بزيل الحمام الذى يستخدم فى تسميد التربة.

و٥٦٠ مركباً من قصب السكر.

وأنثى ببغاء واحدة واردة من أعالي النيل.

و٢١٥ قفة ملوخية و١٢٥٠٣ قلال فخار.

و٢٧٠٦ خلايا نحل.

و٢٤٣٢٣ بردة حصان.

ومن «بلاد النصارى» قوائم بأسماء الواردات من أوربا..

ومن سوريا: تبغ وشرانق وخيوط دودة القز..

ودهشة الفرنسيين لا تنتهى أمام ظاهرة غريبة جداً: أن الفراعنة قد حققوا
المعجزات فى الصناعة مستخدمين أدوات من الحديد ومن الصلب فى الحفر
وفى نفس الأحجار والمعادن. ومع أن الفراعنة كانوا يستوردون الحديد من
الخارج ثم يحسنون استخدامه.. فلا بد أنهم كانوا متطورين إلى أقصى
درجة.. ولم يبق من هذه الصناعات أو الأدوات شىء فى مصر الحديثة.. بل
إن الإنسان لينظر إلى روعة الأهرامات والمعابد والتماثيل ويندهش كيف أن
المصرى الحديث لم يرسم صورة واحدة.. لم يقم تمثالاً واحداً.. بل إنهم
يخافون من رؤية الصور.. إن المصرى الحديث يبدو كأنه قد خرج فوراً من
عالم الوحشية عارياً من كل زى ومن كل سلاح ومن كل ثقافة.. أما القصور
المصرية التى يسكنها الأغنياء والتى نشاهد فيها أعمدة من الرخام، فهذه
الأعمدة مسروقة من الآثار القديمة!

والمدن المصرية ليست إلا قرى كبيرة لا يعمل فيها إلا عدد قليل من الأقباط
فى صناعة المعادن أما اليهود والأرمن فيعملون فى المجوهرات..
والتفت علماء الحملة الفرنسية إلى ما يمكن عمله فى مصر، وتطويرها حتى
تلتحق بالحضارة الأوربية..

أما صناعة الأقمشة من الكتان والقطن فسوف تبقى مصر متأخرة كما هى ما
لم تدخل تعديلات على أدوات الصناعة.. ولذلك سوف يصدرون هذه المواد الخام
لتعيدها فرنسا ملابس وأقمشة أفضل..

وفى استطاعة مصر أن تطور صناعة الصابون فففىها كل عناصر هذه
الصناعة.. وتاريخها طويل..

ومن أهم النتائج التى وصلت إليها الحملة الفرنسية: أن سهولة الأداء عند
العامل المصرى، هى أول ما يعوق تقدمه.. لأن الصعاب والتحديات هى التى
تشحذ الهمة وتدفع إلى التطور.. ولذلك فلن يطور بهذه السهولة.. ومادامت الأرض
ليست فى حاجة إلى تخصيب مستمر: فالهواء والشمس تقومان بكل العمل..

ومما اهتمت إليه الحملة الفرنسية فى مصر أن المصرى إذا اختلط بالأوروبى
فإنه يتغير بسرعة. وعندما يتغير فإن الخوف يزول. والثقة بالنفس ترتد إليه..
وتخف وطأة الخرافات التى يعيش بها ولم يفلت من قبضتها..

ويقول علماء الحملة الفرنسية: بعد هذه الحملة الفرنسية سوف تتجه عيون
الغرب إلى مصر. وسوف تقع حروب كثيرة فى هذه المنطقة. هذه الحروب هى
التى سوف تكشف للمصريين أهمية ثرواتهم، وخطورة موقعهم الفريد.. وهذا
سيوقظ العزة والكرامة والحرص على الذات. وفى مواجهة هذا العدوان المستمر
من الأجانب، سيزداد المصريون صلابة وقوة. وهذه هى البداية الحقيقية للشعور
الوطنى والرغبة فى القوة والتقدم..

ويقول العلماء أيضاً: إن المصريين الآن أكثر استعداداً من أى وقت فى
تاريخهم كله، لتطوير أنفسهم وأدوات حياتهم.

وخلاصة ما اهتمى إليه العلماء الشبان الأذكياء المخلصون: أن مصر إذا
حكمتها إدارة عاقلة مستنيرة فسوف يتعرفون على ثروات بلادهم وثروة أخرى
هى طاقتهم وقدرتهم الفريدة على الصبر والمثابرة.. وأهم من كل ذلك أن يعرفوا
كيف يكسبون من ظروفهم الفريدة فى التاريخ القديم والحديث!

٤ . المصريون أعظم الموسيقيين

في العصور القديمة

كلما قرأت في كتاب «وصف مصر» ازددت إعجاباً بهؤلاء الشبان الذين أتى بهم نابليون إلى مصر: هذا الصدق والإخلاص والصبر والإصرار والشعور بالعظمة. شعورهم بأن الذى يقومون به عمل جليل.. وأنهم أول من جاءوا وأول من رأوا وأول من حللوا وأول من أعجبوا وأول من نقلوا عظمة مصر إلى العالم كله.. وأن الحرب قد ذهبت بجنودها، أما الذى بقى فهو السلام ورسل السلام وهم أبناء الحضارة الأوروبية فى صلاة دائمة للحضارة الفرعونية..

وهؤلاء الشبان يؤكدون للقارئ أنهم تعبوا جداً.. ولكنهم يريدون أن يعرفوا.. ولذلك سجلوا كل الذى سمعوه.. كل صغيرة وكبيرة من أفواه الناس من كل لون ونوع ودين ولهجة.. ثم بعد أن سجلوا راحوا يناقشون ويحللون.. ولم نقرأ لهم كلمة غير مهذبة.. ولا عبارة واحدة فيها استهانة أو استخفاف بأحد.. وإنما هم مجموعة من العلماء أهداهم نابليون إلى مصر.. فكانوا عند المكانة التى وضعهم فيها نابليون.. ولا أظن أحداً حتى من المتخصصين قد قرأ مثل هذه الدراسة التى كتبها شاب أديب عالم موسيقار مثل «فيوتو» الذى درس وأرخ للموسيقى الفرعونية والقبطية واليهودية والحبشية والأرمنية والنوبية.. وقد رجع إلى النصوص القبطية واليونانية والعبرية والحبشية فى كل الذى كتب وقد استغرقت الموسيقى تاريخاً وأداءً وشعراً وتراويل ونوتة وسلام وطبقات، ثلاثة أجزاء من الأجزاء التسعة التى ترجمها المرحوم زهير الشايب.

أما العناء الذى واجه المترجم فلا يمكن أن يوصف لقد عاد إلى المشتغلين بالموسيقى ووضع كل الكلمات الصحيحة ونقل النوتة الموسيقية كما هى - وما أصعبها وما أعقدها.. ولم يكن زهير الشايب موسيقياً ولا مشتغلاً بهذا الفن الرفيع.. وهذا يؤكد صبره وإصراره وصدقه وأمانته..

وهذا الشاب فيوتو هو أعلم علماء الحملة الفرنسية، وأجملهم عبارة، وأوسعهم أفقاً وأكثرهم تعمقاً فى اللغات القديمة وإحساساً بجمالها وعمقها وهو أيضاً صاحب منهج فلسفى وهو يقف وراء المعلومات والنصوص.. أى انها هى التى تسبقه إلى عيوننا.. هو الذى يدفعها ويحركها.. ولكنه لا يفرض عليها المعانى ولا التطور التاريخى الذى يطرأ عليها جيلاً بعد جيل - منتهى الإخلاص..
وهذه الأجزاء إن لم تكن من أمتع ما ظهر بالعربية، فهى من المؤكد أروعها وأصعبها وهى تؤكد أستاذية الكاتب وبراعة المترجم..!

لا توجد نصوص موسيقية.. ولا كتب تاريخ عند الفراعنة ولا نوتة.. فقط رسومات للآلات الموسيقية هنا وهناك.

أما الذى يحدثنا عن الفراعنة وموسيقاهم فهم الإغريق.. وفى مقدمتهم الفيلسوف العظيم أفلاطون.. فهو الذى حدثنا عن العلاقة بين الموسيقى والتربية الوطنية والأخلاقية والدينية عند الفراعنة.. وقد احتقر أفلاطون موسيقى الإغريق ورأى أنها تساعد على الانحطاط والانهيال.. وأن الذى يتحكم فى الموسيقى والغناء والطرب هو الذى يحكم الشعب وهو الذى يعبئ الجماهير إلى الخير والشر.. ولذلك كان إعجاب أفلاطون بالفراعنة.. وهو يؤكد أن الإغريق هم تلامذة المصريين فى الموسيقى والغناء والإنشاد والتأليف الغنائى أيضاً - وإن لم يكونوا تلاميذ مخلصين - وهذا واضح فى الشعر والفلسفة والفيزياء والرياضيات والفلك والطب والعمارة والنحت - وكل هذا كلام الفيلسوف أفلاطون.

وقد عرض أفلاطون للموسيقى المصرية فى كتابه الشهير المسمى «القوانين» وفى كتابه العظيم «الجمهورية».. وكان فى ذلك شاهداً عبقرياً صادقاً على العصر.. وكان شاهداً مفتوناً بالموسيقى الفرعونية..

وقد اهتزت الموسيقى فى مصر الفرعونية، كما اهتز الشعب كله عندما اجتاحت القوات الفارسية أرض النيل.. فقد نقل الفرس إلى مصر الموسيقى الآسيوية.. وهذه الموسيقى هى التى أفسدت الموسيقى المصرية التى تتسم بالطابع الصوفى الرجولى..

أما البطالمة فقد جاءوا من الغرب وبسطوا حمايتهم على الفن وكان اهتمامهم به بالغاً.. وقد تأثر بهم المصريون.. وتذوقوا الموسيقى الغربية ولكنهم فى نفس

الوقت طعموها بالذوق المصرى الرفيع حتى أصبحت الموسيقى المصرية هي أعظم الفنون فى العالم كله..

أما المؤرخ ديودور الصقلى فيرى أن المصريين يكرهون الموسيقى الناعمة الرخوة المخنثة لأنها ترهق الروح إذا استسلمت لمشتريات الجسد.. وهى بذلك تحط الأخلاق.. ولذلك نفر المصريون من كل أنواع الموسيقى الوافدة من الشرق والغرب، إذا هى جعلت الإنسان كسولاً خاملاً، أو حيواناً يشتهى فقط.

يقول أفلاطون: إن الموسيقى المصرية هى أروع صورة لكمال الفن، وذلك لرفعتها وسموها وحيويتها وجمال تكويناتها..

والآثار الفرعونية لا تساعدنا كثيراً فى بيان هذه المعانى التى يحدثنا عنها الفيلسوف أفلاطون.. ولكنه جاء إلى مصر ورأى وسمع وناقش وحل وقارن ومن انطباعاته وتحليلاته اهتدى إلى أن موسيقى مصر وغناها هى أعظم ما أبدع فى كل العصور القديمة.. ومعنى ذلك أيضاً أن الفنان المصرى القديم قد بدأ تطوره من عصور سابقة.. وأنه رغم الاختلاط والغزوات فإنه استطاع أن يبقى شامخاً.. وهذا يؤكد عظمة الفنان وعظمة الشعب الذى يأخذ ويعطى ويستمر فى العطاء..

يقول أفلاطون إن المصريين لهم نظرية بسيطة فى مقياس حضارة أى شعب، أما المقياس فهو: أن الشعب الذى يتذوق مباهج الحياة مهما كانت بسيطة أو صغيرة، ويساعده ذلك على أن يتماسك اجتماعياً وأن يعمل فى سلام وعافية، هو الشعب المتحضر.. والذين تساعدهم مباهج الحياة هم الذين يعرفون كيف يتذوقون.. وكيف يختارون هذا الذى يستطعمون.. فالبهجة غير السرور..

فالبهجة أعمق: إنها السرور مضافاً إليه الحكمة والتوازن الجسمى والنفسى والاجتماعى.. وكذلك كان المصرى القديم.. وهذه البهجة تجىء من الموسيقى وتجىء من تذوق الكلام البليغ.. كلام الخطباء أو كلام الشعراء.. والفرق بين بلاغة الخطباء والشعراء: أن الخطيب الفرعونى كان ينتقى العبارات القوية وفى نفس الوقت تصاحبه الموسيقى.. فهو يخاطب والموسيقى تحوطه بأجنحتها وترتفع به.. أما الشاعر فهو الذى نقل الفرقة الموسيقية إلى كلماته.. فهو الخطيب وهو الموسيقار معاً.. فموسيقاه داخلية.. تخرج منه بينما الخطيب هو الشاعر بين الأوركسترا.. والشاعر هو الخطيب وقائد الأوركسترا والأوركسترا معاً.. ولكن لا بد

من البلاغة والفصاحة والموسيقى.. فالشعب الذى يجد البهجة فى هذه الفنون معاً، هو الشعب المتحضر.. وكذلك كان الفراعنة - هكذا قال أفلاطون..

ولذلك يقول الباحث الفرنسى فيوتو: إن أثر هذه الموسيقى والغناء واضح على وجه الفلاح القديم: هذا الرضا هذه البهجة تجعلك تحس كأنه يستمع إلى موسيقى داخلية، وهو يحرق ويزرع وهو يجنى.. ثم يعمل وفقاً لإيقاع موسيقى داخلى.. راض عنه تمام الرضا ومن الرضا والتذوق واحتمال الحياة تتكون البهجة المصرية..

وتقول أساطير المصريين إن أوزوريس هو الذى خلص المصريين من الحياة البدائية ومن الهمجية.. وهو الذى أعطاهم قوانين الفكر وقواعد الحياة.. وهو الذى ضبط إيقاع حياتهم النفسية والعقلية والاجتماعية والدينية.. فهو الذى علمهم الصلاة واحترام المقدسات.. وهو الذى نقل المصريين من حياة البداوة إلى حياة الحضارة بلا عنف ولا دماء.. كيف..؟

استطاع الإله أوزوريس تعصير المصريين وتحضيرهم ودفعهم إلى أعلى السلم الحضارى عن طريق تعمير مشاعر البهجة عندهم: وذلك بطلو الكلام نثراً وشعراً وبالموسيقى الداخلية والخارجية.

واعتقد المصريون القدماء أن أوزوريس يدعوهم إلى الموسيقى بأسلوب خاص.. كان يرسل إليهم نداءاته مع أشعة الشروق والغروب ومع صوت البلابل ومع زهور الحقل.. فلم يكن أوزوريس صوتاً ينادى وإنما كان يستخدم الرموز.. هذه الرموز هى كل مفردات الجمال فى السماء والأرض.. وكان المصرى القديم إذا رأى شيئاً جميلاً واستوقفه هذا الشيء الجميل كان يقول: نعم يا أوزوريس.. أى أن الإله قد ناداه فاستجاب النداء، أما الذى يفعله المصرى القديم بعد ذلك فهو يعزف أو يغنى أو يطلب من أحد أن يفعل ذلك.. ومن الأساطير الإغريقية أن المصرى القديم إذا استمع إلى الموسيقى كانت ملابسه تسقط عنه. والحشرات تبتعد عن طريقه. كل ذلك بفعل الموسيقى فهى تشفيه جسدياً وعقلياً أيضاً وكما أن أشعة الشمس لا تنفصل عن الشمس، والأمواج لا تنفصل عن النهر، والزهور عن الغصون، فالموسيقى لا تفارق المصرى القديم.. تصدر عنه، أو يتلقاها.. فحيث يكون تكون الموسيقى.. وهكذا علمه أوزوريس..

وهكذا ظل أوزوريس معبوداً.. مبدعاً للتذوق الموسيقى.. ولذلك اعتقد الإغريق

أن أوزوريس هو الإله باخوس وأنه صورة منه.. وأن أوزوريس هو باعث الموسيقى وراعيها وحاميها وخالقها عند الإغريق أيضاً.. ولكن أوزوريس عندما ظهر فى بلاد الإغريق قد جاء متأخراً عن مواعده فالشعب الإغريقى لم يكن مستعداً لتلقى رسالته بينما المصريون قد تهيأوا تماماً لذلك ولديهم استعداد فطرى لأن يمشوا فى الطريق الفاضل.. طريق السلام واللذات الرفيعة.. ولذلك كان أوزوريس مصرياً منبعثاً من مصر إلى مصر.. ليبقى فى مصر أيضاً..

ويسجل التاريخ أن أول مستعمرة مصرية فى بلاد الإغريق كان اسمها «أرجوس» وينطقها المصريون: أرجو ومعناها: الموسيقى.. أو المشتغل بالموسيقى وهذا يدل على مدى النضج الموسيقى عند الفراعنة.. بل إنهم كانوا يرون أن أعظم لقب من الممكن أن يوصف به إنسان هو: الموسيقى أو الموسيقىار.. إنه أعظم من الملك ومن الكاهن.. فليس أسهل من أن يكون الإنسان ملكاً أو كاهناً، وليس أضعف من أن يكون موسيقاراً. فالملوك والكهنة أولاد الشعوب، ولكن الموسيقىار هو ابن الإله.. وكذلك المطرب أو المغنى أو المنشد هو ابن السماء.. والمطرب يتصدر الناس - هكذا كان الفراعنة واليهود..

وكان المصرى القديم عندما يمتدح مطرباً فإنه يقول: هكذا يغنى العقل.. أو ما أجمل العقل..

وهذا معناه أن الموسيقى هى التى تتجه إلى العقل.. إلى السمو.. وكذلك الغناء فالمطرب المصرى كالمستمع المصرى كلاهما ينشد: الرجولة والاستقامة.. الفضيلة والبناء.. المتعة والاتزان..

والخطيب البارع هو الذى يختار أدق الكلمات وأكثرها جمالاً فإذا صاحبه الموسيقى أيضاً كان أثره على الناس عظيماً..

وكان الشعراء يبدئون قصائدهم بمثل هذه العبارة: إننى أترنم إننى أنشد إننى أتغنى..

والشعر الفرعونى قد ظهر قبل النثر.. لأن الغناء أقدم من الكلام ولأن الموسيقى أقدم من مجرد الاسترسال فالإنسان إذا فرح غنى، وإذا حزن غنى.. وإذا انفعل لجأ إلى الموسيقى لتجعله أشد وقعاً إذا نقل إلى الناس مشاعره..

والناس كانوا يتناقلون الموسيقى والأغاني شفويّاً من جيل إلى جيل.. فلما

اخترع الإنسان الكتابة «كانت الكتابة هي عربة العلاقات الاجتماعية البالغة الأهمية - كما يقول الباحث الفرنسي فيوتو..

ولولا الكتابة لضاعت كل القصص والخطابات والأغاني والتراتيل التي كان ينقلها الإنسان من فم إلى فم.. ولولا الموسيقى ما استطعنا أن نحتفظ بالشعر والأغاني والتراتيل في المعابد..

ويروى لنا التاريخ الفرعوني حوارًا دار بين أحد الملوك وبين عالم مصرى اخترع حروف الكتابة.. الملك اسمه تحام.. قال الملك: إن هذه الكتابة تجعل الإنسان يعتمد تمامًا على هذه الحروف وهذا يجعله يعتمد على العين. أكثر مما يعتمد على الأذن.. ويجعله يلغى الذاكرة.. فما حاجة الإنسان إلى ذاكرة مادام الورق قد احتفظ له بالكلمات وهذا يجعل الإنسان ينشغل معظم الوقت بحروف الكتابة عن تذوق معانيها وموسيقاها.. فهذه الكتابة تستوعب الذاكرة ولكنها لن تقويها.. ثم إن هذه الكتابة سوف تحول التلاميذ الصغار إلى «صمامين» لا إلى مفكرين سوف تحولهم إلى جهلة لا إلى متذوقين - إن هذا الملك الفرعوني قد تنبأ بما سوف يحدث بعد ألف السنين، عندما تلغى العقول الإلكترونية الكثير من نشاط العقل والذاكرة..!

ومن المؤكد تاريخيًا أن المصريين هم الذين اخترعوا فن الكتابة ولكن بعض الملوك قاوموها خوفًا على موهبة الذاكرة ولذلك اتجه مخترع الحروف إلى فينيقيا.. وأخذ الفينيقيون حروف الكتابة.. وعندما انتشرت استردها المصريون.. وإن كانوا قد كرهوها بضغط شديد من هذا الملك تحام. ولكن بعد ذلك أقبل عليها المصريون.. وطوروها.. وجعلوها أجمل وأروع.. تحولت حروف الكتابة أو صورها إلى هذه اللوحات الجميلة التي نراها على المعابد.. فالكتابة الفرعونية هي صورة معبرة عن المعاني التي يريد الكاتب المصري.

نعود مرة أخرى إلى الفيلسوف أفلاطون المفتون بالموسيقى الفرعونية وبأخلاقيات المشرعين المصريين..

يقول أفلاطون: إن المشرع والمربي والكاهن المصري والحاكم جميعًا كانوا مشغولين بضرورة كبح جماح المشاعر الإنسانية - اللذة والألم.. أما الهدف فهو: الاعتدال.. التوازن.. فإذا كان المصري سعيدًا؛ كان تعبيره عن ذلك معتدلاً محترماً

وإذا كان حزينًا كان تعبيره عن الألم محترمًا أيضًا.. أى إن هدف الموسيقى هو أن يكون المواطن المصرى محترم الأداء فى اللذة والألم فمطلوب من المصرى أن يكون فى حالة من الانسجام والوئام.. لا يطفى الجسد.. على الروح ولا الروح على الجسد..

مطلوب ألا يكون طفلاً وإنما أن يبقى رجلاً شامخاً.. فالطفل إذا توجع صرخ وتشقلب على الأرض أو مزق الأشياء.. وإذا فرح صرخ أيضاً وجاءت حركاته سريعة عنيفة هذا الطفل هو الصورة التى يجب ألا يكون عليها الرجل.

إذن لابد أن نبدأ التوازن من الطفولة ولذلك نجد أن المصرى القديم قد ألف الأغنيات لكل ما يتعلق بحياة الطفل.. فكل شئ له أغنية وكل شهر وكل الأعياد الدينية والوطنية وأعياد الحصاد والمناسبات العامة فالطفل يغنى دائماً أو يستمع إلى الغناء والموسيقى.. لأن الموسيقى تربية جسدية روحية.. والغناء والموسيقى هما تربية رياضية أيضاً.. فالهدف الأسمى: هو أن تتعادل قوى وطاقات وسلوكيات الإنسان.. صغيراً أو كبيراً..

وهناك قواعد صارمة لا يخرج عنها مؤلف الأغنية ومؤلف الموسيقى حتى تكون الرقصات والتراويل داخل المعابد هى السلم الطويل السامى نحو الخلق الكريم..

والمصريون القدماء لهم رأى نهائى فى كل ذلك: من لا يعرف كيف يغنى ومن لا يعرف كيف يرقص ويكون محترماً دائماً.. جاهل لم يتعلم شيئاً..

والفيلسوف أفلاطون عندما أقام دولته المثالية الفاضلة طرد منها الشعراء لأنهم أناس كذابون مفسدون. ولكنه كان على استعداد لأن يفتح أوسع الأبواب للشاعر والموسيقى والمطرب المصرى لأنهم جميعاً يتعاونون على تحقيق العدالة الاجتماعية والفضيلة والسلام والبهجة..!

ويرى أفلاطون أن المصرى القديم فاضل متوازن بطبعه فقد تدرب طويلاً على احترام القيم وتطبيقها دون مجهود كبير.. ولذلك فالطفل الفرعونى ولد فاضلاً.. كأنه تدرب على الصدق والشجاعة فى بطن أمه..!!

وعندما نتحدث عن تنشئة الطفل المصرى فإننا نجد له برنامجاً لا يتغير ويجب ألا يتغير.. وألا يتدخل الأب والأم فى تربية الطفل.. فالطفل المصرى يتعلم القراءة فى العاشرة ولثلاث سنوات.. بعد ذلك يمارس الألعاب الرياضية لثلاث سنوات ولا

يصح أن يتدخل الأب فى تربية ابنه.. فإذا فعل فإن المدرس أو الكاهن يطرده من المدرسة لأن التربية الرياضية والاجتماعية هى من اختصاص المدرس.. أما التربية الأخلاقية وواجب احترام المدرس فهى من اختصاص الأب والأم.

ويتحدث العالم الفرنسى فيوتو عن تنشئة موسى عليه السلام باعتباره أميراً فرعونياً فيقول إنه درس القراءة فى العاشرة والحساب والهندسة والموسيقى والهارموني والإيقاع والصوت ودرس العروض.. أى بحور الشعر والأوزان - ودرس الطب والعلوم الحديثة والعسكرية والفلسفة واللاهوت - بحروف هيروغليفية.. وكان اللاهوت والفلسفة مقصورين على الأمراء أو الذين سوف يصبحون ملوكاً أو كهنة..

والمؤرخ استرابون قد وصف موسى بأنه كاهن أو نبي مصر.. والتاريخ قد احتفظ لنا بأنواع التراتيل التى نظمها ورددها موسى عليه السلام عندما عبر البحر الأحمر ثم قبل وفاته.

يقول موسى عليه السلام (سفر الخروج - الأصحاح ١٥): أغنى للرب فإنه قد تعظم والفرس وراكبه طرحهما فى البحر الرب قوى. ونشيدى قد صار خلاصى. هذا إلهى فأمجده إله أبى فأرفعه..

والنشيد الثانى الذى نظمه موسى عليه السلام وردده بنو إسرائيل وراءه: أنصتى أيتها السماوات فأتكلم ولتسمع الأرض أقوال فمى يهطل كالمطر تعليمى.. ويقطر كالندى كلامى كالظل على الطلاء وكالوابل على العشب، إنى باسم الرب أناذى أعطوا عظمة لإلهنا..

وليس واضحاً ما فى هذه الأناشيد من جمال وموسيقى ولكنها فى غاية الجمال فى نصها المصرى القديم.. وفى اللغة العبرية..

ويرى الباحث الفرنسى العظيم فيوتو أن الفراعنة مهما سيطروا على نزعاتهم ومهما تحكموا فى عواطفهم.. فإن أهوالاً نفسية عميقة تكتسح كل هذه العواطف فى لحظة واحدة.. ويكون الاكتساح دليلاً على عمق الشعور وصدقه.. ويكون الاستسلام دليلاً متجدداً على رغبتهم فى إظهار هذه المعانى.. كأن يموت الملك مثلاً.. هنا يرى المصرى القديم أن يعطى لنفسه إجازة من كل الفرائم التى وضعها لمشاعره المضبوطة أو احترامه الواجب لنفسه..

فمصر كلها تكون فى حالة حداد. ويمزق كل إنسان ملابسه النظيفة الجديدة، وتغلق أبواب المعابد، وتلغى الأعياد وكل مظاهر السرور لمدة ٧٢ يومًا، ويرتاد الشوارع مائتان من الرجال والنساء يضعون الطين فوق رؤوسهم حزنًا عميقًا على الملك الذى توارى أو انتقل، ويلفون حول صدورهم قماشًا أبيض.. أما الأغنيات الجنائزية فهى تضاعف الحزن وتعمق الشعور بالأسى والأسف.. وتجيء النادبات يتحدثن عن أخلاقيات الفقيد وعن خسارة الناس بعد وفاته.. وأنه لن يجيء واحد مثله.. ولذلك يجب أن يكون الحزن عليه هو حزن العمر كله.. فقد ضاع كل شيء والذى ضاع لن يعود.. والذى انكسر لا يمكن إصلاحه. انتهى كل شيء فالعالم من بعده إلى زوال..

يقول الفيلسوف العظيم أفلاطون وهو يعيب على أهله من الإغريق إنهم لم يتعلموا من المصريين ما يجب: إن غرورنا جعلنا لا نتعلم بدرجة كافية من أساتذتنا فى الفضيلة وفى الاعتدال والسلام والابتهاج.. فقد ظلت المسافة بيننا وبينهم أوسع كثيرًا من هذا البحر.. الآن فقط عرفت من أين يجيء الرواء والصفاء على وجوه المصريين.. طبعًا من موسيقاهم العميقة التى تملأ آذانهم وعيونهم ولم نفلح نحن فى سماعهم..

٥ . شديد الأسف .. لأنه

لم يعرف ماذا تغنى المرأة فى الحمام!

أعظم شباب الحملة الفرنسية هو جيوم أندريه فيوتو (١٧٥٩-١٨٣٩)، وعظمة هذا الشاب أنه حاول المستحيل أن يستوقف كل إنسان يراه ويسأله حتى ضاق به الناس. ولكنه ظل صابراً يحاول أن يفهم وأن يحلل وأن يسجل لأول مرة فى تاريخ الموسيقى العربية مبادئ الموسيقى والألحان والطرب.. ذهب إلى المشايخ والعمد وطلب منهم أن يقولوا: يا ليل يا عين.. آه يا سلام.. والنبى صلى.

فلم يجد فيوتو اثنين يؤديان لحناً واحداً بطريقة واحدة. على عكس المعروف فى الغرب. فالناس جميعاً يؤدون اللحن الواحد بطريقة واحدة.. لأن قواعد اللحن والنوتة الموسيقية مسجلة ومعروفة تماماً مثل مبادئ الحساب $2+2=4$.. لا خلاف عليها بين أحد من الناس، صغيراً أو كبيراً إلا فى مصر. ويقول فيوتو: إنك لا تكاد تسأل أحداً حتى يتوهك.. ويحكى لك حكايات ويدور فى هذيان ما له أول ولا آخر.. وتندesh لهذا التوهان والغيبوبة.. ثم يجد للناس عذراً هو أنهم فوجئوا بهذه الأسئلة. وأنهم لا يعرفون لها إجابة.. ولم يخطر على بالهم أن هذا الذى يغنونه أو يقرءونه له قواعد.. فهم قد سمعوا ورددوا.. وتوارثوا ذلك مئات السنين.. ويحتقرون كل شىء لم يأت به القرآن.

ولذلك انحطت الموسيقى والغناء فى مصر الحديثة، بينما انتعشت الموسيقى وازدهر الغناء قبل ذلك أيام الرومان والإغريق.. أما هذه الموسيقى وهذا الطرب فشئ هزيل لا يهتم المسلم بل يحتقره ويزدرى هؤلاء الموسيقيين والمطربين والراقصين ويراهم مهرجين.

وهذا العالم الشاب فيوتو قد لاحظ أهله أنه يريد أن يتفرغ للموسيقى فأدخله مدرسة للرهبان أملاً فى أن يكون قساً محترماً.. ولكنه لا يريد.. فراح يعمل فى فرقة موسيقية متجولة.. وكان هو الذى يؤلف ويلحن.. ولكنه لم يكسب مالاً ولا

احترامًا. فعاد إلى أهله خائبًا تائبًا فأدخلوه ديرًا للرهبان.. وفي الدير استمر يولف الموسيقى وينظم الأغاني وأنشأ فرقة موسيقى أوبرالية.

أما الذى لفت إليه الأنظار فهو علمه الغزير باللغات وبالتاريخ القديم وروحه المغامرة.. ولذلك اتخذهُ نابليون واحدًا من العلماء الشبان.

وكانت دراساته التى قام بها فى مصر من أروع وأعظم ما تركت لنا الحملة الفرنسية.. فلم نعرف قبل فيوتو هذه الدراسات الرائعة فى كل اللغات: العربية والعبرية والحبشية والسومرية والقبطية والأرمنية واليونانية واللاتينية والتركية والفارسية.. كل ذلك درسه وراح ينقب فى كنوزها عن مصادر نادرة لتدوين الموسيقى والمقامات والطبقات والتفريعات المختلفة على اللحن الواحد.. وكيف انتقل من لغة إلى لغة.. ومن بيئة إلى بيئة.

وكانت له دراسات إنسانية واسعة ولكنه لم يفلح فى نشرها فى فرنسا.. ويقال أحرقتها حزنًا على نفسه.. ثم إن آخر ما كتبه كان بعنوان «مذكرات حول إمكانية وضرورة وضع نظرية دقيقة حول مبادئ الموسيقى».

وكان الكتاب غامضًا شديد التعقيد، لم يستطع أحد فهمه. وازداد يأسره من الحياة. فلم ينل ما يستحقه من الاحترام والتقدير. ويقال إنه انتحر بطريقة مبتكرة فقد أمسك إحدى الآلات الموسيقية وحطمها وراح يأكلها هى وصفحات كتاب له بعنوان «قاعدة للتذوق الموسيقى فى كل الدنيا»!

ولابد أنه كتاب فلسفى مغرق فى الغموض. فكلما عرضه على أحد من أصدقائه أعاده إليه، دون أن يتجاوز قراءة المقدمة وبعض الهوامش. ولم يترك لنا فيوتو من هذا الكتاب إلا هذه الورقة : «لم أجد مكانًا يستحق أن أضع فيه كتابى هذا إلا هنا.. فابتلعتة لنموت معًا».

لاحظ فيوتو أن كل العلوم قد أخذها المصريون من العرب. فيما عدا علوم الدين.. ولكن هذه العلوم التى انتقلت إليهم مع الفتح العربى، قد سقطت فى غياهب النسيان. فالمصرى لا يهتم كثيرًا بهذه العلوم؛ لأنه مقهور ذليل فى غيبوبة وفى خزى بسبب ضعف الحكام، وبسبب طغيان المماليك الذين أفلحوا فى أن يجردوا المصريين من الكرامة وأى أمل فى الخلاص.

يقول فيوتو: ولا تكاد تناقش هذا الوضع المهين للمصريين حتى يقولوا لك: ربنا كريم.. اللهم الطف بنا.. كل شىء له آخر.. ربنا يهون علينا!

ثم لا يفعلون أكثر من ذلك..

وتندهش كيف يمكن تغيير هذا الهوان.. لماذا لا يغضبون؟ لماذا لا يسخطون
لماذا لا ينحنى أحد على الأرض يلتقط طوية يضرب بها رأس واحد من المماليك..
ليتبعه آخرون.. لماذا يتوقعون من السماء أن تساعدكم دون أن يفعلوا شيئاً؟!
ويروى لنا فيوتو أشكالاً وألواناً من العذاب الشخصى. فهو يريد أن يسجل
بالنوتة كل أغانى وموسيقى المصريين.. أنها صارخة زاعقة تخرم الأذن ومملة
وسخيفة ومنفرة وقبيحة.. ولكنه اعتاد على ذلك.. أنها مثل شراب مر، لا يجد
سواه، فلا بد أن يتناوله كل يوم ويلعنه. ولكن لا بد لكى يسجل هذه الموسيقى
بالنوتة.. وكان يأتى بالمطرب بعد المطرب ويستمتع منهما ومن غيرهما..
وكانت دهشة المصريين عظيمة جداً عندما يجدون فيوتو يردد لهم اللحن دون
أن يعرف معانى الكلمات.. ولكن الذى لا يعرفه المصريون هو أنه قد سجل اللحن
بالنوتة.. ولذلك إذا قرأ النوتة التى لا يعرفونها، فإنه يؤدى اللحن بالضبط
وبمنتهى الدقة..

والمصيبة أنه رغم كل ذلك لم يهتد إلى أسس النغمات اللحنية من بين هذا
الحشد الهائل من النغمات والزخارف المضاعفة والمتضاربة.
شئ عجيب أنه لم يجد مطربين يؤديان لحنًا واحدًا بطريقة واحدة.. بل إن
المطرب يسرف فى التطريب، والإضافة، كأنه يريد أن يضل كل من تسول له
نفسه أن يؤرخ أو يضبط وقع أقدام المطرب على السلم الموسيقى!
ولا يسع القارئ إلا أن يعجب بهذا الشاب العظيم، ويصبره الذى لا ينفد.. فقد
سجل لنا أغنيات شعبية لم نكن نعرف عنها شيئاً.. سجلها بالنوتة.. مثلاً:

يا لا بسين الشيشكى

ومحزمين بالكشميرى

حببت جميل بنهود ما رأت

مثل الجميل ما رأت عيني

يا أبيض ويا لون الياسمين

ياللى على الصب لاحظ

وحياة عيونك والوجنات

أنا أسير اللواحظ.

الخمير والورد الأحمر
بيتغزلوا فى خدودك
ناديت من عظيم وجدى
يا شبكتى من عيونك
قال لى غزالى أدينى جيت
وافعل كما تختار فى
وأركبك صدر برمان
وتحل دكة الفيه

يا عاذلى خلينى
حب الجميل كاوينى
ع الجمر لو يسلينى
بالروح أنا ما أسلاه
يا تمر تمرتين
يا كويستو بونو (ومعناه بالإيطالية كده كويس)
وجه الجميل بينور
جل الذى قد صور
وأنا عليه بادور
شرع الهوى وياه
يا تمر..

الساق مثل اللولى
والسنتيان دابولى
لما سكر حله لى
ولعبت أنا وياه
يا تمر..

ظهرت عليك صبايتي
من بعد كانت خافية
ألبستني ثوب السقام
يلبسك ثوب العافية

محبوبى لابس برنيطة
ودكته عقد وشنيطة
طلبت وصلة قاللى «اسبيطه»
(هى كلمة إيطالية معناها: انتظر)
ما أحلى كلامه بالطليانى
يا سلام من عيونه
عيون الغزلانى
واصلنى يا حلو الكلام
يا سلام

ما أحسنك يا فرط الرمان
لما تنادى بالأمان
وفى يدك ماسك الفرمان
تبقى الرعية قلبها فرحان
ياسلام

محبوبى فايت على
كلمته مارّد على
كشميرة بماية عددية
ما أحلا قوامه فى لبس الهندية
يا أنا يا أنا.. آه يا حالى
ليلى ليلى ياللى
محبوبى له خال على خده

والألحاظ تجرح مع قده
أهيف ما فى الغزلان نده
يا أنا يا أنا

وغير ذلك من الأغاني الشعبية قام بتسجيلها، كما سمعها ثم طلب من المستشرقين الفرنسيين مراجعتها وترجمتها إلى الفرنسية.. وكثير من هذه الأغاني الشعبية لم نعرفها إلا من خلال دراسات الحملة الفرنسية. وسجل كذلك أغاني الأفراح وأعياد الميلاد والأغنيات الدينية والجنائزية وأغاني المسحراتى والندابة وزفة العروس.. والحفلات الخاصة التى تقام عندما يشفى إنسان من مرضه..

وكذلك أغنيات شعراء الربابة..

ومن أعجب ما سجله: سورة الفاتحة وكيف يرتلها القارئ.. حتى سورة الفاتحة هذه لم يلاحظ أن القراء يرتلون بها بأداء واحد.. فكل واحد يضيف تطريبات من عنده. فهم جميعاً غير منضبطين علمياً..

وتوقف فيوتو طويلاً عند ملاحم شعراء الربابة. منهم الشاعر الزغبى الذى يمتدح آل الزغبى ومعاركهم.

والشعراء الظاهرية - أى الذين يمتدحون سيرة الظاهر بيبرس.. والعنترى أى الذى يتحدث ويتغنى عن بطولات عنتر بن شداد.. والشاعر الزناتى: أى الذى يروى سيرة الزناتى خليفة. والهلالي: الذى يروى بطولات أبو زيد الهلالي..

وكل ذلك يقام كل ليلة على المقاهى التى يحتشد عندها الناس يسمعون قصص ملاحم العصور القديمة. وهذا الشاعر يكرر نفس الكلام، وأحياناً يضيف من عندياته حسب الأحوال.

وسجل أغاني المراكبية وأغاني الفلاحين.

ولاحظ أن شخصية المسحراتى كان لها نظير فى فرنسا.. فكان هناك رجل مثله يوقظ الناس للصلاة فى الأعياد المقدسة.. وكانت له أغنيات أيضاً. ولكنها لم تكن بهذا التنوع الذى وجده عند المسحراتى المصرى..

وسجل أغاني السقاين ونازحى المياه والذين يرفعون الماء بالشادوف. بل إنه كان يتسلل إلى الناس فإذا سمع لحناً جديداً، جلس وطلب من الذى يغنى أن

يعيد اللحن مرة أخرى.. فإن كان جديداً عليه سجله. وإن كان قديماً ولكن بتطريب مختلف راح يسأل ليعرف من أين جاء..

وشغلته كثيراً جداً موسيقى ورقصات العوالم والغوازي. وقد أطلال النظر إلى الغوازي كيف يرقصن وكيف يخلطن الحركات الجسمية بالمعاني الجنسية الفاضحة. وأنقل إليك الصورة الدقيقة التي كتبها عن إحدى الراقصات بعد أن سجل بالنوتة الموسيقية كل نغمة مصاحبة لحركاتها الجسمية.

يقول جيوم أندريه فيوتو:

«من الصعب أن نصف هذا النوع من الرقص في لغتنا بدقة. إذ يأتي على نحو لا يستطيع أحد أن يتخيل معه شيئاً يفوق فحش حركاتها.. ويعبر هذا الرقص الذي لا تكاد تسهم فيه سوى القدمين وأعلى الجسم، بأكبر التبذلات جسارة، عن الانتقالات الجامحة التي يمكن أن تحدثها الشهوة في النفس، والأفعال التي يمكن أن تؤدي إلى تصاعد عاطفة شبقية ودغدة بالغة القوة لرغبة حسية ملحة.. وفي البداية لا يبدو أن حركات الراقصة بالغة الوهن، لحد لا يمكن أن تفصح معه عن حقيقتها من غرض سوى التسلية البريئة، ولكن حين تصبح هذه الحركات محسوسة شيئاً فشيئاً، فإن المرء لا يلبث أن يتعرف على صورة متوثبة لكل ما للخلاعة من عهر فتعبيرات وجه الراقصة، وهيئة جسدها تعبر أكثر فأكثر عند ظهور الشهوة التي تنم عنها، وتجسدها حركات الجسم الخليعة، ويرى المرء تولد التوتر والشجن، فتعاقب الاضطرابات وخفقات القلب، وسرعان ما تعلن الرجفة التي تسرى في الجسد كله عن الرغبة الجامحة والملحة في المتعة والانتشاء، بل يكاد تحاكي تشنجات العملية الجنسية ويظن المتفرج أن الرغبة قد أشيعت، وسرعان ما ينقلب الأمر إلى وهن مصحوب بالخجل. لكن هذا الشعور العابر يأخذ في التلاشي شيئاً فشيئاً، لكي تتولد الثقة من جديد، وتعود الشهوة أكثر جموحاً عما كانت عليه في المرة الأولى.. وهكذا يستمر هذا التمثيل الصامت الخليع حتى يزهد الناس فيه فينسحب المتفرجون، أو حتى تزهد الراقصة فتتوقف.. وباختصار فإن كل حركات هذه الراقصة ترمى إلى التعبير عن مجاهدة العفة للشهوة، وعن انتصار الشهوة وهزيمة العفة. ويحس المرء إن كانت المعركة أكثر أو أقل تكافؤاً أو إذا كان الأكبر قوة هو الذي ينتصر ويجني ثمار نصره، وأنه لا مفر من استسلام الأضعف والخضوع لمشيئة المنتصر..

وهذا يتضح من حركات الراقصة ورنين الصاجات، برقة أو بعنف، أو فى تهدجها أو رنينها...».

ثم إنه سجل حركات يديها ورجلها ونهديها.. كل ذلك بالنوتة الموسيقية! وأطال الوقوف عند أبواب المساجد يسجل الأناشيد والأذكار فى مولد «ستى زينب»..

وهذا أحد الأناشيد:

رضيت بما قسم الله لى
وفوضت أمرى إلى خالقى
كما أحسن الله فيما مضى
كذلك يصلح فيما بقى
وقفت ببابك يا ذا الغنى
فقير وأنت بحالى عليم
وحاشا وكلا يخيب الذى أتى
بانكسار لباب الكريم..

وقد سجل موسيقى الأقباط وقال لعلها الموسيقى التى امتدحها الفيلسوف أفلاطون.. ولكن أقباط مصر ليس عندهم أى اهتمام بأى تقدم لهذه البلاد.. فهم قرفانون ويشعرون كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وهم أكثر الناس جهالة فى مصر. ولذلك لا يساهمون فى أى شىء من الممكن أن يؤدى إلى التطور.. وربما كانت موسيقاهم فى وقت من الأوقات أحسن وأجمل.. ولكن حالة الأقباط أسوأ من حال المسلمين.. فهم جميعاً مقهورون بدرجات مختلفة. ولذلك كانت موسيقاهم سخيفة.. وكانت صلواتهم طويلة جداً.. نوعاً من العذاب لا يقدر عليه إلا الأشداء.. ولذلك يحمل الناس عكاكيز إلى الكنيسة يستندون عليها أثناء الصلاة.

ودرس بالتفصيل موسيقى الأرمن.. وموسيقى الأحباش.. وموسيقى أهل النوبة.. ولاحظ أن الراقصة النوبية ترقص بكتفيتها بينما المصرية ترقص بساقيها ونهديها وردفيها..

أما الموسيقى الفارسية فهى التى تستحق عظيم الاحترام لما فيها من جمال وجلال.. فى لغتها وشاعريتها وأدائها وطلاوتها وسحرها. وفيها سمو للذوق. ولا شك أن الفرس هم أساتذة العرب فى كل شىء له علاقة بالذوق.

والألحان الفارسية والتركية هي التي طورت الذوق العربى والذوق المصرى بعد ذلك.

وعندما ذهب فيوتو مع الجنرال مينو إلى رهبان الدير اليونانى بالقرب من الإسكندرية وجد مخطوطة قديمة.. فيها المحاولات الأولى لتدوين الموسيقى بالنوتة.. والمخطوطة ناقصة.. ولكنها تدل على البداية العلمية للتدوين الدقيق..

ومن الحوادث الغريبة التي رواها فيوتو لأصدقائه عندما عاد إلى باريس أنه حاول أن يسجل الأغاني التي تقولها الأم وهي تهدد طفلها. وقد لاحظ أن في هذه الأغنيات كلمات يونانية وقبطية وفرعونية.. إنه على يقين من ذلك.. ولما حاول تسجيل هذه الأغاني وجد مقاومة عنيفة من الرجال. فطلب أن يستمع إلى الأغاني من وراء حجاب. ولكن الرجال رفضوا.. وحاول أن يستدرج الخادومات إلى أن يغنين أمامه. ولكنهن أيضاً رفضن.. فاقترح عليه بعض الأصدقاء أن الحل الوحيد هو أن يتزوج مصرية.. أما الصعوبة التي واجهته فهي أنه لابد أن يسلم وبعد ذلك يتزوج. وقيل له: يكفي أن تقول: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. لتكون مسلماً.. حتى لو كنت كاذباً!

ولكنه رفض أن يكذب. لأن الذي يكذب في هذا الموقف الخطير؛ كيف يكون صادقاً في كل الذي قام بتسجيله وتحليله. إنه لم يكذب على أحد أو على نفسه أو على التاريخ. فقد كان أميناً إلى أقصى درجة. وقد تكلف عناء ومرضاً. رفض أن يتزوج مصرية، وفضل أن يموت جاهلاً بمعاني أغنيات الأمهات، على أن يعيش كاذباً ولو مرة واحدة!

ومما أدهش فيوتو في مصر أيضاً أن المرأة المصرية تغنى في الحمام. وقيل له إنها تغنى أيضاً وهي في دورة المياه. وتساءل كثيراً عن معنى ذلك، ولكن لم يساعده أحد على معرفة مدى صحة هذه الحقيقة. وسافر إلى الإسكندرية وسأل بعض الأجانب: إن كانت المرأة المصرية تغنى أثناء الاستحمام أو أثناء جلوسها في دورة المياه.. وبالضبط ماذا تقول.. وما المعنى.. وهل في هذه الأغاني ما يدل على الألم وأنها تطلب من الله أن يسهل عليها.. وإن كانت هذه الأغاني تدل على الراحة والسعادة.. أو كانت هذه الأغنيات نهارة أو ليلاً.. وهل هي مصرية أو فرعونية.. أو تناقلها المصريون عن الشعوب الأخرى.

وسمع فيوتو أن المرأة المصرية ترقص لعريسها في الليلة الأولى لزواجهما.. ولكنه تأكد أن هذا ليس صحيحًا على الإطلاق.. وقبل أن يرفض هذا الذي سمعه، سأل عشرين شخصًا في أماكن مختلفة من مصر..

وسمع أيضًا عن شخص ظل يغنى حتى مات.. وأدهشه ذلك فراح يسأل فقيل له: بل كان مريضًا يتأوه فقط.. وكان يضرع إلى الله أن يشفيه وهو يتلو آيات من القرآن الكريم!

إذن المصريون ليس منهم من يظل يغنى ويتأوه حتى يموت! وفي يوم كان يمشى في أحد شوارع القاهرة، فإذا به يجد منظرًا غريبًا، فتوقف يسأل عن تفسير لهذا الذي له نظير في أوربا في العصور الوسطى.. فقد وجد شابًا يغنى تحت شباك وكان واضح السعادة.. فظن أنه يغنى للمحبوبة. كأنه واحد من الشعراء «الطروبادور» في أسبانيا وفرنسا الذين كانوا يغنون للمحبوبة تحت الشباك وتحت المطر.. ولكن اكتشف أن هذا الشاب أعمى، وأنه يلحن آيات القرآن لإحدى الفتيات.. وبعض الأناشيد وهي تردد ذلك.. فقد رفض أبوها أن يجلس الشاب معها مهما كان السبب.. وعلى الرغم من أن الشاب أعمى! وجلس يدون ترتيل القرآن.. وكانت النتيجة المتوقعة: لا يوجد أداء يشبه أداء آخر.. فكل من يقرأ أو من يغنى يرتجل ويضيف من عنده ما يشاء.. ومادامت لا توجد قاعدة واحدة سليمة قد اتفقوا عليها، فلا لوم على أحد ولا أمل سريعًا في وضع قواعد ومبادئ وأصول لكل الموسيقى المصرية الحديثة!!

٦ - هدية للرئيس مبارك

عند افتتاح سميراميس

فى مقدمة الجزء التاسع من الترجمة العربية لوصف مصر تقول السيدة عفت شريف حرم الأستاذ زهير الشايب: كان المأمول أن تكون هذه المقدمة بقلم مترجم الكتاب زوجى وأستاذى المرحوم زهير الشايب، لا قلمى، ولكن شاءت إرادة الله أن يجف المداد فى القلم، وأن يتوقف النبع عن الجريان وأيضاً أن يترك المترجم هذا المجلد مخطوطاً؛ ليكون خاتمة ذلك الجهد المضنى، الدائب فى سعيه، الصادق فى غايته، الجليل فى فائدته.

وتقول: أما موقع ترجمة موسوعة وصف مصر بالذات فقد جاء فى إطار الروح العامة التى سادت البلاد فى أعقاب نكسة سنة ١٩٦٧ من البحث والتفتيش فى تاريخ مصر عن المقومات التى تؤكد صلابة الشعب المصرى، وصموده فى وجه متحديه. ويقول زهير الشايب: إن الهدف من ترجمتى هو أننى أردت أن أسهم فى أن تستعيد مصر اسمها الذى كادت أن تفقده باتخاذ اسم لا تاريخ له ولا مضمون (يقصد عندما سميت مصر الجمهورية العربية المتحدة؟!) وأن أقدم لبلدى عملاً هو من أخص خصوصياتها.

أما هذا الجزء التاسع فمن أشق فصول الكتاب.. عن الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين.. ولا بد أنه لقى عذاباً ما بعده عذاب فى البحث عن الكلمات الموسيقية الفنية الرقيقة وعن العلامات الموسيقية ومدلولاتها الصعبة فى العربية وفى الفرنسية.

ومن المؤكد أن الأستاذ الأديب الفنان المؤرخ زهير الشايب يستحق عظيم وعميق الاحترام لهذا الجهد الهائل النادر من الشبان - يرحمه الله - لقد كان صابراً متواضعاً وطنياً مخلصاً لم يبتغ إلا وجه الحق. فمثل هذه الأعمال الشاقة لا تلفت الأنظار ولا تملأ الجيوب!

شكرًا عميقًا وصلوات ورحمة على روح الأديب زهير الشايب. فسوف يذكر له التاريخ هذا الإنجاز العظيم الذى هو أكبر دليل على صبره اللانهائى واحتماله الخرافى فى تقديم كتاب تنوء به الجبال. ولكنه لم ييأس. وقد لقى ما يلقاه الرواد فى كل علم من العلوم: لم نعرف قدره إلا بعد أن أصبح هو الآخر تاريخًا. ولو قرأ أو سمع زهير الشايب بعض هذا الذى أقول فمن يدرى ربما ارتسمت الراحة على وجهه والهناءة التى لم يذقها كاتبًا وروائيًا ومترجمًا، وأديبًا دائمًا!

كنت قد طلبت من الصديق زهير الشايب أن نذهب معًا للاحتفال بإعادة فتح قناة السويس. وكان اللقاء على ظهر إحدى السفن.. وطال وقوفنا مع السفير الأمريكى هرمان ايلتس الذى كان يتحدث عن القناة وعن الصعوبات التى وجدها الأمريكان فى تطهيرها.. فرويت له أن الإنجليز تضايقوا من الصحف المصرية؛ لأنها لا تتحدث إلا عن الجهود الأمريكية. مع أن الجهود البريطانية لا تقل، بل أحيانًا تزيد. وقلت له إننى ذهبت للقاء كابتن إحدى كاسحات الألغام البريطانية. وإننى أعجبت بالانضباط والأناقة فى كاسحة الألغام.. وكيف أن القبطان كان سيمًا رشيقًا أنيقًا.. أنيق الملبس والكلمات والحركات. حتى إننى اعتذرت عن لقائه بالقميص والبنطلون. فقال: أنا لا أستطيع أن أكون مثلك لأننى أقابلك أثناء ساعات العمل.

ولم يستطع القبطان البريطانى أن يكتم ضيقه من الصحف المصرية ولم يكتف بذلك بل سألنى مستنكرًا: أريد أن أفهم شيئًا فى أخلاق المصريين.. لماذا إذا سار أحد المصريين إلى جانب قناة السويس وكان يشرب الكوكا أو عصير الطماطم.. لماذا بعد أن يفرغ من الشراب، يلقي بالزجاجة أو بالعلبة الصفيح فى القناة ولا يلقىها فى الصحراء! لماذا فى القناة: إن الصوت الذى تحدثه علبة صفيح فى الأجهزة الإلكترونية كالصوت الذى يحدثه اللغم تمامًا.. فنحن هنا فى حالة اندهاش لا تنتهى.. فنحن نعمل طوال اليوم ننتشل علبة من الصفيح. وهذه اللعب كأنها إهانة لنا.. وأظنها إهانة لكم!

فابتلعت هذه العبارة الأخيرة ولم أعلق بشيء. وسألنى زهير الشايب: إن الرجل يستفزنا ومن الضرورى أن نرد عليه.. ثم عاد القبطان البريطانى يقول: عندى اقتراح للرئيس السادات.. لماذا لا يقوم بتجفيف قناة السويس ليسهل عليكم

تفريغ القناة من علب الطماطم والبول.. أنتم لستم فى حاجة إلى كاسحات ألغام! ووقف العصير فى فمى.. وصافحت الرجل فى ضيق شديد.. ووقفت على سلم كاسحة الألغام وألقيت بالعلبة الصفيع فى القناة وضحك الرجل ولم أضحك! ولم يشأ السفير الأمريكى أن يشاركنا فى الضيق أو الضحك وإنما أطبق شفتيه ودبلوماسيته.. ثم تراجع ليقدم لنا السفير الفرنسى.. وبسرعة قدمت زهير الشايب للسفير الفرنسى: سيادة السفير هذا الشاب ترجم كتاب «وصف مصر» واستوضحنى السفير فقلت: إنه وحده ترجم جانباً من كتاب «وصف مصر» وهو فى حاجة إلى رعاية وعناية من فرنسا لينهض بهذا العمل الجليل.. وبدت البهجة والاحترام على وجه السفير الفرنسى. ولم يدر ماذا يقول واتجه إلى زهير الشايب يسمع منه شيئاً عن عمله الجليل. ولكن الخجل منعه أن يقول أى شىء.. وكاد ينسحب كأنه يعتذر عن ذلك لولا أن أمسكت به. ووعدت السفير أن نجىء لزيارته معاً. فقال السفير: سوف أتصل بك لأحدد موعداً لغداء عمل أو عشاء.. لقد تشرفت يا سيدى بمعرفتك. واتطلع إلى يوم قريب أسمع منك عن تجربتك الفريدة!

ولم يذهب للقاء السفير الفرنسى.. ولم أعد أرى زهير الشايب.. ثم اختفى فى سلطنة عمان؛ ليعود منها ثم يذهب إلى حيث لا عودة. يرحمه الله.. كنت فى بون.. عندما تلقيت برقية طويلة جداً.. ربما فى ألف كلمة.. أطول برقية فى حياتى.. والأمضاء: السفير هانى أبوريدة!!

البرقية من باريس وفى نهايتها اسم الفندق الذى ينزل به ورقم تليفونه ورقم الغرفة وأرقام فنادق أخرى.. فى لندن بعد أيام ونيويورك بعد أيام أخرى.. أعدت قراءة البرقية. حاولت أن أفهم. والذى فهمته أدهشنى أكثر. إذ كيف خطرت له هذه الفكرة. وما علاقة السعوديين بذلك. وما المعنى وما الفائدة المادية وما الحكمة ولماذا؟ شىء عجيب جداً أن ترد هذه الفكرة على رأس أحد فى باريس وأن يختارنى لأداء هذا المشروع الجليل العاجل! ولماذا هو عاجل وكيف يكون عاجلاً! شىء غريب..

البرقية تقول: إننى فكرت مع آخرين فى أنك وحدك الذى تستطيع أن تقوم بهذا العمل وبسرعة. لقد شغلتنا فكرة ترجمة كتاب «وصف مصر» أعظم إنجازات الحملة الفرنسية. ما رأيك؟ إن الكتاب من مفاخر فرنسا.. ومن مفاخر كل من

يحاول ترجمته ومن يطبعه ومن يوزعه ومن يشتريه.. توكل على الله وفكر في الموضوع بسرعة.. ونحن جاهزون للنشر.. ليست عندنا مشكلة مالية من أى نوع! إذن هناك جماعة.. أو أناس.. أو شركة تريد ترجمة هذا الكتاب بسرعة وترى في ذلك شرفاً ما بعده شرف. ولم أفهم بالضبط من هؤلاء الذين يشرفهم أن يدفعوا مئات الألوف أو الملايين؟!

ودار حوار طويل مع السفير هانى أبو ريدة فى التليفون وقال لى: إنه الشيخ عبدالعزيز سليمان، أغنى أغنياء السعودية!

لم أفهم. ما معنى أن يقوم أحد أغنياء السعودية بنشر كتاب عن مصر.. وهو عمل ليس له عائد مادي.. وإنما هو عمل عظيم جليل فادح التكاليف ولا يمكن إنجازه إلا فى وقت طويل.. ولكنها فكرة عظيمة. وهى غريبة بقدر ما هى مثيرة. وقلت للسفير هانى أبو ريدة: أريد أن أفهم.. إنها فكرة عظيمة. ولا أعرف كيف اهتديت إليها.. ولكن يا ترى هل تدرك خطورة هذا العمل وما يحتاجه من إعداد وترتيب؟!

وقال ضاحكاً: كل شيء أعدنا له خطة.. لا مشاكل.. بعد أيام سنلتقى فى القاهرة.

والتقينا. ووجدت إجابة على كل سؤال. وقد اتضح كل شيء. فالشيخ عبدالعزيز سليمان هو صاحب فندق سميراميس وهو يريد أن يقدم نسخة من ترجمة وصف مصر للرئيس حسنى مبارك عند افتتاح الفندق! فكرة جبارة! وعلى بركة الله يجب أن أبدأ العمل فوراً.

وبسرعة كونت لجنة من د. حسين مؤنس ود. عبدالعظيم رمضان ومحمد العزب موسى وعبدالقادر التلمسانى وكمال الملاخ ووعدنى توفيق الحكيم بأن يشارك فى بعض الجلسات.

أما عبدالقادر التلمسانى وأخوه حسن التلمسانى فهما من دراويش الحضارة المصرية القديمة.. وقد قدما «وصف مصر» وكان حماس عبدالقادر التلمسانى عظيماً. ورأى فى هذا المشروع أملاً خرافياً.

وبدأت أبحث عن القادرين على الترجمة إلى الفرنسية.. ووجدنا عدداً قليلاً من الرجال والنساء.. وبدأنا نبحث كم يتقاضى من يترجم من الفرنسية القديمة إلى العربية السهلة وكيف تتم الترجمة. وإذا كانت لا توجد فى مصر إلا نسخة واحدة

أو نسختان من كتاب «وصف مصر» فكيف تصور هذه الكتب ونبعث بها إلى الأساتذة المترجمين.. وكم يتكلف التصوير والنقل.. وما هو الوقت المحدد.. ومن الذى يختار الموضوعات التى نبدأ بترجمتها.. وأساس الاختيار.

وفى يوم جاءنى السفير هانى أبو ريدة يزف البشرى: إن الشيخ قد وصل. وذهبت إليه فى فندق شيراتون.. وتشاء الصدفة أن يظهر على القناة الأولى فيلم من إنتاج عبدالقادر التلمسانى عن «وصف مصر» - مجرد صدفة. وخيل للشيخ عبدالعزيز سليمان أننى قد رتبت له هذه المفاجأة: وأكدت له: أنها محاسن الصدف.

وقال الشيخ عبدالعزيز سليمان كلاماً محدداً: إن المشروع يمكن الإنفاق عليه من أموال شركات مصر.

وأكدت له: إن الإنفاق يتولاه السفير هانى أبو ريدة.. أما أنا فسوف أفرغ تماماً للناحية الفنية.. ورجوته أن يكون السفير أبو ريدة على صلة مستمرة. وطمأننى على ذلك..

وفى باريس قابلت د. يحيى الجمل. وجلسنا فى مقهى «فوكيه» بشارع الشانزليزيه وعرضت عليه المشروع وسألته عن رأيه فكان حماسه عظيماً. واستعداده؛ لأن يشارك بالترجمة أو بالتقديم أو بالمشورة. واتجهنا إلى الناس حولنا وإلى الشارع وتكلمنا فى كل شىء.. ولكن المشروع شغلنى تماماً.. ولم أستطع أن أتحول عنه. فعدت أسأل د. يحيى الجمل: هل ترى أن هذا مشروع يجرى واحداً من رجال الأعمال؟

فكان رأيه. إنه يجرىه أدبياً.. يكفى أن يقول أو يقال عنه أنه الرجل الذى ترجم كتاب «وصف مصر» وقدمه هدية إلى مصر..!

مقابل ماذا؟

قال: هذا ما سوف نرى!

وفى جنازة صديقى وقريبى الوزير زكريا توفيق التقيت بالسفير هانى أبو ريدة.. فحدثنى عن المشاكل التى تواجه الشيخ عبدالعزيز سليمان فى هدم فندق سميراميس القديم.. وفى حصوله على الأسمنت وحديد التسليح اللازم لذلك.. وأنه لا يفهم لماذا يعوقون الهدم من أجل البناء.. ثم أشار إلى أن د. يحيى الجمل لديه معلومات عن كل شىء باعتباره محامى الشركة أو مستشاراً لإحدى الشركات.

وودعت السفير هانى أبو ريدة الذى كان فى طريقه إلى السعودية للقاء الشيخ عبدالعزيز سليمان - نسيت أن أقول إن السفير أبو ريدة هو المستشار المالى للشيخ عبدالعزيز.. ويعد أن ودعنى قابلت د. يحيى الجمل مرة أخرى فوعدنى بأنه بعد عودته من الأردن سوف يكون لنا لقاء طويل وحديث عن مشاكل هدم وبناء فندق سميراميس.. ومن السعودية جاء صوت السفير أبو ريدة وكانت لنا جلسة طويلة اليوم مع الشيخ عبدالعزيز.. واتفقنا على كل التفاصيل.. وأنت؟

قلت: لا أزال فى مرحلة الدهشة.. ولا أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك.. فأنا لا أعرف ما الذى أقوله لأعضاء اللجنة.. ولا أعرف مدى استعدادكم للإنفاق.. ولا من الذى ينظم الشئون المالية.. ولا ما هى الجهة التى تتكفل بذلك.. ثم إننى لم أتلق غير هذه البرقية.. بلا خطاب تكليف ولا عقد.. ولذلك فأنا لا أستطيع أن أعد أحداً بشيء.. فلا بد أن تجيء وأن تلتقى بالأساتذة الأعضاء وتقول لهم أو تتعهد لهم كتابة.. وإن وإن..

وسألنى هل ممكن مقابلة رئيس الوزراء؟

قلت: ممكن.. فهو صديقى..

قال: هل ممكن مقابلة الرئيس حسنى مبارك؟

فقلت ممكن.. ولكن لأى سبب؟

قال: الشيخ عبدالعزيز سليمان يريد مقابله.. هل تستطيع أن تدبر ذلك؟

قلت: يجب أن أعرف بالضبط لماذا يريد مقابله.. ويعد ذلك سوف أرى.. وأنت تعرف مسئوليات الرئيس.. والاعتبارات الكثيرة التى تحكم مثل هذه اللقاءات إن تمت..

سألنى: هل تحدثت مع الشيخ عبدالعزيز؟

قلت: لا.. فليس عندى ما أقوله الآن.. وليس قبل أن يتحدد شيء نهائياً.. متى

تعود إلى مصر؟

قال: بعد أيام..

قلت: هل أطلب من الأساتذة أعضاء اللجنة أن ينتظروك فى موعد محدد..

قال: لا.. البركة فيك..

وطلبت من د. أحمد قدرى رئيس هيئة الآثار أن يساعدنى فى اختيار من يراه

قادراً على المساهمة فى هذا المشروع الجليل.. وأن يكون عضواً فى اللجنة.. فكانت سعادته عظيمة.. وطلبت من صديقى كمال الملاخ.. فأسعده ذلك.

وعدت أؤكد للأستاذ الكبير توفيق الحكيم.. أن مشاركته ضرورية وأن وجوده بيننا شرف عظيم.. وذكرت أن طه حسين يوم دعانا لترجم مسرحيات لشيكسبير فأعطانى مسرحية «روميو وجوليت».. وأعطانى ابنه د. مؤنس طه حسين مسرحية هاملت.. ودارت مناقشة طويلة حول شيكسبير وترجمة أعماله وتقديمتها بعبارة عصرية.. أن هذا العمل أدبى خطير.. وأن دراسة وتحليل هذه المسرحيات وجعلها فى متناول كل المثقفين فى البلاد العربية سوف يدفع الشعر والمسرح العربى إلى الأمام.. ولا أعرف كيف انتقلت المناقشة إلى كتاب «وصف مصر» لا أذكر الآن. ولكن أتذكر جيداً ما قاله طه حسين. لو أمد الله فى عمرى لسعيت إلى تلخيص هذا الكتاب وتشويق الناس إليه.. ثم دعوت إلى ترجمته.. ولم أتذكر هذا الحوار الذى دار بينى وبين عميد الأدب العربى قبل ذلك بعشرين عاماً. ولم أكتب عنه. وقد عوضنا الله بتوفيق الحكيم ليكون حاضراً بيننا. ويكون حضوره وحماسه لهذا المشروع. سنداً لنا على مواجهة ما لا نهاية له من المصاعب!

واقترح توفيق الحكيم عدداً من أسماء رجال القانون المصريين، وأساتذة الجامعات. وكان من رأى توفيق الحكيم أن نبدأ بنشر مقدمة فى مجلد واحد للتعريف بهذا الكتاب الضخم. وهذا أسرع شئ يمكن أن يقدمه صاحب المشروع. أما ترجمة كتاب «وصف مصر» فهو أصعب وأعقد وكانت فكرة توفيق الحكيم شمعة أضاءت الكلام أمامنا.. فلم يكن أمامنا إلا ظلام وراء ظلام. إذن أسهل وأفضل لنا أن نقدم المشروع فى كتاب. وأن نختار ما نحب من اللوحات.. ويكون هذا الكتاب «عينة» أنيقة جميلة وفاتحة للشهية. وبعد ذلك نعكف على دراسة المشروع والاستعداد لتقديمه. ثم أضاف توفيق الحكيم أن يشترك معنا عدد من كبار رجال الآثار الفرنسيين والإنجليز والأمريكان والألمان.. فإضافة مثل هذه الأسماء الكبيرة يزيد الكتاب قيمة ويجعله عالمياً..

وكذلك كان رأى د. أحمد قدرى.. وسجلنا قائمة بأسماء العلماء هنا وهناك.. وفجأة قرأت نعيًا فى الصحف المصرية للسفير هانى أبو ريدة!

٧. بحثاً عن الترجمة الكاملة

لكتاب «وصف مصر»!

كان السفير هانى أبو ريدة واحداً من سكان الكواكب الأخرى، هبط دون مقدمات وفى يده خطاب شخصى من أحد ملوك الجان. الخطاب يقول لى: انهض فوراً. وضع يدك فى يدي لترجم كتاب «وصف مصر» فى أسرع وقت لكى نقدمه هدية للرئيس حسنى مبارك!

نهضت بسرعة. المفاجأة أذهلتنى. وفى ذهولى أيقنت أن المشروع سهل. وأنه يكفى أن أمسك القلم وأضعه على الورق ليتحول مجلداً بالفرنسية إلى خمسين بالعربية. وتخيلت من الذى سيقدم الهدية. وما الذى يقوله العالم عنى وعنا. وفجأة بعد أن نظرت إلى نفسى فى المرآة فوجدتنى عارياً تماماً. ولما «قرصت» نفسى اكتشفت أننى كنت أحلم. وأن السفير أبو ريدة هو الآخر كان يحلم. لما صحوت فوجدت حامل الرسالة قد مات.. إنه شاهد الإثبات الوحيد الذى فى يده الخطاب والرسالة. والذى يستطيع أن يقول ويقول بما يقطع إننى لم أكن حالماً ولا مجنوناً. انتهى!

إذن كانت فكرة المشروع «حيلة» لا بأس بها لكى يتمكن الشيخ عبدالعزيز سليمان من لقاء الرئيس حسنى مبارك ليشكو إليه المعوقات التى أصابت هدم وبناء فندق سميراميس! الفكرة رائعة.

(١)

وفى يوم سألت صديقى أحمد رائف صاحب دار الزهراء للإعلام العربى. فوافق فوراً. ولكن أحمد رائف رجل مهذب ورقيق الملمس، ولكنه ينطوى على كنوز من المرارة وغياهب من الظلام.. فقد تركت فيه السجون والعذاب والكفر بالإنسان الكثير الذى يظهر عند الهزات العاطفية.. والعقلية مثل هذا المشروع..

وكل الذين دخلوا السجون لم يخرجوا.. وإنما حملوا سجونهم على أكتفاهم وتحت جلودهم وفي دمائهم.. قلت له: ما رأيك؟
قال: الرأي رأيك.

قلت ندرس ونبحث.. وهو شرف عظيم للمترجم والناشر.. وجلست أبحث وجلسنا وكان لا بد أن أعرف حجم العمل.. ولا بد أن أقسمه.. وأن نضع خطة محكمة بأي فصول الكتاب نبدأ؟ وهل نترجم الكتاب كله؟ هل الحكومة؟ قابلت الصديق المرحوم عبدالحميد رضوان وزير الثقافة.. فقال: إنه ومن الذى يساعدنا على نشر الكتاب جاهزاً.. وسوف يساعد ما استطاع..
هل الحكومة الفرنسية؟ قيل لنا إنها تساعد مثل هذه المشروعات الثقافية.. وقد ساعدت كثيرين فى مصر وفى غيرها..
إذن على بركة الله نبدأ.

ولكن بأى شىء نبدأ.. أولاً بأن نعرف من هم القادرون على الترجمة من الفرنسية ومن هم القادرون على الكتابة العربية التاريخية الأثرية الصحيحة.. ومن يراجع ذلك..؟ وظهرت أسماء كثيرة فى كليات الآداب وأسماء بعض الأشقاء من سوريا ولبنان ومن أمريكا.. وكم ندفع لهم وبأية عملة ومتى..؟
مقدمًا؟ أثناء الترجمة؟ بعدها؟

وثانيًا: كيف نتعاقد مع هؤلاء الأساتذة وما اسم هذا المشروع وما هو التقدير المبدئى لهذا العمل الجليل؟ ومتى نعلن عن هذا المشروع؟ ومتى نحتفل أن تظهر ثمراته فى المكتبات المصرية؟

وثالثًا: يجب أن يكون أولاً: أن نعرف كم عدد النسخ الموجودة فى القاهرة أو فى مصر أو حتى فى العالم العربى، أو فى العالم كله من كتاب «وصف مصر».. وقد عرفت أن لدى هيئة الآثار نسخة.. وعرفت مكانها.. وفى مكتبة الجامعة الأمريكية نسخة.. وفى السفارة الفرنسية نسختان.. واحدة قد أوصى صاحبها ألا تبرح مبنى السفارة.. ونسخة عند الهيئة العامة للكتاب.

والخطوة التالية هى أن نقوم بتصوير نسخة وتوزيع فصولها على الذين سوف يترجمون.. وبدأ البحث فى الكاميرات الخاصة بنقل هذه الصفحات، وفوجئت بأن بعض المؤسسات تخشى على الكتاب أن يتمزق.. فلها شروط.. من أهم هذه الشروط هى أنها هى التى تتولى التصوير مقابل مبلغ كبير من المال؛ لأنها هى

التي سوف تختار المصور ونوع الكاميرا ونوع الإضاءة.. وأن هذا المصور موجود في باريس.. وأنه مشغول جدًا ولذلك يجب أن نتعاقد من الآن ليجيء إلى القاهرة ضيفًا على المشروع هو واثنان من مساعديه..

وبدأت أسمع عن ترجمات عربية كاملة! كاملة؟! ترجمة كاملة لكتاب ولم نسمع بها في مصر.. إنهم يؤكدون ذلك.. وقيل إن الألمان يترجمون كتابًا فرنسيًا عن مصر ويظهر الكتاب ويقال: إنه نفذ دون أن يدري به أحد! هكذا قيل! سألت سفارتنا في ألمانيا، لا علم عندها.. سألت عددًا من المستشرقين.. لم يسمعوا بشيء من ذلك.. إذن الاحتمال بعيد جدًا..

قيل لنا إنهم الفرنسيون طبعًا هم الذين أعادوا طبع الكتاب في صورة هدية وعلى ورق أقوى.. معقول.. وهم أيضًا الذين ترجموه من سوريا ولبنان.. اتجهت إلى صديقي د. فتحى محمد على وزير التعليم في ذلك الوقت.. وطلبت إليه تزكية لدى مستشارنا الثقافي في باريس.. ولدى وزارتي التعليم والثقافة الفرنسية.. وسافرت مع الصديق أحمد رائف إلى باريس.. ولم نتلق إجابة شافية.. ولا أكد أحد لنا أن فرنسا ترجمت الكتاب.. وإن قيل لنا: إن فرنسا ترجمت الكتاب.. وإن قيل لنا: إن الحكومة الفرنسية قد أعادت طبعه بشكل محدود جدًا.. وإن في استطاعتنا أن نحصل على نسخة.. وهذه النسخة نحن أحرار في تمزيقها وتصوير صفحاتها على النحو الذى نريد..

ورأيت اختصارًا للدوخة بين المؤسسات والهيئات أن أذهب مباشرة إلى الصديق العتيد لطف الله سليمان.. وهو اسم لا يعنى شيئًا عند عامة المثقفين الآن.. ولكنه كان يعنى عندنا الكثير في الأربعينيات والخمسينيات.. فقد كانت له مكتبة وكنا نتردد عليها.. وكانت المكتبة منتدى ثقافيًا لكل أنواع المفكرين والأدباء.. وكان لطف الله سليمان ذلك المفكر الماركسى هو الدينامو الذى يحركنا جذبًا وطردًا.. وهو إنسان شديد القلق.. ومضطرب الحيوية، فقد عمل في معظم مكتبات مصر.. وكنا نلاحقه أينما ذهب.. وهو بعينه الخضراوي أو الزرقاوين.. أو الحمراوي لست على يقين الآن.. وحاجباه الغليظان ومنظاره الأغلظ وصوته الذبيح، التقط الفكرة بسرعة.. وبسرعة أقام لنا مؤسسة ضخمة هو رئيسها.. وتضم عددًا من الموظفين والمستشارين وأكد لنا أن المشروع ممكن.. وأننا يجب أن ننتظر التعديل الوزارى الجديد في فرنسا، فالوزير الجديد

صديقه، وفى وزارة الثقافة الفرنسية اعتمادات مالية ضخمة لمثل هذه المشروعات الثقافية.. وإن المساعدة الفرنسية لنا سوف تكون بإعطائنا الورق اللازم أو الصور المناسبة وشراء عدد من النسخ.. بعد الترجمة.. وبناء عليه فهو المسئول فى فرنسا عن هذا المشروع.. وحده لا شريك له.. وهو وحده الذى يتكلم باسمنا.. ولكى يتكلم يجب أن نتعاقد معه.. ولكى نتعاقد لابد من خطاب ضمان لدى أحد البنوك، ويمقتضى هذا الخطاب يتقاضى أجراً شهرياً بالدولار كذا وكذا.. وأنه يرجونا بصفة خاصة ونظراً لظروفه.. أن ندفع مقدماً ستة شهور.. وأشار ناحيتى بأننى أعرف الظروف! وهزئت رأسى بما معناه أننى أعرف.. ولم أكن أعرف.. ولكن من المؤكد أن حالته المالية سيئة.. وهذه حكاية قديمة ومستمرة.. هذا كل ما أعرفه.. وندمت على أننى اشتريت له صندوقاً من الشيكولاتة.. فقد حاولت أن أكون متحضراً أما سبب ندمى، فهو أنه سألنى: ما هذا؟ قلت: كما ترى شىء يوكل..

فألقى بالشيكولاتة فى سلة المهملات قائلاً: ليس الآن كم ستدفع لى؟
بالتحديد وبالدولار؟!

قلت له: المهم أنك الآن تعرف هذا الناشر.. ولكى تعرفه أكثر فإنه من «الإخوان المسلمين»، كان.. ولكن لا يزال مسلماً.. وأنت من «الإخوان الماركسيين».. ولكن هذا لا يقدم ولا يؤخر.. المهم نجاح المشروع.. فإن كانت عندك تساؤلات فأمامك الرجل.. اسأل الآن لتعرف فوراً..

قال: كل الذى أريده قلته.. وبمنتهى الوضوح.. وأنا فى انتظار أوراق اعتماد وخطاب ضمان.. وسوف أكون أسرع فى البحث والتحرى.. ولكن لن أبادر بشىء قبل أن أتأكد من الاستجابة لكل مطالبى!
.. اتفقنا ..

(٢)

وفى لندن سمعنا الخرافات..
واحدة تقول بل الإنجليز لخصوا هذا الكتاب ونشروا التلخيص؛ لأنه من الصعب أن يقرأ أحد هذا الكتاب.
وقيل لنا أن التلخيص ظهر فى مجلدين وكان ذلك من عشرين عاماً - من عشرين عاماً - ولم يسمع به أحد من المؤرخين والأثريين فى مصر..؟

وقيل لنا: بل هما فعلاً مجلدان أحدهما اختصار للنصوص والثانى يضم اختياراً للوحات التى رسمها فنانون الحملة الفرنسية..

وقيل إن النسخ محدودة.. إذن لابد أن نذهب إلى المكتبة العامة.. وهناك سوف نجد كل نسخة من كل ورقة مطبوعة فى العالم.. ذهبت ولم أجد أثراً لذلك.. فالكتاب لم يولد!

ثم قيل لنا: لا.. لا.. بل الملخص.

مخطوط بقلم أحد أساتذة التاريخ، وقد توفى دون أن ينشره.. ولكن الورثة على استعداد لبيعه بأى ثمن؟

بأى ثمن؟ يا سلام.. ولماذا بأى ثمن؟ ما عيب هذه المخطوطة.. هل هى ناقصة؟ هل هى ركيكة؟ وكيف تكون ركيكة والمؤلف من أقطاب علم التاريخ الإنجليزى؟!

ثم قيل لنا: فعلاً كان فى نية أحد الأساتذة أن يلخص «وصف مصر» وكتب مقالاً طويلاً عن هذا الكتاب وأهمية تلخيصه لعامة المثقفين، تشجيعاً لهم على قراءته أو تشجيعاً على تلخيصه أو دعوته لترجمته!

آه.. فكرة يعنى.. حلم فى رأس هذا الرجل، كالحلم الذى كان فى رءوسنا؟ كان لابد أن نعود من حيث ابتدأنا؟

هل نقدم على مشروع أو لا نقدم؟ ترددنا.. تعثرنا.. زهقنا.. مللنا.. قرفنا.. ولكن الفكرة مثيرة تستاهل البحث والتعب.

وظهرت فكرة تدل على بداية اليأس أو على أننا أفقنا من الحلم الذهبى الذى أغرقنا فيه المرحوم هانى أبو ريدة.. وتساءلنا: الذى تساءل هو الأستاذ أحمد رائف ولماذا لا نطبع لوحات كتاب «وصف مصر» ونبيعها على أنها كروت تذكارية بالألوان.. مع كتابة سطور على ظهر الكارت.. ولماذا لا نجعل منها شرائح من البلاستيك ملونة يمكن رؤيتها بالفانوس السحري أو تكبيرها.. ولماذا لا نضع شرائط فيديو للوحات وصف مصر..

تماماً كما فعل عبدالقادر وحسن التلمسانى..؟ إنها فكرة تجارية مدهشة ورباحة مائة فى المائة - أى لا داعى للكتاب وإنما نكتفى باللوحات وصورها؟ وهى فكرة مغرية للناس.. ولكنها لا تغرينى يعنى المشروع انتهى! ويجب أن ينتهى!

سألت الصديق د. سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب: ما رأيك؟ قال: أنا مستعد أن أساعدكم بتصوير كل كتاب «وصف مصر».. هدية من عندي ومساهمة من الهيئة فى هذا المشروع..

سألت صديقى المرحوم محمد عبدالحميد رضوان وزير الثقافة فقال: وأنا أستطيع أن أساعد أكثر من د. سرحان فى الطباعة وفى الورق وفى الحصول على اعتماد مالى وشراء عدد من النسخ وسوف ألتقى بالسفير الفرنسى ووزير الثقافة الفرنسى.. فأرجو أن تضع فى يدى ورقة فيها فكرة المشروع بصورة محددة.. تأكد من ذلك.. وكنت على يقين من صدق عبدالحميد رضوان..

(٣)

وكنت قد أجلت بحث الترجمة التى نشرها المرحوم زهير الشايب من كتاب «وصف مصر» وكان فى نيتنا أن نتفاوض مع السيدة عفت شريف حرم زهير الشايب.. والتقيت بها وقلت إننا سوف نترجم ما لم يترجمه زهير الشايب وأنا نريد أن نتفق معها على نشر كل ما ترجمه ضمن الترجمة العامة لكتاب وصف مصر.. وقد وعدت بأن تفكر فى الأمر والتقيت بها أكثر من مرة.. وفى كل مرة تعد بأنها سوف تعيد النظر فى الأمر وفى حساباتها.. ولم يكن من الصعب أن نستنتج أنها لا توافق، ولكنها لا تريد أن تقول ذلك.. فقلت لعلها اتفقت مع ناشر آخر.. أو لعلها لا تريد أن تكون ضمن «آخرين».. وأنها تريد أن تستقل وحدها بالنشر.

ولعلها ولعلها.. وهذا حق لها وأنها لابد اختارت الذى يريحها.. ولم تعدنا بأى شىء.. ونحن أيضاً لم نستطع أن نعدّها بأى شىء.. وانتهى الحوار بيننا عند هذا الرفض المذهب.. من جانبها، وعند فهم ذلك واحترامه من جانبنا.. وفهمت من الأستاذ أحمد رائف، أنها تخرجت أن تصارحنى بذلك وأنها اتفقت مع ناشر آخر وهذا الاتفاق نهائى.

ولم نفلح فى أن نقنعها بأى اتفاق أو تعاقد خاص يضمن لها كل حقوقها فى أى وقت.. كأن يكون لنا حق الترجمة مرة واحدة مقابل مبلغ معين.. وأن ننفرد بعد ذلك بكامل حقوقها.. ولا أن نختار بعض الفصول من ترجمة الأستاذ زهير الشايب وأن ننشرها بصورة أنيقة كإعلان عن المشروع ودعوة لأن تساهم فيه هيئات رسمية فى مصر وفى فرنسا.. ولكن السيدة عفت شريف لم تشأ أن تقول لا

أو تقول نعم.. انتهى.. وأقنعت السيد عبدالحميد رضوان ألا يحاول. بصورة أخرى مع السيدة عفت شريف.. لإقناعها فقد اتخذت موقفًا رافضًا نهائيًا.

وكان من رأيي ألا نتخلى عن الفكرة وإنما نبحث معًا عن شكل آخر نحكى فيه ما حدث وعن المحاولات والمفاوضات والمشاكل والصعوبات - وفي نفس الوقت نؤلف كتابًا بعنوان «وصف مصر» أو «وصفة» لوصف مصر.. وكيف يمكن أن نعود إلى التفكير في هذا الموضوع بصورة أخرى.. وبمساعدة من هيئة ثقافية عالمية اليونسكو مثلاً.. فإنقاذ وصف مصر مثل إنقاذ معبد أبي سمبل.. فلا يزال كتاب «وصف مصر» نموذجًا رفيعًا للجهود العلمية والفنية الشابة لكتابة «بطاقة هوية» لمصر في أوائل القرن الثامن عشر.. مع بداية النهضة ومع وصف لما تبقى من مصر الإسلامية والتركية والإغريقية والرومانية والقبطية والفرعونية ثم إن هذه الجهود الشابة الصابرة المثابرة المتعمقة الجادة نموذج رفيع المستوى لكل من ينقش في الصخر. بحثًا عن الحقيقة وتسجيله لها..

فالفرنسيون بهذا الكتاب وباكتشاف حجر رشيد.

أشاعوا النور والاحترام والعظمة في كل تاريخ مصر.. ثم إنهم رصفوا الطريق وفتحوا الأبواب للعالم كله أن يجيء سائحًا ومتفرجًا وباحثًا في كنوز مصر.

ثم مفاجأة أخرى مات عبدالحميد رضوان..

الفهرس

٣	كلمة أولى
١٣	العقاد بحر بلا انتهاء!
١٩	طه حسين: فى البدء كان الشعر!
٢٧	المازنى أول أديب وجودى!
٣٤	أطبق عينيه ليرى!
٤٤	عبدالرحمن الرافعى.. ناظر مدرسة التاريخ تهذيب وإصلاح!
٥١	إيليا أبو ماضى: أروع الحائرين!
٦٠	الله قال لى: اكتشفنى.. فكانت دراستى للتاريخ
٦٧	شاعر الثورة الفرنسية: فى زفافه الجنائزى!
٧٥	جان كوكتو: نسر له رأسان!
٨١	شارلى شابلن: صرصار يطارده برغوث !
٨٨	١ - هتلر.. وأساطير جرمانية أخرى!
٩٦	٢ - هتلر: أعظم قوة خراب فى التاريخ!
١٠٣	٣ - هتلر.. الوجود والعدم!
١١١	٤ - هتلر المنوم المغناطيسى البهلوان!
١١٨	٥ - من هتلر إلى الطوفان إلى الوجودية!
١٢٦	مارتن هيدجر أبو الوجودية الحديثة لم يكن داعية للنازية!
١٣٤	أنت الراعى.. والغنم والذئب
١٤١	هل نعيد قراءة الوجودية؟!
١٥٣	يا أستاذ: أعطها آخر خيط حرير!
١٦٣	١ - فشل: غزو مصر.. نجح: وصف مصر
١٧١	٢ - الأحجار التى وجدوها: الأهرامات والوجوه المصرية.. ثم حجر رشيد!
١٨٠	٣ - الأرض الزراعية هى أعظم مصانع مصر!
١٨٧	٤ - المصريون أعظم الموسيقيين فى العصور القديمة
١٩٦	٥ - شديد الأسف.. لأنه لم يعرف ماذا تغنى المرأة فى الحمام!
٢٠٦	٦ - هدية للرئيس مبارك عند افتتاح سميراميس
٢١٣	٧ - بحثاً عن الترجمة الكاملة لكتاب «وصف مصر»!

أحدث إصدارات الأستاذ أنيس منصور

(أ) ترجمة ذاتية:

- ١ - فى صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
- ٢ - عاشوا فى حياتى.
- ٣ - إلا قليلاً.
- ٤ - طلع البدر علينا.
- ٥ - البقية فى حياتى.
- ٦ - نحن أولاد الفجر.
- ٧ - من نفسى.
- ٨ - حتى أنت يا أنا.
- ٩ - أضواء وضوء.
- ١٠ - كل شىء نسبى.
- ١١ - لأول مرة.
- ١٢ - شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

- ١٣ - الحائط والدموع.
- ١٤ - وجع فى قلب إسرائيل.
- ١٥ - الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل).
- ١٦ - عبد الناصر - المفترى عليه والمفترى علينا.
- ١٧ - فى السياسة (٣ أجزاء).
- ١٨ - الدين والديناميت.
- ١٩ - لا حرب فى أكتوبر ولا سلام.
- ٢٠ - السيدة الأولى.
- ٢١ - التاريخ أنياب وأظافر.
- ٢٢ - الخالدون مائة - أعظمهم محمد (ﷺ).
- ٢٣ - على رقاب العباد.

٢٤ - ديانا أخرى.

٢٥ - وكانت الصحة هى الثمن.

٢٦ - الغرياء.

٢٧ - الخبز والقبلات.

(ج) قصص:

٢٨ - عزيزى فلان.

٢٩ - هى وغيرها.

٣٠ - بقايا كل شىء.

٣١ - يا من كنت حبيبى.

٣٢ - قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات:

٣٣ - رومولوس العظيم.

٣٤ - زيارة السيدة العجوز.

٣٥ - زواج السيد مسيسبى.

٣٦ - الشهاب.

٣٧ - هى وعشاقها.

** للأديب السويسرى ماكس فريش:

٣٨ - أمير الأراضى البور.

٣٩ - مشعلو النيران.

** للأديب الفرنسى جان جيروودو:

٤٠ - من أجل سواد عينيها.

** للأديب الأمريكى آرثر ميللر:

٤١ - بعد السقوط.

** للأديب الأمريكى تنسى وليامز:

٤٢ - فوق الكهف.

**** للآديب الأمريكى يوجين أونيل:**

٤٣- الإمبراطور جونز.

**** للآديب الفرنسى يوجين ليونسكو:**

٤٤- تعب كلها الحياة.

**** للآديب الفرنسى أداموف:**

٤٥- الباب والشباك.

**** للآديب الأسباني أربال:**

٤٦- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧- الحنان أقوى.

٤٨- من أول نظرة.

٤٩- طريق العذاب.

٥٠- ألوان من الحب.

٥١- شباب.. شباب.

٥٢- مذكرات شاب غاضب.

٥٣- مذكرات شابة غاضبة.

٥٤- جسمك لا يكذب.

٥٥- الذين هاجروا.

٥٦- غرباء فى كل عصر.

٥٧- أظافرها الطويلة.

٥٨- هموم هذا الزمان.

٥٩- زمن الهموم الكبيرة.

٦٠- الحب الذى بيننا.

٦١- عذاب كل يوم.

٦٢- كيمياء الفضيحة.

٦٣- كل معانى الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤- الذين هبطوا من السماء.

٦٥- الذين عادوا إلى السماء.

٦٦- القوى الخفية.

٦٧- أرواح وأشباح.

٦٨- لعنة الفراعنة.

٦٩- دقائق الصحة هى الثمن.

(ز) نقد أدبى:

٧٠- يسقط الحائط الرابع.

٧١- وداعاً أيها الملل.

٧٢- كرسى على الشمال.

٧٣- ساعات بلا عقارب.

٧٤- مع الآخرين.

٧٥- شىء من الفكر.

٧٦- لو كنت أيوب.

٧٧- يعيش.. يعيش.

٧٨- الوجودية.

٧٩- طريق العذاب.

٨٠- وحدى.. مع الآخرين.

٨١- ما لا تعلمون.

٨٢- لحظات مسروقة.

٨٣- كتاب عن كتب.

٨٤- أنتم الناس أيها الشعراء.

٨٥- أيها الموت.. لحظة من فضلك.

٨٦- أوراق على شجر.

٨٧- فى تلك السنة.

٨٨- دراسات فى الأدب الأمريكى.

٨٩- دراسات فى الأدب الألمانى.

٩٠- دراسات فى الأدب الإيطالى.

٩١- فلاسفة وجوديون.

٩٢- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

٩٣- حول العالم فى ٢٠٠ يوم.

٩٤- بلاد الله خلق الله.

٩٥- غريب فى بلاد غريبة.

٩٦- اليمن ذلك المجهول.

٩٧- أنت فى اليابان وبلاد أخرى.

٩٨- أطيب تحياتى من موسكو.

٩٩- أعجب الرحلات فى التاريخ.

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠٠- مدرسة الحب.

١٠١- حلمك يا شيخ علام.

١٠٢- مين قتل مين.

١٠٣- جمعية كل واشكر.

١٠٤- الأحياء المجاورة.

١٠٥- سلطان زمانه.

١٠٦- العبقري.

١٠٧- كلام لك يا جارة.

١٠٨- فوق الركبة.

١٠٩- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).

١١٠- يوم بيوم.

١١١- إنها الأشياء الصغيرة.

١١٢- إلا فاطمة.

١١٣- القلب أبداً يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

١١٤- حقنة بينج.

١١٥- اثنين.. اثنين.

١١٦- عريس فاطمة.

١١٧- من الذى لا يحب فاطمة.

١١٨- غاضبون وغاضبات.

١١٩- هى وغيرها.

١٢٠- هى وعشاقها.

١٢١- العبقري.

١٢٢- القلب أبداً يدق.

١٢٣- حلمك يا شيخ علام (مسرحية).

١٢٤- يعود الماضى يعود.

(ك) كتب (مقالات):

١٢٥- ثم ضاع الطريق.

١٢٦- النجوم تولد وتموت.

١٢٧- هناك أمل.

١٢٨- أحب وأكره.

١٢٩- الحيوانات ألطف كثيراً.

١٣٠- مصباح لكل إنسان.

١٣١- أتمنى لك..

١٣٢- لعل الموت ينسانا.

١٣٣- اقرأ أى شىء.

١٣٤- ولكنى أتأمل.

١٣٥- حتى تعرف نفسك.

١٣٦- الحب والفلوس والموت.. وأنا.

١٣٧- نحن كذلك !!

١٣٨- اللهم إنى سائح.

١٣٩- كائنات فوق.

١٤٠- تعال نفكر معاً.

١٤١- آه لو رأيت !

١٤٢- النار على الحدود: لعبة كل العصور.

١٤٣- انتهى زمن الفرص الضائعة !

١٤٤- هناك فرق.

١٤٥- الرئيس قال لى.. وقلت أيضاً -

الجزء الأول والثانى.

(ل) الترجمات القصصية:

١٤٦- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكى

أرفنج والاس.

١٤٧- (المثقفون) للأديبة الوجودية

سيمون دى بوفوار.

١٤٨- (لو كنت مكانى) للأديب

السويسرى ماكس فريش.

١٤٩- (قصص مورافيا) للأديب

الإيطالى ألبرتو مورافيا.

١٥٠- (الجلد) للأديب الإيطالى كورتسيو

مليبارته.

١٥١- (الجيل الصاخب) للأديب

الأمريكى جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

- ١٥٢- الفلسفة الوجودية الألمانية لإميل تسلر.
١٥٣- الفلسفة الوجودية الفرنسية -
لجان جاك روسو.
١٥٤- معنى العدم عند هيدجر وسارتر -
لجانيت أردمان.
١٥٥- مسرح العبث الفرنسي - لاتيان ماريبو.
١٥٦- الفيلسوف الروسي برديائف -
لفيكتور لوزتسيف.
١٥٧- من كيركجور إلى مارسيل -
لأنطوان بابيف.
١٥٨- سيمون دبوفوار تلميذة رصينة -
لفرنسواز روسلان.

- ١٥٩- رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.
١٦٠- فاشلون لكن نبلاء - لجان ماري روار.
١٦١- ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر.
١٦٢- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.
١٦٣- فلسفة حنا أرنت - تلميذة
للفيلسوف الألماني مارتن هيدجر -
لآدم برجشتاين.
١٦٤- كروتشه فيلسوف الحرية -
لايرابيل دلورنتس.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

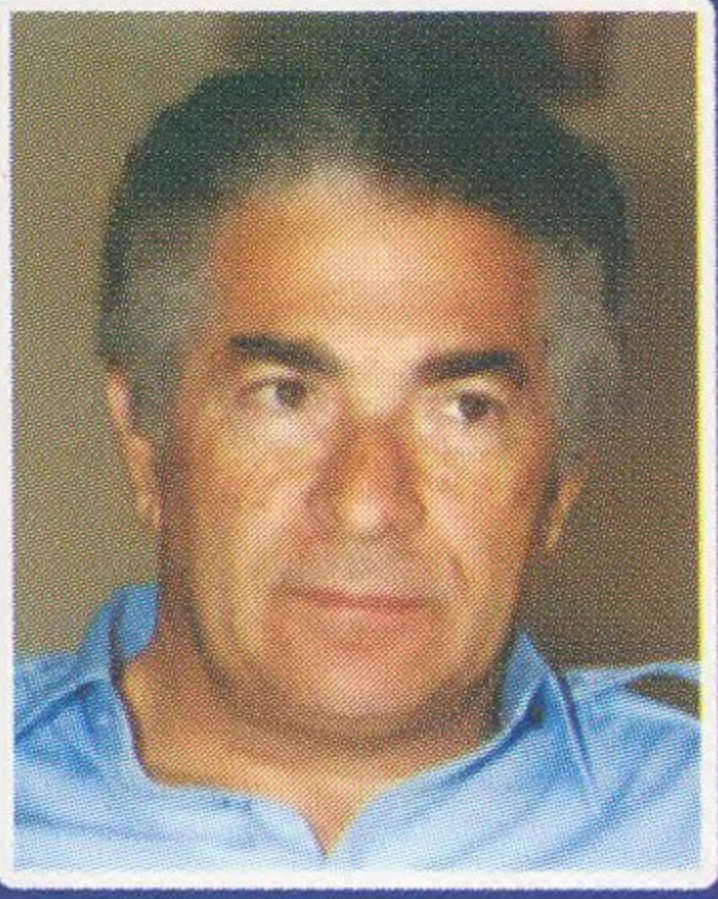
للتعرف على أحدث إصداراتنا الثقافية بمختلف أشكالها (كتاب / CD)

زوروا موقعنا على الإنترنت : www.nahdetmisr.com على الرقم المجاني 07775666



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٧٨
www.nahdetmisr.com



فلاتلك الرسالة .. هؤلاء العظماء ولدوا معنا



نحن لا نعرف كيف يظهر إنسان عظيم، ومادام قد ظهر فلا بد أن له دورًا في حياتنا.

فإذا ظهر إلى جواره عظيم آخر، فلا بد أن لهما رسالة، وهذه الرسالة هي دفع الناس إلى الأمام قليلًا.

ولكن ما هي العلاقة بين العظيم وظروفه؟

وما هي الصلة بين ظهور عدد من العظماء في بلد واحد في زمن واحد؟

ثم ما معنى أن تمضي مئات السنين فلا يظهر أحد عظيم؟!

فنجد في القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت أسماء لامعة باهرة في الحضارة الإغريقية. ثم لا نجد لهم نظيرًا بعد ذلك حتى اليوم .. فلماذا ظهوروا معًا واختفوا معًا ..؟

أنيس فتوى

Bibliotheca Alexandrina

0430999



نهضة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٢٨

www.nahdetmisr.com